
قصص من الصين
تأليف
بيرل س. بك
بإشراف إدارة الثقافة العامة
كتاب
وزارة التربية والتعليم مصر
ترجمة: صبحي وصفي
مراجعة: إبراهيم زكي خورشيد

الألف كتاب

قصص من الصين

الادارة العامة للثقافة
وزارة التربية والتعليم
الاقليم الجنوبي
مكتبة القاهرة الحديثة
١٦٩ شارع التحرير بمصر

تصدر هذه السلسلة

بمعاونة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

الألف كتاب (٢٩٢)

قصص من الصين

تأليف

بيرل بس. بك

ترجمها
صبحي وصفي

راجعها
ابراهيم زكي خورشيد

الناشر



هذه ترجمة قصص :

١ — من كتاب **Today & Forever**

١ — His own Country

٢ — Guerrilla Mother

٣ — Tiger ! Tiger !

٤ — The Face of Buddha

٥ — The Lesson !

٦ — The Old Demon

٢ — من كتاب **The First Wife**

١ — Repatriated

٢ — The Frill

٣ — Father Andrea

٤ — The New Road

من تأليف

Pearl S. Buck

وطنه

كان جون ديوى تشانغ يعلم دائماً أن شارع موط بنيويورك ليس هو وطنه ، وكان الناس يقولون عن هذا الشارع إنه الحى الصينى ، بيد أنه كان يختلف عن وطنه . صحيح إن جون قد ألف كل الإلف جميع تلك الطرقات الضيقة الكثيرة الجلبة والضوضاء ، وعرف المحلات التى امتلأت واجهاتها بخليط من السلع المستوردة من وراء البحار والسلع الأمريكية ، وعرف الرجال والنساء والأطفال الكثيرين الذين اصفرت بشرتهم كما اصفرت بشرته واسودت عيونهم اسوداداً ؛ فقد ولد الكثيرون منهم مثله فى هذه الشوارع المزدحمة الشديدة الحركة ، ولم تقع عيونهم على غيرها قط ، ومع ذلك فقد كان يعلم أن هذا الحى ليس هو وطنه .

ولم يكن السبب فى ذلك راجعاً بحال إلى غرابة أطواره ، أو أنه كان ، وهو طفل على الأقل ، يكره الحى الصينى . فالحق أنه قضى زمناً طويلا لا يفكر فى أى وطن آخر ، وقد شب عن الطوق بعد أن كان طفلا هادئاً وديعاً لا تنفك أمه عن حمله بين ذراعيها إذا ما استيقظ ، ويروح هو وهى يحملقان فى تلك الأشياء المتنوعة التى

تتحرك فى الطريق خارج محل العاديات الذى يملكه أبوه . وكان إذا نام حملته أمه إلى غرفة داخلية يغشاها شىء من الظلام ، وتفوح منها رائحة الأعشاب الجافة والزنجبيل والشاى . وكان هذان المكانان هما عالمه ، بل هما وطنه بقدر ما يعلم .

والحق أن المرة الأولى التى عرف فيها أن هذا الحى لم يكن وطنه ، بل لم يكن وطن أحد من بنى جلدته ، كانت عندما التحق بالمدرسة . وكان والداه قد أخذا يتدارسان أمر تعليمه بصوت مرتفع وهما يتناولان الأرز من طاسيهما ، ثم استقر قرارهما على ألا يلحقاه بروضة الأطفال ، ولم يحفل هو بذلك فقد كان من الأروح لنفسه أن ينطلق فى الطرقات مع كثير من الأطفال الصغار الذين يغلب على بشرتهم البياض على الصفرة ، وأن يعتلى ظهور السيارات ويغيظ رجال الشرطة ذوى القلوب الرقيقة الرحيمة ، إلا أنه حل اليوم الذى بلغ فيه السادسة من عمره ، فلم يكن بد من أن يكف عن هذا كله . أجل لقد حان الوقت الذى يجب أن يبدأ فيه تعليمه . ونهضت أمه مبكرة ، ترتدى سترتها الصينية السوداء القديمة المصنوعة من القطن ، المفكوكة عند العنق ، ولم تكن قد مشطت شعرها بعد ، وألبسته حلة مخططة زرقاء بلون السماء ، نظيفة غاية النظافة ، وراحت وهى تفعل هذا تبصره بسلوك الصبية الصغار فى اليوم الأول من التحاقهم بالمدرسة ، محدثة إياه بلغتها ، ذلك أنها لم تكن قد تعلمت

الإنكليزية طوال هذه السنين . وكان هو يحادثها بلغتها ، فإذا انطلق إلى الشوارع نسى أنه يتحدث بأية لغة أخرى سوى رطانة الصبية البيض . وكان ينصت إلى أمه فى وقار ، شاعراً بشىء من الحشمة يهبط عليه ولا يمت إلى نيويورك بسبب ، ثم قالت له أمه فى لهجة غاية فى الرصانة والجد « هكذا يكون سلوك الصبية الصينيين الصغار » وقال له أبوه : « لا تنس أنك ابن من أبناء هان ، وأنك غريب عن هذه القبائل البيض المتوحشة التى قدر علينا أن نعيش بين ظهرانيها حتى يتيسر لى أن أصبح من الأثرياء ، فكن مؤدباً مع معلمتك ، وأطع من يكبرونك سناً ، وانصرف إلى كتبك »

وكان أبوه وأمه وقت الإفطار بطوله يتوقفان ، ويرفع كل منهما عصا طعامه فوق طاس من ثريد الأرز ، ليزيداه من النصح الطيب الصادق ، وأطلق عليه أبوه بعد أن فرغ من إفطاره اسمه المدرسى ، وهو جون ديوى تشانغ ، وكان لقبه فى المنزل حتى ذلك الحين « الكلب الصغير » ، وفى الشارع « تشنك » [1] ، إلا أن أباه كتب الاسم على قصاصة من الورق ليسلمها إلى معلمته حتى تثبت اسمه جون ديوى تشانغ صحيحاً فى السجلات ، وقال له أبوه إن جون ديوى اسم رجل أمريكى ساعد على فتح مدارس جديدة

---

(١) « تشنك » كلمة أمريكية دارجة معناها صينى .

نافعة فى الصين وقد قرأ ذلك فى الصحف التى جاءته من مسقط رأسه فى تلك البلاد .

وصحبه أبوه إلى المدرسة ، وقدّمه إلى المعلمة ، ولم يلبث أن بدأ فى دراسته . ذلك أنه اتفق أن صدر الأمر إلى التلاميذ أن يصطفوا صفاً وأن يسيروا من هذا الفصل الصغير إلى فصل أكبر منه ، على أن يمضوا إلى ذلك اثنين اثنين . واتخذ جون تشانغ مكانه فى الصف خفيفاً نشيطاً وأشرق وجهه بالجد والاهتمام . وسار التلاميذ مثنى ، ومضى بعضهم قبله وبعضهم بعده . إلا أن أحداً لم يأت ليقف بجانبه ، ثم وقفوا اثنين اثنين ، ووقف هو وحده فى الوسط حتى لم يبق آخر الأمر إلا صبية بيضاء بدينة صغيرة . أجل صبية صغيرة ممتلئة الجسم لها ذؤابات خفيفة جدلت بإحكام وربطت بقطع من الشريط الأحمر ، وكانت هى أيضا تقف وحيدة .

وقالت الآنسة بنكنى : « فلتقبلى ياماري ، ولتقفى بجوار جون »

إلا أن مارى لم تقبل ، وعجب جون إذ رأى الصبية الصغيرة تهز رأسها هزاً عنيفاً ، وتقول بلهجة بغيضة : « كلا لست بفاعلة ، ولن أسير بجوار صينى »

ورمقتها الآنسة بنكنى بنظرة قاسية لم تدم إلا لحظة ، ثم أخذت هى نفسها بيد جون وقالت : « حسن جداً ، فلتسيرى وحدك ، أما أنا فسأسير مع جون »

وخيم سكون مطبق على الصف المزدوج ، وأدرك جون ديوى تشانغ أنه لبس من قبيـــل السكون الذى ينم عن العطف ، وأمسك بيد الآنسة بنكنى فى يقظة وانتباه ، وقد خلت أساريره من أمارات الغبطة والسرور ، ذلك أنه كان يدرك أنه يؤثر أن يسير مع مارى . وكان هذا بداية تعليمه .

وهكذا بدأ جون تعليمه ومضى فيه سنوات كثيرة . وألف بعد حين أموراً أخرى . تعلم فى هدوء أن ينتظر حتى يجد كل من عداه من التلاميذ إخواناً لهم . فإذا واتاه الحظ أن يبقى منفرداً وقف وحده فى نهاية الصف ، وإذا كان العدد زوجياً ، وخاصة حين يكون شريكه فتاة ، راض نفسه على أن يقف فى شىء من الترفع الرقيق ينتظر . وأصبح يحس بالجو السائد ، سواء انطوى على الترحيب أو الصد ، كأنما رزق كالحشرات قرون استشعار. ولم يكن يشكو قط أو يفضى بما يعانيه إلى والديه ، بل انطوى على نفسه وأصبح شاباً صموتاً ، مثابراً هادئاً كل الهدوء حسن الهندام لا يفصح عما فى نفسه ، وجعل غايته أن يكون الأول فى فصله وأن يفوز بجوائز التفوق . وكان والداه يفخران به كل الفخر ، ويتحدثان عما يفعلان حين يبلغ السن التى تؤهله لتولى أمر المحل . وكان جون يقضى أمسياته عاكفـــاً على دفاتر الحسابات الخاصة بأبيه بعد أن يفرغ من دروسه . على أنه كان يعلم بالرغم من ذلك أنه لن يتولى أمر المحل ،

ذلك أنه كان قد أدرك وقتئذ أن هذا الوطن ليس وطنه، وانطوى صدره على هدف خفى، بل مطمح يقض مضجعه، فقد جعل همه أن يجد وطنه.

ولم تزده الطرَف والعقود والأصنام، والصور الملونة المبهمة المرسومة على اللفائف، ومئات القطع الغريبة ذات الجمال العجيب التى كان يعرضها أبوه للبيع، إلا شوقاً للارتحال إلى مصدرها. وراح يخرجها فى رفق من صناديقها المليئة بالقش، وهى صناديق كبيرة من الخشب ختمت بحروف حمر وسود غامضة، ثم يتساءل، أو قل يحلم، بأرض أخرى يتمثل فيها الجمال على صورة هذه الأشياء.. أرض وطنه!

ولقد سمع چون بطبيعة الحال عن تلك البلاد من أناس كثيرين، وتعلم أن يقرأ شكسبير والتاريخ الأمريكى وهويتر ولونجفلو، ويقرأ أيضاً الخطوط الطويلة المستقيمة التى تتألف منها حروف لغته، فقد كان يوافيه ليلا رجل طاعن فى السن يتولى تعليمه، ويشرح له أوزان الشعر القديم الرتيبة، وكان جاراه — چورج ليو وروث كين — يثوران أشد الثورة لذلك، ولم يتعلما قط ما يكفى لإدراك المعانى الخفية لتلك الأقواس والمربعات. وكانت روث تطوح برأسها الجميل ذى الشعر الأسود المموّج،

وتقول بصوت عال وهى تمضغ اللبان بسرعة : « وى .. فيم كل هذا ؟ إن لدى ما يشغلنى عن مكايدة ذلك ! » . وكانت الفتاة ترمق هارى سيلز ، الشاب البقال الذى يقيم بجوارها ، بعينيها السوداوين المنحرفتين . ولم يكن هذا بطبيعة الحال يعنى أنها سوف تتزوج رجلا أبيض ، وكل ما فى الأمر أن البيض مدعاة للهو والتسلية . وما من شك فى أنها كانت ترى أن لابد لها من الاستقرار وأن تتزوج صينياً من الطراز الحديث ، لاصينياً من الطراز القديم . أجل تتزوج فتى فطناً ، وقد يكون هذا الفتى هو چورج ليو ، إذا بلغ من الفطنة ما يرضيها ، وسيكون لهما شقة صغيرة تتوفر فيها الكهرباء . وكانت إذا سألها سائل أتريد العودة إلى الصين أغربت فى الضحك وقالت : « العودة إلى ماذا ؟ لست أنا التى تعود إلى الصين ! إنهم يقولون لى إن الأنوار الكهربائية لا تتوفر فى مسقط رأسنا القديم فى الصين ! ثم إن القوم لايزالون يحبسون الفتيات فى المنازل هناك ! » . وعادت تغرب فى ضحكها الرقيق العالى النبرات ، يرتفع به صوتها ارتفاعاً خفيفاً ، ذلك أن هارى سيلز كان يقف بباب محله . وافتر لها ثغر هارى عن ابتسامة تنم عن الكسل ، وصاح بها : « أراهن أنهم ما كانوا يستطيعون حبسك فى المنزل لو أنك كنت هناك ! » .

فالتفتت إليه قائلة وهى تزر عينيها : « لاحاجة إلى الرهان

فإنه أمر محقق ! » . وكانت قد شاهدت أنّا ماى وونغ تفعل هذا في رواية سينمائية فراق لها ، أجل راق لها ما فى ذلك من فتنة شرقية .

وراح چون دبوى تشانغ يرقبها فى جد واهتمام ، وكان ذلك بعد الغروب مباشرة ، وقد عاد من المدرسة الثانوية وكانت تلك السنة سنته الأخيرة فيها ، ثم يلتحق بالجامعة فى السنة التالية ويمضى بعد ذلك إلى وطنه . . وطنه ! لقد بدأت هذه الكلمة الآن تحمل فى طيّاتها شيئاً جميلا غامضاً ، وأخذ يرنو ببصره إلى الشارع من أقصاه إلى أقصاه مستغرق الفكر ، وقد شاع الضجيج فى كل مكان ، ضجيج السيارات والأطفال ، وانبعث « ترولّلى » يصخب فى الشارع المجاور وهو يلتف حول الناصية . وكان أخوه الأصغر يجد عند قدميه فى شد رباط حذائه ، ولم يكن أتم بعد الربيع الثانى من عمره ، وازدحمت الطبقة الصغيرة التى تعلو المحل بمقدمه حتى لم يعد فيها متسع ، إلا أنهم لم يفكروا فى أن يتخذوا مسكناً أكثر اتساعاً . ومضوا ينامون فى غرفة النوم فتزدحمان بهما أكثر مما كانتا تزدحمان ، مع الأخذ بأسباب الحشمة والوقار دائماً ، فقد كانت أخواته ينمن فى الغرفة الأخرى ، وينام والداه فى سرير أسدلت ستائره وفصل بحاجز من جدران خشبية . على أنه كان يسره أن يرحل ، وراح يفكر فى وطنه فى حنين وشوق ، وهو يحدق فى الشارع المزدحم الذى يسوده الاضطراب والضوضاء عادة

فى تلك الأمسيات من أواخر الربيع . لقد كان هناك فى وطنه شوارع هادئة ، وقرويون ينشدون الأناشيد ، وحقول جيدة الزرع ، وسلوك طيب حميد ، وسكون وثقة واطمئنان ، وهو خليق بأن يكون فيه ، بل بين قومه . وقد سمع أمه تروى هذه الروايات عن البلدة الريفية الصغيرة التى نشأت فيها . . بلدة تقع فى جنوبى بلاد الصين ينعم كل من فيها بالسعادة كما قالت له أمه ! أجل لقد كانت الفتيات كلهن جميلات طيبات ، يختلفن عن هاته الفتيات ذوات الشعر الأصفر والشفاه المطلية . ولسن بخاصة على شاكلة روث كين الحمقاء . وشعر فجأة بحنين شديد إلى تلك البلاد التى لم يقع عليها نظره قط .

وتشبث بخطته خلال السنوات الأربع التى قضاها فى جامعة الولاية تشبثاً لايحيد عنه بحال ، وأصبح شديد التعصب لصينيته ، وحمل أقرانه على الاعتقاد بأنه قادم من تلك البلاد الصغيرة الوقور الجميلة القائمة فى جنوبى الصين ، وليس من ذلك الشارع الصاخب المزدحم القائم فى نيويورك . وكانت الثوره قد شبت فى بلاده فى هذه السنوات فألف رابطة من مواطنيه الشبان الصينيين السبعة الذين فى الجامعة ، وكان يحرم نفسه كل يوم من الغذاء ليدخر المال ، ويهدد الأعضاء الآخرين المشتركين فى هذه الرابطة حتى يدفعوا أكثر مما يطيقون . وانقضت ثلاثة أشهر زاد فيها المبلغ المدخر

على تسعين دولاراً . فرحوا يتناقشون فى شدة وعنف فى الغرض الذى يجب أن يكرس له هذا المبلغ فى الصين ، ولاحظوا من دراسة الصحف والنشرات التى تصدر عن بلادهم أن ثمة وجوهاً كثيرة يمكن أن يخصص لها المبلغ ؛ فمن الممكن أن يعطى للجائعين ، ذلك أن القحط كان قد حل مرة أخرى ببلاده . ومن الممكن أن يخصص للطائرات التى كانت الحكومة الجديدة فى حاجة إليها ، ومن الممكن أيضاً أن ينفق فى شق الطرق . وانقضت أسابيع لم يقر لهم فيها قرار ، ثم اتفقوا آخر الأمر على أن يهبوه لشق الطرق الجديدة ، ومن ثم استبدلوا بالنقود حوالة أرسلت إلى الحكومة فى نانكنغ وأرفق بها خطاب مستفيض يفصح عن أمانى الواهبين ، وتلقوا بعد ستة أشهر أو نحوها خطاباً رقيقاً بصم بخاتم الجمهورية ، يقول إن النقود وصلت وستنفق دون شك فى شق الطرق ، واختتم الخطاب بعبارات من الثناء على هذه الوطنية ، ووقّعه السكرتير الثالث لرئيس الجمهورية .

وكان هذا أول اتصال له ببلاده . وشعر چون إذ أمسك بالخطاب بأن قلبه يفيض بالانفعال ، وتعذّر عليه أن يحبس دموعه وهو يتلوه على إخوانه بصوت مرتفع ، وقال له أرت لوك فى تهكم : « أجل ، إن هذه لشقشقة جميلة . . ويقول أبى إن هؤلاء القوم أنفسهم استخدموا النقود كلها التى أرسلوها إليهم فى العام

الماضى فى شراء طائرة ، إلا أنه لم تكن ثمة أية طائرة ! ».. فصاح به چون تشانغ غاضباً : « أتحقّر من شأن بلادك ؟ وهل تزعم أن سكرتير الرئيس كاذب ؟ »

ولوى آرت شفتيه الوسيمتين الرقيقتين ، ونظر إلى محدثه نظرة تنم عن احتقار ثم أخلد إلى الصمت ؛ فإن الأمر لم يكن يعنيه على كل حال . وراح يفكر فى موعد لم يكن بد من أن يفى به تلك الليلة فى مقهى صغير جداً مع فتاة شعرها أصفر شديد الصفرة ، وشرع يصفر فى صوت رقيق .

وهكذا كان الأمر ، فقد ظل چون تشانغ يعمل على تحقيق خططه لخير بلاده طوال مدة وجوده فى الجامعة ، على حين راح زملاؤه يلعبون كرة القدم أو يختلفون إلى السينما أو يواعدون الفتيات . وهنالك واجهت چون مسألة : ترى أيؤجل عودته فترة أخرى ليتلقى منهجا خاصاً فى علم من العلوم ، وليكن مثلا الطيران أو الهندسة أو الطب ، أم يذهب رأسا إلى وطنه بمجرد فراغه من دراسته الجامعية ؟ وأخذ يجادل نفسه يراوده الشوق إلى المضى إلى وطنه رأسا فلا ينتظر شيئا . ومع كل فقد كان للتعليم الجامعى قيمته ، ذلك أنه كان مستطيعا أن يجد بفضله وظيفة مدرس أو وظيفة فى الحكومة . فقد كانت الوظائف موفورة فى كل مكان

فى تلك الأيام ، أجل تلك الأيام الزاهرة المجيدة التى كانت تحياها بلاده ، ولم تكن الحال كما هى عليه هنا فى الولايات المتحدة ، حيث أخذ الناس يتدافعون ويتزاحمون بالمناكب فى سبيل العمل . لقد كانت الطرق هنالك فى ازدياد والطائرات تحلق فى الفضاء ، والمبانى الجديدة ترتفع والأعمال التجارية تتسع . كانت الأمة بأسرها فى حركة دائبة تسرع إلى الأمام ، وخير له أن يسهم فى تلك الحركة بشبابه الآن بلا تمهل ولا إبطاء ، ومهما يكن من شىء فإن من الخير له أن يذهب ويرى ما الذى يريدون ، على أن يعود إذا اقتضاه الأمر . بيد أنه كان يعلم أنه لن يعود . وتخرج فى الجامعة ثم أسرع عائدا إلى شارع موط ليودع والديه ويشترى تذكرة فى الدرجة الثالثة إلى الصين .

ولكن حدث ما عوقه ، وكان السبب فى ذلك تردده فى الرحيل تردداً يدعو إلى أشد العجب . ذلك أنه كان قد احتمل الضوضاء والحرارة فى الشقة التى يسكنونها أسبوعين ، واشترى التذكرة ، وتحدث مع والديه فى كل شىء ، وراحت أمه تقول له المرة بعد المرة : ألا فلتقل لحماتى الموقرة حين تراها إننى حزينة لأننى لست هناك لأقوم على خدمتها ، وحين ترى حماى المحترم وإخوتى وزوجاتهم . . . ! وتكلم أبوه بحماسة عن العصر الجديد فقال : « لم يكن الفتى فى صدر حياتى يستطيع شيئا إذا كان الابن الثامن فى

قطعة أرض صغيرة ، ولذلك لم أجد بدأ من انتهاز فرصة سفر ابن عم أبي الأكبر فصحبته إلى الخارج فى أثناء قيامه بأعماله التجارية ، وبقيت هنا وأرسلوا إلى أمك حيث ولدت أنت ، لأعيدك إلى وطنى والفخر يملأ جوانحى . . » . وما إن فرغوا من كل ما يقال ، وتم إعداد كل شيء ، حتى شعر چون تشانغ فجأة بأنه عازف عن الرحيل .

ولم يدرك أول الأمر علة تردده ، فلم تكن هذه المدينة الصاخبة بحال هى السبب فى بقائه . ووقف چون ينظر إلى حركة المرور ذات ليلة مكتئباً محزونا ، فقد كان لا يحب هذه الأضواء المندفعة تدنو منه وتسطع لحظة فى وجهه ثم تعود فتختفى ، ولم يأنس شيئا من الموسيقى فى ضجيج سيارات « التروللى » وصريرها يثير فى قلبه الحنين إلى هذه البلاد ، ولم تكن ثمة وجوه ، اللهم إلا وجوه أفراد أسرته ، يهمه أن يراها مرة أخرى أو لا يراها ، أجل لم تكن ثمة وجوه . . . ثم أدرك والغيظ يتملكه أنه كان يهمه وجه واحد ، وجه مرح صغير مستدير يتوجه شعر أسود مجعد ، لقد كان هذا الوجه هو الذى أثار هذا الاضطراب فى نفسه ، وجه يتوق إلى رؤيته مراراً وتكراراً ، وإن هذا الوجه لهو وجه روث كين !

وما إن أدرك هذا حتى أسرع فدخل المنزل واتجه إلى ركن معتم من أركان محل العاديات الصغير المظلم ، وجلس معتمداً رأسه بين

يديه ، محاطاً بتماثيل بوذا وجياد هان المصنوعة من الفخار ، وسترات حكام الصين المعلقة على الجدران.ولم يكن چون يريد قط أن يقع فى حب روث كين ، ولم يكن يود أن يتزوج ؛ فقد حدثته أمه عن النساء اللواتى يعشن فيما وراء البحار ، حدثته عن هدوئهن ورقتهن وعيونهن اللطيفة الحلوة ، وطاعتهن لأزواجهن . وقال يحدث نفسه إنه ربما استطاع يوماً أن يعيش مع امرأة جميلة مطيعة فى بيت صغير له فناء ودغل من الغاب وشجرة من أشجار الدفل ، ولكنه لن يعيش مع روث كين المبتذلة ، الكثيرة الحركة الصخّابة . ولكن هكذا قدّر له ، ولم يجد فى نفسه الرغبة فى ترك الفتاة .

لقد لقيها مرات كثيرة بطبيعة الحال ، وراح يسائل نفسه فى مرارة كيف يستطيع المرء أن يتحاشى لقاءها ؟ فقد كانت لا تزال تسكن فى المنزل الذى يجاور منزله ، تروح إلى المدرسة التجارية وتغدو منها عالية الصوت كثيرة المرح ، كانت تتعلم فيها الاختزال حتى تستطيع أن تساعد أباها . ذلك أن أباها كان تاجراً من تجار الشاى والزيت ، لم يتعلم قط التفصيلات المعقدة المتصلة بأعمال الجمارك والحسابات ، فصحّ عزم روث منذ زمن طويل على أن تتولى هذا العمل وقتما تستطيع ذلك . لقد كانت تتوق دائماً إلى أن تتولى الأمور بنفسها ، وأن تقوم على تدبيرها . وهكذا استطاعت على مر السنين أن تتولى من شئون أبيها المسالم البدين قدراً أخذ يزداد عاماً بعد عام ، إلى أن

جاء الأمريكيون من تجار القطاعى إلى محل بيع الشاى بالجملة ، فوجدوا شابةأمريكيةوسيمة ترحب بهم ، بل فتاة أمريكية لها شعر أسود فاحم يميل ميلا شديداً إلى الاستقامة بالرغم من العناية الشديدة التى بذلت لتجعيده ، وعينان سوداوان ثاقبتان ، وبشرة ناعمة متألقة فى لون الزيتون. إلا أن صوتها كان أمريكياً ، واضح النبرات فيه شىء من الخشونة ، وكانت اللغة التى تنطق بها هاتان الشفتان الحمراوان القانيتان هى لغة أهل نيويورك لا تشوبها شائبة. وكان الرجال ينظرون إليها ضاحكين ، بل مشوقين فى بعض الأحيان. أجل مشوقين إلى شىء من اللهو على الأقل ، إلا أنها لم تعدهم بشىء قط . . لم تعدهم بشىء محدد على الإطلاق ، وكان كل منهم يعلم أن روث كين قادرة على السهر على نفسها .

وكان الجميع يعتقدون بطبيعة الحال أنها ستتزوج چورچ ليو ، بل إن الأسرتين نفسيهما اعتقدتا ذلك . ثم حدث فجأة ، منذ ستة أشهر فحسب ، أن غيرت روث كين رأيها ، فقالت لأبيها فى ثبات وحزم : «كلا ، لا أريد أن أتزوج چورچ» . وعرف الجميع كيف ألقت بهذا القول ، ذلك أن أباها كان قد حدث بالأمر كل أصدقائه ثم نقل هؤلاء روايته إلى زوجاتهم ، وهكذا سمع چون تشانغ أمه وهى تقص القصة فى أثناء تناول الأسرة عشاءها .

قالت الأم فى حزن وأسى : « إن روث كين هذه كالأمريكيات ؛ فقد ظلت طوال هذه السنين فى حكم المخطوبة إلى ابن ليو ، وقد دبر الوالدان الأمر ، وهاهى ذى لا تريد أن تتزوجه » .

وقال الأب شارد الفكر : « ولم لا تريد الزواج به ؟ » ، ولم يكن يحفل بأمر روث كين أو بأمر چورج ليو ، إلا أن القصة أصبحت مثار القيل والقال فى شارع موط .

وأجابت الأم وهى تتنهد : « من يدرى ؟ إنها تقول إنه ليس على حظ من الفطنة كبير ، وإنها لن تتزوج إلا رجلا غاية فى الفطنة » .

وجلس چون تشانغ فى محل العاديات وحده يفكر فى هذا الأمر والحزن يعصر قلبه ، وراح يحدث نفسه قائلا : « لن تظنني فطناً ، لقد دأبت على السخرية بى لأنى أريد العودة إلى بلادى ، وقد سمعتها تقول مراراً إننى أبله ، وإنه لخليق بى أن أتولى عمل أبى » .

ثم تذكر عينى روث كين السوداوين المتألقتين ، وشفتيها الحمراوين الممتلئتين ، فأدرك أنه مغلوب على أمره . لقد كان يحبها حباً لا رجاء له فيه .

ولذلك أجّل سفره إلى حين ، ولم يرجئه كثيراً . وأباح لنفسه بضعة أيام أخرى أكثر مما تقتضيه الحال يرى فيها المشاهد التى على الساحل الغربى ، ولكن ما من مشاهد كان يستطيع أن يراها ،

وقال لوالديه فى اليوم التالى فى شىء من الاكتئاب : « إن صحتى ليست على ما يرام ، وسأبقى يوماً ».

وبقى يوما ، يفكر فى غيظ وحنق مبتعداً عن روث كين . وكان قد ألف مذ عاد أن يمضى على غير وعى منه ويقف بالباب ينتظر عودتها إلى منزلها ، ولكنه لن يذهب الآن .. أجل لن يذهب يوماً كاملا ، وكان اليوم التالى يوم أحد ، واضطر فجأة إلى الذهاب ليراها ؛ فقد شعر أنه إذا لم يرها مرة واحدة فقط فلن يستطيع الرحيل فى اليوم التالى ، وكان لا بد له من الرحيل وإلا فاتته السفينة التى ستقله . وتملكه الغضب من نفسه فاستلقى على الفراش وأخذ يتمتم ويتقلب ، ثم قفز بغتة وراح يهبط الدرج مسرعاً ودخل المحل المجاور لهم . لقد كان يعلم حق العلم أين يجد روث ، ذلك أن اليوم كان يوم سبت ، ولا شك أنه واجدها فى الغرفة الداخلية توازن حسابات أبيها الأسبوعية وقد انطبقت شفتاها الحمراوان بعض الانطباق وخدر القلم الرصاص يديها السمراوين الصغيرتين .

لقد كانت فى الموضع الذى حسبه تماماً ، فلم يضيع لحظة واحدة . وقف أمامها وشعره لا يزال مشعثاً ، وخلا قميصه من ربطة للعنق ، وانبعث يقول لها مخاصماً ، لأنها كانت السبب فى تعويقه عن تنفيذ خطته العزيزة على نفسه .

« أو تأتين معى إلى الصين أم لا تأتين ؟ »

و نظرت إليه فى عجب، وفتحت عينيها على وسعهما ، ذلك أنها لم تعمد قط إلى إغراء جون تشانغ أى إغراء ، أجل لم تغره قط ، بل لقد كانا يتشاجران معظم الأحيان ، وكانت تواقة إلى مصارحته بأمور كثيرة ، كثيرة جداً ، ودار خلافهما مثلا حول هذا الموضوع بالذات ، موضوع العودة إلى الصين ، ورشقت قلمها الرصاص فى شعرها الكث المجعد ، فوقف مستقيما كالريشة يتحداه.

وأجابته فى الحال : « و لمَ أذهب إلى الصين ؟ إننى لا أريد الذهاب إلى الصين ! إننى أمريكية . . فكل من يولد فى نيويورك يصبح أمريكياً »

فصاح بها : « لأن بلادك فى حاجة إليك ! » . كانت غاية فى الحسن حتى تملكه الغضب منها ! أكان ينبغى أن ترتدى فى هذا الصباح ثوباً من الكتان فى لون القرنفل ؟ وهل كان ثمة داع لأن تبدو بشرتها فى نعومة القشدة وفى لون الذهب ؟ « أتبقين هنا وبلادك فى حاجة إليك ؟ ! »

وأجابته فى برود : « شكراً لك ، سأفكر فى الأمر حين تتوفر بعض الأنوار الكهربائية وحوض للاستحمام فى مسقط رأسنا القديم »

فقال : « إنك لاتفكرين إلا فى أسباب النعيم » . لقد كان يريد أن يهزها هزاً ، ويصفعها ، ويقول لها إنها يجب أن تأتى لأن . . . لأن . . . وما لبث أن قال بصوت مرتفع « يجب أن تأتى ! »

وهنالك انتصبت واقفة ، ووضعت يديها الصغيرتين على حقويها الهضيمين ، وراحت تنظر إليه من قمة شعره الأسود الأشعث الغليظ إلى حذائه « الأوكسفورد » الذى تغلب عليه الصفرة الشديدة ، وسألته قائلة : « هلا سمحت فأنبأتنى من تكون فى نظر نفسك ياسيد چون ديوى تشانغ ؟ إنك لا تستطيع أن تتحدث إلى أمريكية بهذه اللهجة وتنجو بنفسك ! وكيف ينبغى لى أن أذهب إلى الصين ؟ »

فأجابها على غير انتظار : « لأن . . . لأنى أحبك » ولم يكن يعنى أن يقول هذا فعلا !

وراح كل منهما يطيل النظر فى صاحبه ، ثم جلست روث وأخرجت القلم الرصاص من شعرها وأخذت ترسم بعض الأشكال فى سرعة ، وقالت بلهجة تنم عن البرود : « اذهب ياچون ديوى تشانغ ولا تكن مضحكا »

فقال فى يأس وقنوط : « ليس فى الأمر ما يضحك »

فأجابته قائلة : « إنما هو فى عرفى أمر يبعث على الضحك ،

أنا أعود إلى الصين؟ ومعك ؟ إنها لنكتة » . وأطبقت شفتيها الحمراوين القانيتين فى مرح وسرور ، ثم أخذت تنظر إليه لحظة وكانت نظرتها فى هذه المرة من طرف عينها ، فلما هم بالدنو منها صاحت به : كلا . . إننى أعنى ما أقول ، فارحل ! »

فقال لها چون تشانغ فى صوت خفيف : « إلى الصين ؟ »

فأجابته روث كين فى حزم : « أجل ، إلى الصين » . وأطبقت فمها بقوة ، وقلبت صفحة ملأتها بالرسوم .

وأخذ يراقبها لحظة ، ولكن حالها لم تتغير ، ولم ترفع بصرها إليه ، فدار على عقبيه ، وقد حق عليه إذن أن يذهب ، إلا أنها نادته مرة أخرى وهو دون الباب تماماً فالتفت إليها . لقد كانت تنظر إليه وهى مستغرقة فى التفكير ، ثم قالت له فى صوت مختلف ، صوت خفيض فيه دلال ، قالت وهى تسبل رموشها قليلا ثم تنظر إليه : « هل .. إذا قلت لك إنى سأهتم بأمرك ... تبقى ؟ »

وحدق فيها النظر وقد امتقع لونه ، عجباً ! أبعد كل هذه السنين من الأحلام ينبذ بلاده ، بلاده الجميلة المحبوبة ؟

وصاح يقول : « كلا ! » وأبى أن يفسح لنفسه الوقت للتفكير .

وهزت روث كتفيها وضحكت ، ثم قالت فى مرح : « إذن ارحل . . ارحل إلى الصين بلادك ! »

وانصرف على عجل ليرحل ، وقبل أن يعمل الفكر كان قد استقل القطار ، وراح القطار ينهب به الأراضى الخضر والمدن الكبيرة التى يعلو فيها الضجيج ، ثم المدن الصغيرة والقفار المترامية الأطراف ، متجهاً إلى ساحل البحر ، وقبل أن يتاح له التوقف وإمعان الفكر كان قد استقل باخرة عظيمة ، وانحشر بين ركاب الدرجة الثالثة ، ولم يكن أمامه فى خارج السفينة إلا هدير البحر . أما فى داخلها بين هؤلاء الأغراب جميعاً فقد كان أمامه وقت لايحد يتيح له أن يفكر ، يفكر ويحلم .

على أن أحلامه أبت الآن أن تستقيم ، أجل أبت أن تتخذ صور الماضى ، صور قومه ، وعودته إلى بنى جلدته ، وحياته قائداً من قواد الثورة ، أو حاكما ، أو سياسياً ، أو رجلا عظيما فى ناحية من نواحى الحياة فى بلاده . كلا ، إن تلك الأحلام كانت تتسلل إلى مخيلته فى صورة وجه مستدير صغير عنيد ، وفى صورة عينين سوداوين ، عينين صينيتين يعلوهما شعر كث مجعد على الطريقة الأمريكية ، وفى صورة جسم صينى ، أصفر البشرة رشيق القد ، يرتدى ثوباً أمريكياً قرنفلياً . وكان يقفز من فراشه فى الباخرة المرة بعد المرة ويذرع بضع أقدام من سطح الباخرة ، ذلك أنه لم يكف عن حبها ، ولم يكف عن السخط عليها ، وكثيراً ما كان يقول بينه وبين نفسه إن أخطاءها كثيرة ، وإن صفاتها

جميعاً كانت على النقيض مما يجب أن تتحلى به الفتاة الصينية ؛ فقد كانت تتكلم فى حضرة الرجال ، وكانت تضحك بصوت مرتفع غاية الارتفاع ، وكانت تعصى أوامر والديها ، بل تسخر مما يشوب حديث أبيها من لثغة حين يحاول الكلام بالإنكليزية . صحيح إن أباها كان قد دللها وكان يضحك مما تقول ، ولكنها مع ذلك لم تكن تحترمه ، وكم من مرة سمع چون تشانغ أمه تقول إن روث جاءت إلى المنزل متأخرة ليلاً ، وكان يصحبها فى كل مرة رجل يختلف عمن سبقه ! لقد تغاضى عن أخطائها جميعاً وحاول الآن أن يدرك كيف يكون سعيداً لو بقى وحيداً ، ولكنه تأوه لأنه كان يحبها وتمنى أن يخرج من وحدته .

وبدأ يتطلع إلى بلاده فى شوق متجدد ، ذلك أن بلاده قد أصبحت الآن الشيء الوحيد الذى يحمله على نسيان روث ، وإنه لخليق أن ينساها فى غمرة تلك الحياة الجديدة .. حياة العمل والخدمة وإحراز النجاح . بل إنه لخليق بلا شك أن يجد المرأة التى كان يجد فى البحث عنها حقاً . وليست هى روث ولكنها امرأة أخرى ، ولسوف يعيش هنالك ويقيم له داراً ويرزق أطفالا ولن تكون أمهم هى روث ، بل امرأة هادئة مطيعة حالمة النظرات تأوى إلى داره . على أن الأمر يقتضيه أولا أن يعمل ، وأن يدرك النجاح ، ويجب عليه قبل هذا كله أن يجد وطنه .

ولكن أين وطنه ؟ لقد بدا له وهو فى البحر أنه قريب منه غاية القرب ، هنالك حيث ينتهى البحر ، أجل هنالك حيث يبدأ النهر كان هذا هو وطنه ، هذا الخط الأول من الخطوط البادية فى الأفق لقد اجتاز فى البحر الداخلى ، غير آبه ولا مكترث ، الجزائر الجميلة ، جزيرة إثر جزيرة ، ثم حدّق فى برود فى جبال اليابان الصخرية الرائعة المعالم، منتظراً هذه الحافة المظلمة الأولى ، بين البحر والسماء . ونهض مبكراً ليشهدها ، شهدها بعد أن بزغ الفجر مباشرة حين كان يحملق فى السماء الرمادية الكثيرة الضباب ، شهد ذلك الخط الساكن من الأرض المعتمة، وسرعان ما أحدق بالسفينة شىء كأنما امتدت إليها ذراعان من تلك الأرض فطوقتاها . ولم يكن ثمة تلال أو منازل أو أى شىء يستطيع أن يحادثه ، إلا هاتين الذراعين السوداوين اللتين امتدتا الى البحر لتحتضناه ، وتجذباه إلى أرض الوطن . وتدلى جون من سياج الباخرة مدققاً النظر وقلبه ينبض نبضاً شديداً حتى أحس كأن ضرباته تدوى فى حلقه .

ثم ظهرت على الأرض منازل منخفضة صغيرة ، منعزلة فى لون التربة ، ثم تبدّل لون التربة البنى إلى خضرة يانعة ، ولم تكن الشمس تشرق بل ساد السماء لون رمادى ، وبدت الخضرة زاهرة على أديم اللون الرمادى ، ولكن المنازل والحقول كانت صغيرة منفردة فى هذا البسيط المترامى الأطراف من ذراعى الأرض اللتين

كانتا تتسعان باستمرار ، وهنا . . . أجل هنا كان وطنه ، وقد هفا قلبه إليه ، وأخذ يحدق فيه ، وتاق إلى أن يقفز من فوق مياه النهر الصفراء ويشعر به تحت قدميه ، عريقاً راسخاً لم يتغير ، صامتاً يرحب به في سكون .

ثم فقد هذا كله فجأة ، فقد انطلقت السفينة على حين غرة بين عمائر شاهقة أناخت بكلكلها على حافة رصيف من أرصفة الميناء . وتلاشى السكون كله وولى الهدوء فلم يعد له أثر ، إذ قفز من فوق الأسوار حشد من رجال سمر قصار القامة يرتدون سترات زرقا ، وهم يثرثرون ويصيحون بلغة عز عليه أن يفهم منها شيئاً ، وحدثهم باللغة التي تعلمها من أمه ، ولكنهم راحوا يرمقونه بنظراتهم شزراً ، متفرسين ، وأشار إلى حقائبه القليلة التي كانت قد حزمت بعناية ودقة لتكون على أهبة النقل إلى الشاطىء ، إلا أنهم مروا به كأنما لم يفتح فمه بكلمة ، وأدرك بغتة أنهم لم يكونوا ينتظرونه ، فما كان يعنيهم أن يعود إلى وطنه آخر الأمر ، وإنما كانوا يبحثون عن قوم أرفع منه شأناً ، كانوا يبحثون عن السائحين ، عن البيض ، وكزّ على أسنانه لحظة ، وهو يشيّع بنظره أجسامهم المتزاحمة المتعثرة ، ثم تناول حقائبه ، حقيبة حقيبة ، وسار يترنّح مجتازاً سقالة الباخرة إلى الميناء .

وكانت تلك هي اللحظة التي فقد فيها وطنه تماماً ، ذلك أنه وهو

يقف فى زحمة الناس يتدفقون من الباخرة ويتدفقون من الطرقات ، خيّل إليه مرة أخرى أن هذا الوطن قد يكون أى وطن آخر ، بل لعله يكون قد عاد وارتد إلى نيويورك ، ذلك أنه لم يسمع أية لغة يفهمها اللّهم إلاّ الإنكليزية التى خلفها وراءه . وكانت المبانى الغربية الشاهقة تحيط به ، وطنين الحافلات (الأوتوبيسات) تطرق أذنيه . وانهمر المطر فجأة فى صوت كصوت الطبول يقرع سقف الميناء المصنوع من الصفيح ، واحتجزه المطر المتساقط تحت سقف الميناء ، ولم تعد له حيلة إلاّ الانتظار ، أجل احتجزه مع ذلك الحشد المختلط من الغرباء الذين لم يكن يعرف منهم أحداً ، والذين لم يقبل واحد منهم للترحيب بعودته إلى الوطن . وقف تعلو وجهه أمارات الكآبة والحزن ، يحدق فى المياه الصفراء من خلال المطر ، وكان ثمة سفينة صينية صغيرة تشق عباب النهر مجاهدة من خلال الضباب وقد أرخت أشرعتها ووقف ملاح يجذف بمجذافه وقد تجرد جسمه الأسمر من الملابس ، فيما عدا مئزرا التف حول حقويه . وقد حوّل چون تشانغ بصره من هذا المنظر الذى لم يألفه إلى الباخرة ، تلك الباخرة التى كان الشوق قد استبد به للهرب منها ، وها هى ذى الآن تبدو لناظريه بوجه من الوجوه كأنها وطنه ، وطن من طراز عرف مسالكه وطرائقه ، لقد كان فيها على الأقل سالماً آمناً .

ثم هز نفسه فجأة . إن هذا لا يجدى ، وحق عليه أن يكون قويا ، فلا سبيل إلى الارتداد الآن . لقد كان يحمل فى جيبه اسم فندق كبير أعطاه له أبوه واسم ابن العم الذى كان شريكه والذى كان عليه أن يلتجىء إليه طلبا للعون . لقد كان الأمر يقتضيه أن يكون شجاعا وأن يذكر أن وطنه فى مكان ما خلف هذا الميناء وهذه الحشود ، ووضع يده على كتف حمال كان يقف بالقرب منه ثم أشار إلى حقائبه وقال فى لهجة تنم عن السلطان : « ركشه ! ركشه ! » *

وتوقف الرجل ، وحملق فيه ، وبدأ عليه التردد ، ثم تناول الحقائب وهو يدمدم . وما انقضت لحظة حتى كان چون تشانغ يسير فى طريقه وقد ثبت أمامه ستار من المشمع ، ولم يكن يستطيع أن يرى شيئا إلا ساقى الحمال الذى يجر العربة ، وكانتا ساقين عاريتين سمراوين ينساب منهما المطر انسيابا . ومضى المطر يتساقط بانتظام على سطح العربة الرقيق من فوق رأسه .

أين ، أين وطنه ؟ لقد قضى ثلاثة أيام فى غرفة الخان الصغيرة الجرداء ، ثم جلس وراح يحملق عبر شارع ضيق فى منزل للسكنى ، ولولا أن الملابس التى كانت معلقة على أعمدة الغاب كانت تختلف

* الرِّكْشَه : عربة للركوب يجرها رجل .

فى الشكل عن ملابس الأمريكيين لبدا هذا المنزل كمنازل السكنى فى نيويورك . وكان الأطفال القذرون يهرعون إلى المنازل الحقيرة ويخرجون منها على عجل وهم عراة فى هذه الحرارة الخانقة التى يتسم بها الصيف فى إبّانه ، تشيّعهم صيحات النساء ، وكان الرجال الكسالى المترهلون والفتيات اللواتى يختلسن النظر يروحون ويجيئون . لقد رأى كل هؤلاء من قبل ولم يكونوا من بنى جلدته . أجل لم يكونوا من بنى جلدته ، ومع ذلك فقد كانت عيونهم سوداء منحرفة كعينيه ، وشعرهم أسود ، وبشرتهم صفراء كبشرته ، ولكنه لا يرضى أن يكون هؤلاء من بنى وطنه .

وكان قد سئم الخان وصحّ عزمه على الرحيل عنه ، فلما استطلع رأى ابن عمه فى ذلك هز الرجل كتفيه المكتنزتين وقال : « لا بأس بهذا الخان ، وإن رمت خانا أرقى منه فسوف يكلفك كثيرا » .

وقال چون تشانغ فى اقتضاب : « إنه لقذر » .

وأجاب ابن عمه : « كأنك رجل أجنبى ، ولكنك ستألف هذه الحال » .

وكان قد ذهب لزيارة ابن عمه مرتين ، وعاد غاضبا فى المرتين ...

واستبعد أن يكون هذا الرجل ابن عمه ، فقد كان يقيم فى ستة منازل يختلف بعضها عن بعض ، وأطفاله العديدون يضربون

هنا وهنالك دون أن يغتسلوا . وكان الضجيج المنبعث من شجار النساء يتعالى فى كل مكان ، ومع وجود هذا العدد كله من النساء والزوجات والخادمات لم يحفل أحد بطرد الذباب من فوق أقداح الشاى القائمة على المائدة ، وعندما دعا ابن العم چون تشانغ إلى مائدته فى منزله ، كان الذباب يحطّ على الطعام ، على الرغم من أن ابن عمه لم يكن رجلا فقيراً . لقد كان ثريا ، ذلك أنه كان شريكا فى تجارة العاديات ، وكان هو الذى يتولى شحن تماثيل بوذا وصناديق العاج الصغيرة والحلى الفضية والثياب المطرزة وعيدان البخور ، هى وجميع الأشياء التى عرفها چون تشانغ طول عمره فى ذلك المحل القائم فى شارع موط ، أجل جميع تلك الأشياء التى جعلته يحلم بوطنه . وهو إذ رأى يد ابن عمه البدينة السمراء والشحم يلطخ ثوبه الحريرى ولفائف الدهن مكتنزة حول رقبته ، ورآه ، حين اشتدت حرارة الجو ، يخلع ثوبه ويبقى بنصفه الأعلى عاريا ، أقول إنه إذ رأى ذلك كله عجب كيف راودته تلك الأحلام .

وكانت بنات ابن عمه أيضاً يجئن ويذهبن ، وكان ابن العم يفرقع بأصابعه منادياً إياهن إذا أراد شيئاً من الشاى أو أراد غليونه أو حذاءه القديم ليريح قدميه ، وكان الرجل يباهى بهاته الفتيات ، ويقول : « أما بناتى . . فقد أبقيتهن حيث يجب أن يبقين . . فى الدار ، لقد كن يتبرمن من حين إلى حين ويطلبن الذهاب إلى مدرسة

من المدارس ولكننى رأيت تلكم الفتيات المحدثات الجريئات فى الشوارع وتبينت أنه ليس من ورائهن إلا المتاعب بالرغم من كل ما أصبن من علم واتسمن به من جرأة . المتاعب لآبائهن الذين يجب عليهم أن يعولهن، والمتاعب للرجال الذين ينبغى لهن أن يتزوجن منهم . لقد بنيت بنساء جاهلات وكن نعم المعين » ونفخ فى غليونه وصاح بابنته التى كانت تقف أمامه لتتلقى منه أية أوامر قائلا : « اذهبى إلى أمك ولا تتلبثى لسماع ما يقوله الرجال » . وانصرفت الفتاة فقال مغتبطاً متلطفاً : « إنك لترى أية فتاة مطيعة هى ، ولتكونن مطيعة لزوجها يوماً على هذا النحو ، لقد وجهت همى إلى إعداد بناتى للزواج ، ذلك أنه ما من شىء آخر تستطيعه المرأة».

والحق أن چون تشانغ أخذ يرقب الفتاة فرآها تنصرف فى إذعان وامتثال ، أجل رآها تدلف فى حذائها الصغير المصنوع من الأطلس فى هدوء وسكون وكأنما لايسير على أديم الأرض أحد . لقد كان وجهها غاية فى الحسن ، وكانت مؤدبة فلم تنطق بكلمة واحدة . كانت من ذلك الطراز من الفتيات الذى طاف بحلمه مرة إلا أن قلبه لم يتحرك قط عندما نظر إليها . وقال يحدث نفسه : « إن السبب فى ذلك هو أنها ابنة ابن عم أبى » ، على أنه إذ عاد من الخان وجلس وحيداً تبين له ، والدهشة تتملكه ، أن السبب لم يكن لأنها ابنة ابن عمه ، وإنما السبب أنها تبدو لعينة غبية بلهاء ، ولم يكن

وجهها الصامت الجميل إلا وجه دمية ، ثم أمعن فى التفكير فشك أن يكون فى اتخاذه لهذه الدمية زوجة أية متعة ، فهى ترفع ذراعها إذا أمرت برفعه ، وتجىء إذا أمرت بالمجىء ، وتنصرف إذا أمرت بالانصراف . وطافت روث كين بمخيلته فجأة ، وتراءى له كيف أن أحداً لا يستطيع أن يرغمها على فعل ما لا تريد ، وها هى ذى تتمثل أمامه ضاحكة السن ، صلبة الرأى ، ماكرة ، وقد سره أنها ليست هنا .

وقضى برهة يفكر ويحملق من خلال المطر ثم استقر قراره على أن هذه المدينة ليست هى وطنه . أجل لم تكن شنغهاى ، هذه المدينة القــذرة ، وطنه ، بما يشيع فيها من ضجيج العربات ، وما تزدحم به من كل جنس من الناس . إن فى مكان ما وراء هذه الآفاق الواسعة أميالا وأميالا من وطنه المترامى الأطراف يتعين عليه بعد أن يكتشفها .

ومضى مرة أخرى إلى ابن عمه وقال له : « أريد أن أوغل حتى أبلغ صميم البلاد .. أريد أن أرى وأريد أن أكتشف » .

وهنالك أخذ ابن عمه يهوّى على نفسه بسرعة ثم قال : « أرجو ألاّ تكون من أولئك الشبان الثائرين الذين نكبت بهم أمتنا فى هذه السنوات الأخيرة ! فإن كنت منهم فلا تنبئنى بذلك ، فإنى

لا أريد أن أسمع شيئاً من هذا الأمر ، وإن كنت تريد أن توغل حتى تبلغ صميم البلاد فإن عندى مهمة خاصة بأبيك تستطيع أن تذهب لقضائها ، فلتمضين إلى المناطق القائمة عند نهاية النهر الكبير ، ولتدخلن فى إقليم سزتشوان ، فقد بلغنى أنه قد اكتشفت هناك قبور جديدة لبعض الأمراء الأقدمين، فإن صح هذا فإنك تستطيع أن تجد عاديات بثمن بخس ، فاشتر منها ما استطعت وعد بها ، ولكن إياك أن تشترى كيت وكيت . . . » وراح ابن عمه يعدد له ما ينبغى أن يحجم عن شرائه ، ويبين له الصحيح والزائف ، ذلك أن المرء يجد فى مثل هذه المناسبات كثيراً من العاديات الزائفة دسّت بين العاديات الصحيحة ، وقد صنعها قوم يظنون أنه من الممكن بيعها مختلطة بعضها ببعض .

وهكذا انطلق چون تشانغ يبحث عن وطنه ، متتبعاً مجرى النهر الكبير .

ومضى يبحث عن وطنه فى كل مكان ، ولم ير فى أى مكان إلاّ ماسبق أن رآه .. رأى مدناً مزدحمة يعلو فيها الضجيج ، قذرة تراكمت فيها القذارة طبقات فوق طبقات ، وانتابه الخوف من أن يشرب شيئاً اللهم إلا الشاى فى درجة الغليان ، بالرغم من أن الشمس كانت تحرق جلده ، واكتفى من الطعام بقليل من الأرز

والكرنب ، ذلك أن الثلج لم يكن له وجود ، وما من شيء كان يحول دون تعفن شرائح الخنازير المعلقة فى الشمس. وموت السمك فى أحواض الماء الآسن ، ويدفع عن سرطان البحر الذباب يغشاه بلا انقطاع ، وكان البعوض يتغذى بدمه ليلا ، فإذا نزل بخان سعت إليه جموع الحشرات . وعز عليه أن يرى جمال التلال البعيدة والضفاف الخضر الوافرة النماء ، الحافلة بالأرز ، والشباك العظيمة ألقيت لصيد السمك النهرى الكبير ، ذلك أنه كان يركب معه فى الباخرة النهرية الصغيرة مائتا حاج قاصدين معبداً قديماً على قمة جبل للتعبد فيه ، وألفى كهنة لم تقع العين على أجسام أقذر من أجسامهم ، وقد فاح منها كل ما فى أعطافهم من قذارة وقداسة . ومع ذلك فقد كان هؤلاء بنى وطنه ، أجل كانوا جميعاً بنى وطنه.. العميان الذين ألف أن يصادفهم فى الطرقات فى أية مدينة كانت الباخرة ترسو عليها ، والأطفال يركضون على هواهم وقد تجردوا من ملابسهم ، والنساء المشاغبات يغسلن حاجاتهن على حافة النهر ، وينفضن أسمالهن على الصخور ، ويتشاجرن وهن ماضيات فى عملهن ، وأصحاب الحوانيت الصغيرة ذوو المكر والدهاء ، والسائلون وهم يستجدون فى ذلة ومسكنة فى كل مكان وقد لج بهم الجذام ومدوا أطرافهم المشوهة . ووقف ذات يوم بينهم وهتف من أعماق نفسه وهو يحدجهم بنظراته : « أهذا هو الوطن الذى

حلمت به كل هذه السنين؟ وهل يستطيع المرء أن ينقذهم وإن وقف على ذلك عمره كله ؟»

وشعر لحظة بشوق يستبد بجوانحه ويدفعه إلى مكان آخر ، أو قل إنه أحس بحنين إلى الوطن ، ولكنه كان فى وطنه .وهنالك بدا له أنه يهون عليه أن يبذل عمره كله فى سبيل العودة إلى حانوت أبيه مرة أخرى .. أجل يعود إلى ذلك الحانوت الهادىء النظيف الصغير . فقد كان ذلك الشارع القائم فى نيويورك يلوح له أنظف شوارع العالم طراً ، بل أحسنها على الإطلاق ، وفكر كالملهوف فى ذلك « البانيو » الأبيض النظيف القائم فى الحمام الذى يعلو الحانوت ، ثم التفت وعاد مسرعاً إلى قمرته حيث جلس وكتب خطاباً ، ولم يكن الخطاب إلى أبيه أو أمه ، بل كان إلى روث كين ، وقد كتب إليها يقول : « لقد كنت على حق ، وما أنا إلا مغفل أبله ، ابقى فى وطنك هناك ، لقد كنت محقة كل الحق ».وظل يمضى مصعداً فى هذا النهر العظيم يوما بعد يوم ، وقد علا وجهه العبوس إلى أن التف النهر ثم ضاق وعمق مجتازاً حلوق الجبال ، وإذا به يبلغ آخر الأمر المكان الذى بعث به إليه ابن عمه .

وراح يكتب إلى روث كين من حين إلى حين ، ولم يدر السبب الذى كان يدفعه إلى ذلك مع علمه بأنها لم تكن تهتم بأمره ، وهنالك

خيل إليه أنه قد فقد وطنه إلى الأبد ؛ إذ لم يجد فى هذا الذى رآه ما راوده فى أحلامه . أما وقد رآه على هذه الحال فإنه لم يعد يساوى شيئاً ، وتعلم چون أن يناكف التجار الذين أرسله ابن عمه إليهم ، وأن يرتاب فى صحة كل قطعة من قطع الفخار أو البرونز يأتون بها إليه ، وأدرك أن الرجل المسكين الذى يزعم أنه من الزراع ويأتيه بقطعة من شىء أخرجها من باطن حقله قد يكون كذاباً ممعناً فى الكذب كغيره ، وتعلم أن يلوى لسانه ليتحدث بلغة القوم وأن يمسك عليه ماله ويساوم ويؤجل ويأتى جميع الفعال الحقيرة التى اقتضاه الأمر أن يأتيها ، وكان وهو يستلقى فى فراشه ليلا يسخر من نفسه على ما بلغت إليه حاله ، وهو الذى لم يرض أن يعمل فى خدمة أبيه . ولكن كان لابد له أن ينصاع لأحلامه وأن يقطع آلاف الأميال وتنتهى به الحال إلى ما انتهت إليه ، أجل تنتهى به إلى هذا البحث المؤسف تتخلله المنازعات والمشاجرات . وكتب بذلك إلى روث ، لا لأنه كان يسألها شيئا ، على حد قوله لها ، بل لأنه كان يجب عليه أن يكتب إلى جهة ما ؛ فقد كان لايستطيع أن يكتب إلى أبيه ، ولم يكن يحب أن يكتب إلى أصدقائه فيقفهم على ما هو فيه من خزى شديد .

كتب إلى روث كين يقول : « لم أر مثل هذه البلاد فى قذارتها وذبابها وما فيها من تسول ، أجل وإننى لأحسب أنها هى وطنى ،

ولا مناص لى وأنا هنا فى وطنى من أن أصطنع الحذر كل يوم وإلا امتدت إلى يد اللصوص ، وهنا فى وطنى يخطفون الرجال فلا يعلو صوت بقول ، و . . . »

وهكذا نفض چون كل ما فاصت به نفسه من خيبة مريرة وخزى وعار فهدأت نفسه قليلا ، بالرغم من أنه لم يكن يصيب وجبة من طعام إلا وأثار نزاعاً حول الغبار الذى يغشى المائدة أو الذباب الذى يحط على اللحم، حتى شاع أمره فى المدينة كلها ، وأصبح الخان يتوجس خيفة من قدومه ، ولقبوه بالشيطان الأجنبي ، لأنه درج على أن يثير نزاعاً كبيراً حول قليل من الغبار أو القذارة أو بسبب ذبابة أو اثنتين .

ثم جاءه خطاب يوماً ، كما تجىء الريح الباردة العاصفة مجتازة البحر ، خطاب أرسل إلى ابن عمه ثم بعث به ابن عمه إليه ، وكان الخطاب من روث كين . لقد عاد إلى الخان الذى نزل فيه ليلا بعد يوم شاق قضاه باحثا فى أطلال جرى فيها التنقيب حديثاً فوجد الخطاب على منضدته ، وفضه فوجد الظرف الداخلى وفتحه وقرأ الخطاب متخيلاً روث وكلماتها الصادقة الضاحكة المرة ، كتبت إليه تقول : « أيها الغر ! » ، ومع أنه كان يكره من قبل مثل هذا القول إلا أنه لم يسعه الآن إلا أن يضحك بصوت مرتفع ، فقد طاب له فيما تخيل أن تواجهه بكلمة كهذه فى قسوة وصراحة . آه ! لشد ما سئم

هذا التملق المؤدب الكاذب ، تملق التجار له !

« أيها الغر ، ماذا كنت تنتظر ؟ لقد كنت خليقة بأن آتى من غير مشقة ولا عناء ، لا لأتزوجك ، وأنت تعلم عنى ذلك ، ولكن لأرى فقط الحال على ما وصفت ، وإنى لأود أن أعمل على تحسين الأحوال ، إذا كانت قد بلغت من السوء الحد الذى وصفت » .

وأطل جون من النافذة على الشارع الضيق المزدحم فأدرك أنه يجب ألا تأتى روث كين ، وكان ذلك مساء يوم من أيام شهر أغسطس ، فى مغرب يوم من الأيام الحارة ، وراح الناس ينزعون إلى الشجار ، وارتفعت أصواتهم حادة غاضبة إلى نافذته ، فقد أخذت امرأتان تسب كل منهما الأخرى ، والتف حولهما الناس منصتين يسمعون ويلهون ، وأمسكت إحداهما فجأة بشعر الأخرى وراحتا تتقلّبان فى التراب وارتفع صوتاهما بالسباب ، ولم يكن فى ذلك شيء خارج على المألوف ، وتحرك القوم ثم تفرقوا وأخرجوا أسرتهم المصنوعة من الغاب ونشروا فراشهم ليقضوا عليه ليلتهم ، واستلقى الرجال والنساء والأطفال يتأهبون للنوم ، وقد خلع الرجال ملابسهم حتى أوشكوا أن يتجردوا منها ، وتعرّى الأطفال تماماً ، وارتدت النسوة غلالات من النسيج المصنوع من الألياف ، وارتفع

فوقهم طنين البعوض . ووقف چون يطل عليهم وسمع طفلاً ينوح فيشق أستار الغسق ، وسمع كاباً يعوى . إن هؤلاء ، أجل هؤلاء هم قومه ، وأبت نفسه أن تأتى روث كين .

وعاد إلى الغرفة وأشعل مصباح البترول الصغير وجلس ليرد على خطابها . وأخذت حشرات الليل تحوم حوله ، ونهض مرتين فوطئت قدمه جسم حشرة هي أم أربع وأربعين ، وشعر بهذا الجسم الصلب يطقطق تحت حذائه الجلدى الأمريكى ، وطفق يكتب ويكتب ، ثم توقف أخيراً ، وأضاف سطراً آخر قال فيه : « وحتى مصباح البترول أمريكى . ألا خير لك أن تظلى فى أمريكا » ، وأوى إلى فراشه منهوك القوى ، وقد صمّ أذنيه عن تلبية نداء قلبه ، وقال يحدث نفسه : أما وقد أخبرت روث كين بكل شيء فقد انتهى شأنها معى !

ولم يكن ثمة رجوع بطبيعة الحال فيما استقر عليه قراره ، فقد كان أعز نفساً من أن يرجع عما اعتزم . أجل لم يكن ثمة سبيل إلى الرجوع بعد كل هذه السنين . وبعد أن نظم النادى الوطنى لأبناء الصين فى مدرسته الثانوية ، وجمع المال فى الجامعة ليرسله إلى حكومة الثورة ، وبعد كل ما صوّرته له أحلامه ، فصح رأيه على أن يبقى فى وطنه لا يبغى عن ذلك حولا . وذهب ذات يوم إلى العاصمة

الجديدة وراح يتجول فى شوارعها صامتاً لا يعرفه أحد من أهلها، وأدرك أنه كان يتوقع أن يرى مدينة كنيويورك أو كواشنطون أو كالبطاقات التى رآها تحمل صورة باريس . ولكنه شاهد بدلا من ذلك بعض الشوارع العريضة شقت بغير عناية ، تحف بها حوانيت جديدة حقيرة ذات طبقة واحدة . وكان ثمة عمارتان كبيرتان أو ثلاث من المبانى الجديدة خلا نصفها من السكان ، فلما ارتقى الدرج منعه حارس من الولوج فى قسوة وصرامة فدار على عقبيه وانصرف . ولوكان من أصحاب السلطان فلربما استطاع الدخول ، بيد أنه كان مجرداً من كل سلطان ، وسار شوطاً طويلا خارج المدينة وبلغ قبر بطل الثورة ووقف يتفرس فيه ، وكان القبر ماثلا هناك ، هائلا مخيفاً جديداً ، كأنه ندبة فى جانب الجبل لا تظله شجرة واحدة وقد ثوى البطل فيه ، ثم مضى عنه مرة أخرى .

والتمس من ابن عمه يوماً أن يمنحه أجازة ، ويمم شطر الجنوب قاصداً القرية التى قضت فيها أمه أيام شبابها ، وركب لذلك متن البواخر الصغيرة تمرح فيها الجرذان ، ثم استعان آخر الأمر بعربة ذات عجلة واحدة عبر بها الحقول الخصيبة المنبسطة . وكان هذا آخر معقل من معاقل أحلامه ، ولكنه ما إن ترجل من العربة حتى هاجمه كلب فى وحشية وشراسة ، وضرب الكلب وأبعده عنه ، إلا أن الأمر اقتضاه أن يلزم الحذر . وهكذا بلغ القرية وهو يسير

متسللا فى حيطة وحرص ، ولكن هل تكون هذه القرية إلا قرية فقط ؟ لقد كانت لمة صغيرة من الدور بنيت بالآجر المأخوذ من ثرى الحقول ، لا يفترق أهلها عن جميع من رأى من سكان الريف . لقد كانوا مثلهم تماماً ، الرجال يرتابون فى أمره بحكم أنه أجنبى ، والنساء صامتات ينفرن منه . لقد تمثلت القرية فى شارع ضيق نتن ومشرب شاى قذر أو مشربين ، ورائحة تفوح من فضلات بشرية نثرت فى الحقول للتسميد ، وفتيات صامتات يحدجنه بنظراتهن . وأبى أن ينتظر ولو ليبحث عن أهله وعشيرته ، ولئن كان هؤلاء القوم هم قومه فليبق جاهلا بهم ، والتفت ثم صاح بالرجل الذى يدفع عربته : « هيا بنا نرحل ! إنى أريد أن أرحل فى الحال ! »

وقال يحدث نفسه والعربة تهزه مجتازة الطرق الريفية المرصوفة : إن من دواعى سروره العظيم أنه كتب بذلك إلى روث كين. لقد كان مغتبطاً أشد الاغتباط إذ أنبأها بأنها يجب أن تبقى حيث هى وأن تتزوج چورج ليو ، وتقيم فى شقة صغيرة نظيفة يتوفر لها فيها فرن كهربائى والثلج والنظافة . . أجل النظافة . . . النظافة فى كل مكان !

إذن فكيف أصبح متأهباً لخطاب روث كين فى شنغهاى؟ لقد جاء

هذا الخطاب بعد ثلاثة أشهر مجتازاً آلاف الأميال ، وشعر بخفته أوكاد من خلاف المظروف . وكان الورق خشناً بين أصابعه وهو الذى ألف الآن الورق الرقيق الناعم الذى صنعت منه دفاتر ابن عمه ، وقرقع الخطاب عندما فضه ، وقفزت الكلمات أمام عينيه ،كلمات حازمة حيّة لا يصدقها العقل ، لقدكان مستطيعاً أن يرى عينيها الشرستين ، ويسمع ضحكتها ، ويرى قوامها النحيل المشوق المتوثّب ، ويرى شعرها المتطاير ، وبدأت خطابها بلا مقدمات هائلة : « فلتعلم ياچون ديوى تشانغ أنى قادمة فقد غيرت رأيى ، وفزت أنت علىّ ، وإنى لأحسب أن مسقط رأسى القديم فى حاجة إلىّ ، وأنت أيضاً فى حاجة إلىّ . . »

وكان هذا هو خطابها . . بعض الأنباء وملحة أو ملحتين « لقد مضى چورج ليو وتزوج الفتاة التى تعمل فى محل المياه الغازية . لقدكنت أعلم دائماً أنه مجرد من الفطنة ! ومهما يكن من شىء فإن أهلى قدكفوا عن إزعاجى » ثم قالت فى ختام خطابها : « لقد حصلت على تذكرة السفر وسأصل بعد أسبوع من بلوغ خطابى هذا إليك . إن أبى قادم لقضاء عمل من أعماله ، ولأنت العمل الذى يشغلنى » . وقرأ بمشقة حاشية كتبت فى ذيل الخطاب بحروف صغيرة ضغطت ضغطاً : « تستطيع أن تعد الخاتم . . إن شئت »

وطوى الخطاب ورأسه يدور ، لقد كانت طوال هذه الأيام في طريقها إليه من غير أن يدرى ! أجل كانت قادمة ، على قدر ما تستطيع أن تأتى بها الريح والسفينة والنهار والليل ، وكان أول ما تبادر إلى ذهنه فى تلك اللحظة أنه لم يكن يدرى ماذا يفعل بها . لقد انتابه شعور جنونى بأنه يجب أن يسوى كل شيء قبل أن تأتى . وشعر بالخجل فجأة من كل شيء ، الخجل من القذارة والفقر والنساء الجاهلات الصامتات ، ومن ابن عمه البدين ، ومن الخان ، ومن هذه الغرفة . وهرع إلى المرآة ونظر فيها ، أجل ، لقد شعر بالخجل من نفسه أيضاً ، فقد ترك شعره يسترسل ، فى غير انتظام أو ترتيب ، وكان يرتدى قميصاً قذراً . لقد بدا فى مظهر لم يكن يدور بخلده أنه يستطيع أن يسمح لنفسه بأن يظهر به وهو فى نيويورك ، لم يكن الأمر جديراً بأن يحمله على أن يبدو فى مظهر مختلف . . حتى الآن ، ولكن الآن . . الآن . . ماذا يستطيع أن يفعل فى أسبوع ؟

ومع ذلك فقد فعل كل شيء فى أسبوع . . أعنى فعل كل شيء تقريباً ، فقد صح عزمه على أن تكون لروث كين وله ، فى وطنه هذا ، بقعة نظيفة . . بقعة واحدةصغيرة ، يتخذان منها داراً . وهرع إلى ابن عمه واقترض منه مبلغاً كبيراً من المال ، وسأله ابن عمه فى ريبة : « فتاة أمريكية ؟ » ، وهو يقاطع سيل الكلمات

التى انطلقت منسابة من شفتى چون ديوى تشانغ .

فأجاب چون تشانغ : « كلا ، طبعاً » ، ثم توقف فجأة وقال بينه وبين نفسه : « فتاة أمريكية أو تكاد » ، ولكنه لم يجهر بهذا ، لعرفانه بطباع ابن عمه ؛ فإنه ما كان ليقرضه النقود لينفقها على فتاة أمريكية ، ولذلك هز رأسه ، ومهما يكن من شيء فإن روث كين لم تكن أمريكية .

واستأجر بالنقود التى حصل عليها منزلاً صغيراً ، لا فى المدينة حيث كان الخان وحيث كان ابن عمه يقيم وحيث كان المحل ، وإنما كان هذا المنزل الصغير كوخاً صغيراً فى أطراف الحى الأجنبى حيث كان يقيم الأمريكيون ، فقد كان الأمر يقتضيه أن يجنب روث ما عاناه هو من تبدد أحلامه فجأة . وكان ثمة شجرة ورد صغيرة من أشجار البانكسيا تنمو على المدخل ، وقد أزهرت ، حتى فى هذا الخريف ، قليلاً من الزهور ، وهى خليقة أن تكون فى الربيع باقة من العطر الذكى ينعمان بأريجه ، بل كانت فى فناء الدار أيضاً شجرة من أشجار الدفل . لقد ظل المنزل الصغير خالياً فترة طويلة من الزمن ، واستأجر چون خادمة بدينة من ابن عمه لتأتى إليه وتكنس المنزل وتنظفه ، ثم راح يبحث فى المحلات الأجنبية عن بعض مايلزم روث : سجادة وكرسيين وفراشاً ومنضدة

وبعض الأطباق وستائر تعلق على النافذة وبعض الصور ، وقد تذكّر الصور فى آخر لحظة فهرع إلى محل فى شارع إدوارد السابع واشترى ثلاث صور لجبال وبحيرات زاهية اللون .

ولم يكن بد من أن يسرع لتوه ، فإن سفينة روث كان مقدراً لها أن تصل إلى الميناء بعد ساعة ، وكان چون يشعر بأن السفينة تتلبّث ، إذ من المستحيل أن تكون روث قادمة إلى هذا الميناء ، ذلك أنه لم يكن يستطيع أن يتصوّر قدومها . وعاوده إحساسه المرهف عند ما تلفت حوله ، كأنما كان مسئولاً عن الحمّالين فى أسمالهم البالية والبائعين خارج الأسوار يحملون سلالهم الصغيرة وفيها الحلوى القذرة ، وكان يقف هناك أيضاً بعض البيض المتأنقين ، وقد نفس عليهم نظافتهم وأناقتهم ، وشاهد والسرور يملأ جوانحه فتاتين صينيتين جميلتين صحبة أمهما وامرأة خادم ، ارتدت كل منهما ثوباً طويلاً من الأطلس ، وكان حسبه أن تكونا موجودتين ، ومن يدرى لعل كثيرين من أمثالها كانوا موجودين فى مكان ما تخفيهم الأسوار العالية ، وقد كان المرء يراهم أحيانا فى الطرقات . أما بين الجماهير الغفيرة من الشعب الجائع المضوضى فإن وجودهم يصبح كعدمه لأن عددهم كان قليلاً جداً ، ولكن المرء كان يستطيع اليوم على الأقل أن يرى هاتين الفتاتين وسوف تراهما روث ، وسوف تشعر أيضاً بأنها غريبة .. أجل غريبة

ولا شك ، ويجب عليه أن يدعها ترى هذا كله بالتدريج ، وأن يجنّبها الشعور بخيبة الأمل ، وكان چون مسروراً من توفر الكهرباء فى المنزل الصغير .

وقبل أن يدرى من الأمر شيئاً أو يكاد ارتطمت السفينة بالرصيف وأنزلت السقالة وظهرت روث ! وتقدم إليها راكضاً فأخذت يده وتشبثت بهـــا ، وراح يطل عليها محملقاً وهو لا يصدق عينيه !

ولفتت نظره وهى تضحك قائلة : « هاك أبى » ، فانحنى إلى الشيخ البدين الذى كان خلفها ، ثم قالت له : « معى خطابان لك من أمك وأبيك » ، ولكنه لم يكن يحفل بأمرهما ، وتناول الخطابين اللذين أخرجتهما من حقيبة يدها ومدت يدها بهما إليه . لقد كانت أجمل مما رآها فى أى وقت مضى ، ولكن لشد ما كانت تبدو غريبة عن الديار ! فقد كانت تبدو فى حلتهـا الزرقاء الأنيقة الصغيرة أمريكية بمعنى الكلمة حتى رفع عينيه إلى وجهها .

وراحت هى تدقق النظر فيما حولها ثم قالت : « واعجبا ! إن هذا لا يبدو غريباً علىّ ، أجل ليس فيه ما يبدو غريباً علىّ ، صحيح أنى لم أر فى حياتى شيئاً منه ، ولكننى أحس كأنما قد رأيته من قبل ! » .

ونادى سيارة من سيارات الأجرة كانت تقف فيما وراء مبانى الجمارك والميناء، ولكنها أسرعت فوضعت يدها على ذراعه، وصاحت تقول وهى تشير إلى عربة من عربات الرِّكشة : «هيا بنا نركب إحدى هذه العربات الصغيرة العجيبة ، فإن سيارات الأجرة شيء مألوف جداً ! »

ولم ينقض على ذلك لحظة حتى كانوا يسرعون فى الطريق المحاذى للميناء خلف حمالين راحوا يلهثون . والتفتت إليه تلوح بيدها وتبتسم فى سرور ، وصاحت تقول : « إن هذا لأمتع من أن يكون نزهة ! »

وهكذا كان شأنها ، وانقضى على چون أسبوع منذ استقر فى المنزل الصغير الذى تنمو على مدخله شجرة من ورد البانكسيا ، وإذا عجبه من أمرها يزداد عما كان فى أى وقت ، ذلك أن شيئاً من التغيير كان قد تسلل إليها بالفعل .. شيئاً لا يمكن وصفه لطَّف من حدة أخلاقها ، فقد كانت فى نيويورك كالمتشردة الصغيرة ، سليطة اللسان حادة الطبع ، ولكن الحدة كانت فى طريقها إلى الزوال فى هذا المنزل الصغير القائم على حافة المدينة الصينية . لقد أصبحت أكثر إخلاداً للصمت وأخذت اللغة الدارجة التى كانت تتباهى بها كثيراً بحكم كونها أمريكية ، تزداد فى حديثها ندرة يوماً

بعد يوم ، وتملكه الفزع ، وقال يحدث نفسه : « لقد بدأت تكره هذه الحال ، وأصبح شعورها كما كان عليه شعورى ، فقد خاب رجاؤها ، وبدت لها الأمور جميعاً أسوأ مما ظنت »

وسألته مرة : « أين كل تلك القذارة وأولئك الفقراء الذين ألفت أن تكتب لى عنهم ؟ »

وانتابه الخوف ، فقال لها وهو يروغ منها ويسرع فى طريقه : « أظن أننى كنت دقيقاً فى الوصف أكثر مما ينبغى .. إن شجرة الدفل آخذة فى الإزهار يا روث »

لقد قال لها مرة إنه قد اختار وطنه اختياراً لا رجوع فيه سواء أكانت هى معه أم لم تكن ، أما الآن إذ يعلم قيمة بقائها بجواره نهاراً ، فى الطرف المقابل من المائدة وهو يأكل ، ويعلم أنها فى بهيم الليل تستكين بين ذراعيه غامرة قلبه بالدفء ، فقد أدرك أنها لو لم تختر هذه البلاد وطناً فإنها لن تكون له وطناً . وما من بلاد تكون له وطناً إذا لم تكن هى فيها ، وهب أنها تريد أن تعود إلى نيويورك فى هذه اللحظة بالذات التى بدأ المنزل الصغير فيها يبدو لعينيه أنه وطنه ، أجل فى هذه اللحظة التى يستطيع أن يتلفت حوله فى الطرقات ولا يمتلىء قلبه بالحزن لأنه سيجد آخر اليوم هذه الدار !

فقد كان امتلاكه لهذا المركز ، بل هذا المكان الذى يستطيع أن يعود إليه عندما يفرغ من عمله ، وهذه البقعة النظيفة المشرقة ، قد غير تماماً من نظرته إلى وطنه ؛ فهو يستطيع أن يروح ويغدو فى الشوارع الضيقة التى تجرى القذارة فى قنواتها ، ويستطيع أن يحتمل المكفوفين والمشوهين من السائلين ، ويستطيع أن يحتمل الجهل والغش فى المساومة ، إذ يعلم أن له داراً . وهو يستطيع أن يعود إلى روث ليلاً وأن يقرأ ويتكلم وينصت إلى الحاكى وربما يذهب إلى دار للسيما ، وإن كان يفضل أن ينصت إليها وهى تتحدث وتضحك فقط .

ولكن ها هى ذى يقل مرحها يوما بعد يوم ، وراح يحدث نفسه ذات ليلة وقد تملكه اليأس « لابد لى من أن أنقلها إلى داخل الحى الأجنبي موغلا إلى أبعد من هذا ، فالمكان هناك أشبه بنيويورك» ثم قال بصوت مرتفع :« أتحبين أن نذهب إلى ملهى ليلى ياحبيبتى؟» وكانا لا يزالان يتحدثان بالإنكليزية ، ذلك أن معرفتها بالصينية كانت لا تزال قليلة .. لقد كانا يضحكان من لغتهما الصينية أول الأمر وهى تسأل ما عسي أن يكون هذا وما عسى أن يكون ذلك ، ولكنها أصبحت الآن تلتقط الكلمات من خادمتها ، ثم طلبت منه فى نهاية الأسبوع الثانى أن يشترى لها كتاباً أولياً ، وشرحت له

ما تعني بقولها : « ذلك النوع من الكتب التي يستعملها الأطفال في المدرسة » ، ثم طلبت مدرساً واقتضاه ذلك أن يستخدم أديباً عجوزاً يحضر إلى الدار ويعلمها كيف تمسك بالفرشاة لتكتب ، وهكذا ذهبا إلى الملهى ورقصا قليلا ، لا كثيراً . ومع ذلك فقد لاح له أنها لم تستمتع بالرقص خاصة ، بالرغم من أنه قد كلفه مبلغاً طائلا ، يقرب من الخمسة الدولارات ، على أنهما لم يكونا يختلفان إلى الملهى كثيراً .

ونظرت إليه بطرف عينها ذات صباح في نهاية الشهر الثاني وكانا يتناولان إفطارهما وسألته : « ما قولك إذا كففت عن ارتداء هذه الملابس المألوفة في نيويورك وارتديت ملابس مما تلبسه سائر النساء هنا ؟ » . وحملق فيها ، ذلك أنه لم يكن يستطيع أن يتخيلها مرتدية ثوباً ضيقاً يلتف على جسمها التفافاً ، فقد بدا له أن وجهها قد خلق لهذه الثياب الصغيرة المنقوشة التي جاءت بها معها ، وأنشأ يقول : « حسناً » وإذا بها تقاطعه قائلة : « صبراً . . ولا تقل شيئاً حتى تراني ! »

فلما عاد في تلك الليلة بالذات إلى المنزل وجدها ترتدي ثوبها الجديد . كانت قد خرجت واشترت ثوباً طويلاً أخضر من الحرير المحبوك النسيج مرتفع العنق ، وقد سوّت شعرها القصير

وبرز وجهها المستدير الصغير من فوق خطوط الثوب المستقيمة كأنه زهرة جميلة فيها رزانة وفيها وقار ، وامتازت حركاتها بالرشاقة والرصانة ، وحتى ابتسامتها تغيرت فلم تعد ابتسامة مثيرة مشاكسة ، ولم يستطع أن يتخيل هذه المخلوقة الرزينة قادرة على أن ترمق بدالا بعين الحب فى الطريق العام ، وراح يحدجها بنظراته مفتوناً ، فقالت له فى دعة ولطف : « أيعجبك ؟ »

فأجابها بأن نعم ولم يستطع أن يزيد ، ذلك أنه كان مشغولا بمراقبتها . وقد حدث بعد ، وقد فرغا من تناول عشائهما ، أن سألها فى مشقة وهو يتوجس خيفة من جوابها : « هل هذا . . . الثوب . . يبدو لك غريباً ؟ » ورفعت عينيها من قطعة من النسيج كانت تحيكها وأجابته : « كلا ، بل الغريب أنى أشعر كأنني لم أرتد ملابسى الخاصة إلاّ الآن »

ولكنه راح يحدث نفسه ، وهو رائح غاد إلى محل ابن عمه كل يوم ، قائلاً إن المنزل ما زال يحميها ، وإن حياتها سهلة ميسرة ، فلا حاجة بها إلى أن ترى الشوارع الأخرى ما دامت تقيم فى منزل صغير نظيف يطل على شارع رصف بالحصباء . كان يروح ويغدو كل يوم فى المدينة الوطنية ، ولكنها كانت مستطيعة أن تذهب من الناحية الأخرى إلى الحى الأجنبي وتشاهد المحـــلات العظيمة

والسيارات . وكان يتكلم قليلاً ، فى حرص وحذر ، عن المجاعات وعن قطاع الطرق والفتن القائمة داخل البلاد ، ولكنها لم تكن تحفل بهذه الأمور كثيراً ، فقد كان يلوح لها أن مثل هذه الأمور بعيدة عن هذا المكان بعدها عن شارع موط بنيويورك . ولم تكن تقرأ الجرائد الإنكليزية قط ، كما أنها لم تكن تستطيع أن تقرأ الصحف الصينية بعد . لقد كان المنزل الصغير هو حدود حياتها ، وتنفس جون الصعداء من هذا الخاطر الذى خطر له . لقد كان يوفر لها الأمن والسعادة ، والحصانة من معرفة المدينة الوطنية القائمة ، وقال يحدث نفسه إنها وأيم الحق تعيش كما لو كانت فى مدينة أمريكية بمنأى عن الحقيقة المحزنة . لقد كان يعود إليها ويستريح فى هذا الملجأ الأمين وقد أوصدت الأبواب دونهما ودون العالم الحقيقى ، وكانت إذا تكلمت أحياناً عن منظر شاهدته عرضاً — كالذى وقع لها ذات صباح حين رأت طفلة رضيعة ملقاة فى الشارع نفسه المرصوف بالحصباء — عمد إلى الملاطفة لتبديد ما علق بذهنها . وهكذا كان ينتهى بها الأمر إلى الشعور بالمرح فقط عندما يعود إلى المنزل . كانت مرحة فتّانة ، ولكن فى رصانة ووقار . وتراءى له ، كما تتراءى المعجزة أن روث كين كانت بوجه من الوجوه تشبه فى كثير من الأحيان تلك الفتاة التى كان قد رآها فى حلمه .. تلك المرأة الحلوة المطيعة التى تأوى إلى داره !

ثم حدث أن أدرك أن العلم بالأمور التى ود أن يجنبها إياها أخذ يغمر فؤادها . أجل يغمره فى الوقت نفسه الذى كان يود أن يحجبها عنها بقدر ما يستطيع ، ذلك أنها كانت حاملا ، وقد قالت فى وثوق إنها سترزق ولدا ذكراً . وتبين آنئذ السبب الذى دعاها لأن ترتدى ثوباً فضفاضاً ، بدلاً من تلك الملابس الأمريكية الصغيرة الضيقة ، وقالت : « ما إن عرفت بالأمر حتى فكرت فى ارتداء مثل هذه الثياب » . وأخذ جسمها يستدير استدارة جميلة تحت هذا الثوب الظريف الذى التصق بجسمها التصاقاً ، دون أن ينال من رشاقتها . وأدرك الآن أنه ينبغى له أن يكفل لها الأمن فى هذا العالم الذى صنعه لها ، هذا العالم الآمن النظيف الصغير الحديث الذى يقوم فى تلك الدولة الضخمة المظلمة القديمة ، دولة القرون الوسطى التى هى وطنه . وهرع إلى منزله تاركاً عمله ، يشق طريقه خلال الصناديق التى تعبأ والسلع التى تشحن إلى أبيه فى شارع موط . وكان الأمر يقتضيه أن يعمل الآن أكثر مما عمل من قبل ليحفظ تلك البقعة الصغيرة آمنة مصونة .

ثم حدث فى صبيحة يوم من أيام الربيع ، وقد بلغ الجنين فيما يعلمان الشهر السابع من عمره ، وراحا يدبران أمر مولده الذى كان قد اختار هو لوقوعه أحسن المستشفيات الأجنبية طراً فى الحى

الإنكليزى . . أن طرقت أذنيهما طلقة مدفع ، وانفجر الدوىّ العميق وتردد صداه ثم خمد ، ودوى الانفجار وتردد صداه ثم خمد وحملق فى روث وحملقت فيه دهشة متسائلة . وعرف فى الحال معنى هذا الدوى ، ذلك أنه لم يكن قد أباح لنفسه أخيراً فسحة من الوقت ليقرأ فيها الصحف ، على أن الجو كان ينذر بالعاصفة ، فقد كان اليابانيون على الساحل . وانطلق المدفع مرة أخرى فسمعا صوت انهيار جدار وقفزا من مقعديهما ، ولكنه لم يفكر إلاّ فى روث . روث وحدها . وصاح يقول : « لا عليك ! » وقد نسى أنه يتحدث بلغته . ولم يكن بعجيب أن يتحدث الآن بلغته : « لا تدعى للخوف سبيلا إلى نفسك ، ولأجدن طريقا للعناية بأمرك والسهر عليك » . آه ليته لم يأت بها إلى هنا ، آه .. ليتهما كانا الآن فى شارع موط حيث تجد روث الأمان ويولد ابنهما فى سلام !

ذلك أنه ما إن ينقضى وقت قصير ، ويمضى يوم أو يومان حتى تتكشف الأمور لروث جلية واضحة ، فقد امتلأت الشوارع بقوم تعساء تملكهم الرعب وراحوا يستجدون أى ملجأ يأوون إليه ، وكانت ألسنة النار تتوثب فى كل مكان إلى الغرب منهم ، واضطر هو إلى أن يقضى أيامه ولياليه ينقل المخزون من العاديات إلى البيوت التجارية الصديقة فى الأحياء الأجنبية . واضطر إلى العمل يوما وليلة لم يدر فيهما مصير روث ، إلاّ أنه كان يشعر أن المنزل المنخفض

الصغير لا يزال بعد أكثر أمناً من أية بقعة أخرى . وكان يرقب النيران فى غدوه ورواحه ولكن لا عليه منها فإنها كانت لا تزال أبعد من أن يتوقع منها الضرر ، وهرع إلى المنزل عند الفجر وهو يخشى أن يجد روث فزعة أو مريضة أو لعل المخاض قد جاءها قبل الأوان .

ولكنها لم تكن فى الدار عندما فتح الباب ، وخيل إليه أن جميع أهل المدينة الذين كان يكفيها شرهم قد استولوا على المنزل الصغير . واستوى على الطنافس التى اشتراها حشد كثيف من الرجال والنساء والأطفال وقد وضعوا صررهم النفيسة الصغيرة على ركبهم ، وشحبت وجوههم من الحيرة والخوف والإعياء ، وفاحت فى المنزل رائحة أجسامهم القذرة ، ورفعوا إليه أنظارهم فى صمت وخجل وسكون . وانطلق المدفع الذى فى الغرب يدوى دوياً متواصلا ، ولقد ظل الدوى ثلاثة أيام وثلاث ليال لا ينقطع هديره ، يميزه صوت انهيار المبانى فى سقوطها على بعد نصف ميل . بيد أن المنزل المنخفض الصغير كان لا يزال قائماً فى ثبات وجلد وقد امتلأ بهؤلاء القوم المشردين محتشدين فى كل ركن من أركانه متشبثين بمقتنياتهم التافهة التى استنقذوها . لقد امتلأت الغرفة بهم وهرع چون إلى المطبخ يبحث عن الخادم ليسألها أين روث .

ووجد روث تشرف على الموقد الكهربائى الصغير الذى كان

قد اشتراه والفخر يملأ جوانحه وقد وضعت القدور على كل مكان من سطحه . . كانت شديدة الإعياء على ما تبين له ، وأهملت شعرها فلم تمشطه ، إلا أن التعب لم يظهر على عينيها ؛ فقد بدا عليها الفرح والفخر ، وارتدت فوق ثوبها مئزراً أمريكياً كبيراً ، ووقفت هى والمرأة تحركان الطعام فى القدور .

وأنشأ يقول : « ماذا ... ؟ »

وأجابته : « إنهم جميعاً جائعون ، يكادون يموتون جوعاً . . لقد هرب المساكين لأن النيران أتت على منازلهم »

فأخذ يقول : « لا نستطيع إطعامهم جميعاً »

وراحت تحرك الطعام فى قوة وعنف وهى تقول : « بل نستطيع! فإن لدىّ هنا من الطعام ما يكفى الجميع »

ووقف لا يدرى ماذا يفعل ، ثم قال فجأة : « إن فى المنزل رائحة لا تطاق » . وكانت رائحة الحشد الذى لا يعرف الاغتسال تفوح فى المنزل حتى بلغت المطبخ وطغت على عبير الأرز . وبلغ من قبح هذه الرائحة أنه شعر بالخجل من القوم أمام روث ، ذلك أنه لم يقل لها من قبل قط إن رائحة جمهور العامة الذى يأكل الثوم تغثى لها نفسه ، ولا مَناص الآن من أن يحدثها بذلك أولا .

والتفتت إليه فى حنق وغيظ وصاحت به : « خليق بك أن

تشعر بالخجل من نفسك » ثم أردفت فى لهجة أهل نيويورك التى لا تشوبها شائبة : « أيها الأحمق المشمخر ، ماذا عليك من رائحتهم ماداموا أهلك وعشيرتك ؟» ورفعت قدراً فى عجلة وأخذت تملأ طاسات رصتها على المائدة . « آه لو كنت أعلم كل ما علمته مذ رحيلك . . . » وأخذت تصب الطعام فى مهارة وعناية وقد ذهب عنها كل ما كانت تتصف به من كسل وخمول ، كانت شديدة النشاط كأنما تعمل بالكهرباء ، على أنه لم ير إلا وجهها ، وكان بادى الإعياء ، إلا أنه كان يطفح بالبشر والسعادة .

وقال : « لم أكن أريد أن تعلمى بحالهم ، ولئن وقع منهم ما يصيبك بضر وأنت الآن وشيكة أن تضعى طفلك فلن أغفر لهم »

وتوقفت وهى تصب الطعام فى القدور لتحدجه بنظراتها وسألته : « أو تروم أن تنبئنى ياچون ديوى تشانغ بأنك كنت تخفى عنى حقيقة الأمور عمداً ؟ لقد كنت أتساءل عن السبب الذى يدعوك إلى السير بى دائماً إلى الحى الأجنبى كلما خرجنا إلى مكان ما .. وى ! لقد كاد السأم يقتلنى ! »

وعادت تصب الطعام فى الطاسات ، طاساً بعد طاس ، وتملؤها حتى حافتها ، ثم تهرع إلى الموقد وتأتى بقدر آخر .

وردّد قولها : « السأم ؟ » .

فأجابته قائلة : « أجل ، فإننى لم أكن أجد شيئاً أفعله ، وكان هؤلاء القوم جميعاً فى هذه الأثناء على قيد الوجود لا أعرف من أمرهم شيئاً »

وتمتم يقول : « ملايين منهم ، ملايين وملايين وملايين منهم؟ » ولم يستطع أن يدرك ما تعنى .

وقالت فى رضا وقناعة : « هذا يحسم الأمر »

وسألها فى غباء : « يحسم ماذا ؟ »

« يحسمه من حيث مقامى ، وهل يطيب لى المقـــام هنا أو فى نيويورك »

وحملق فيها بنظرات ظلت تحمل أمارات الغباء ، فضحكت منه ضحكتها العالية الصاخبة القديمة ، ولم يكن قد سمعها تضحك هذه الضحكة منذ ذلك الصباح الذى عكف فيه على العمل فى سجلات الحساب الخاصة بأبيها فى شارع موط ، وقالت وهى تأخذ فى صب الطعام من قدر مرة أخرى : « ما أبلهك ! ألا تدرك أننى أحب أن اضطلع بعمل ما ، والعمل هنا كثير »

وبدأ يفهم .. لذلك لم تكن تنكر هؤلاء القوم . أجل لم تكن تشعر بشىء من خيبة الرجاء فيهم ، وحسبهم أنهم كانوا قوما عضهم الجوع بنابه وهى تريد إطعامهم ، وإذا كانت قد علتهم القذارة ...

وكأنما كانت تقرأ أفكاره فأردفت تقول . « وسأبدأ بغسل

الأطفال حين أفرغ من إطعامهم جميعا ، وربما استطاع الكبار أن يستحموا على التعاقب . . . » والتفتت تسأله . « متى تنتهى هذه الحرب ؟ »

وى إنها لطفلة ! أجل فهى لا تعدو أن تكون طفلة ، تتحدث عن الحمامات ! لقد كان صوت المدفع يدوى دويا منتظما مخترقا أجواز المدينة ، وقد بلغه أن الحصون قد دكت فى هذا الصباح . فماذ تكون نهاية هذا كله ؟

وتأوه قائلا : « لست أدرى »

وراحت تدبر الأمر قائلة : « لو أن الحرب طالت مدة كافية لا ستطعنا أن نعمل على غسلهم جميعا »

ولكنه قاطعها قائلا : « أى روث ! يجب ... يجب أن ترحلى إكراما للطفل ... يجب أن تغادرى البلاد ... فلا يدرى أحد ما قد تنتهى إليه هذه الحرب ... »

بيد أنها ما إن سمعت هذا حتى التفتت إليه ووضعت يديها فى خاصرتها .

ثم قالت فى حزم : « طفلى ؟ سيولد طفلى فى وطنه فهو ينتسب إليه » ثم تغير صوتها مرة أخرى وقالت آمرة : « عليك الآن أن تحمل هذه الصينية إليهم واشرع فى إطعامهم مبتدئا بالأطفال » وأردفت تقول : « وعجّل ! فالعمل هنا كثير ! »

أم العصابات

كانت السيدة تشيين قد بلغت الخمسين من عمرها وامتلأ صدرها بالأسرار، إلا أنها لم تفتح فى حياتها مغاليق هذا الكنز الحافل لأحد. وكانت قد بدأت فى جمعه بمجرد أن أصبحت قادرة على التفكير، قبل غزو اليابان للصين بسنوات طويلة. ولعل السيدة تشيين كانت قد بدأت التفكير حين تبينت أنها فتاة، واكتشفت من ثم فرقاً بين الحب الذى يضفيه عليها والدها والحب الذى يضفيانه على أخيها. وكان هذا الفرق فرقاً فى النوع، فالحب الذى خص به أخوها كان، بالرغم من أنه يصغرها فى السن، مقروناً بالاحترام، أما الحب الذى اختصت به هى فكان حباً لطيفاً سمحاً ولكنه كان يقيد تصرفاتها بكثير من المطالب من غير مراعاة لرغباتها أو لحاجات عقلها. وظلت تفكر فى الأمر حتى وجدت نفسها مكرهة يوماً على أن توجه سؤالاً إلى أمها فى هذا الشأن، وخرجت من ذلك برد حاد جافٍ.

فقد قالت لها أمها: «خليق بك أن تعلمى فى يومك، قبل أن تعلمى فى غدك أنك امرأة. ولا تنتظرى وأنت امرأة أن تعاملى معاملة الرجل»

ولم تحر السيدة تشيين جواباً ، وكانت بعد فى التاسعة من عمرها إلا أنها أخذت منذ ذلك الحين فى جمع أسرارها خلف ذلك الجدار المنيع من جمالها الفاتن وسحرها الخلاب ، ولذلك وجدت أخاها يزود بكثير من العلم فى حين كانت هى تجلس فى الغرفة المجاورة تمضى فى التطريز إلى ما شاء الله ، ولكنها كانت قريبة كل القرب من الباب بحيث كانت تسمع كل ما يقال . وكانت تسرق كتبه بمهارة تجعله لا يفتقدها أو يظن أنها وضعت فى غير مكانها ، وقد تعلمت من هذه الكتب أن تقرأ لا الصينية فحسب بل قليلاً من الإنكليزية وبعض اليابانية أيضاً ، وكان هذا سراً من أسرارها ، فلم يكن أحد يدرى أنها تعرف لغة أجنبية ، ولم يكن أحد يدرى حقاً أنها تحسن قراءة لغتها أو أنها تجد متعة فى أن تردد بينها وبين نفسها صفحات من فلسفة الحكماء التى لم تكتب إلا ليستمتع بها الرجال . والحق أنها لو كانت تقدمت إلى الامتحان بدلاً من أخيها لنالت من الدرجات أكثر مما نال ، ولكنها تزوجت وهى فى السابعة عشرة من عمرها .

وحملت معها كل أسرارها إلى دار زوجها ، ومن بينها سرّ ، هو أنها كانت قد كفت عن الإيمان بالآلهة . وإن منزلاً تكون فيه النساء جاهلات ويعتقدن من ثم فى الخرافات ويحرصن على غشيان المعابد خاشعات ، لخليق بأهله جميعا أن يأخذهم العجب

بل الرعب إذا هم عرفوا أن هذه الفتاة الهادئة الجميلة التى تتكلم قليلاً وفى رقة ولطف دائماً ، طرحت فى سكون كل إيمان بالآلهة ، ذلك أنها كانت قد سمعت معلم أخيها يشرح من العلوم قدراً أكثر من أن يتيح لها العودة إلى الإيمان بهذه الآلهة ، إلا أنها كانت لا تزال تحنى رأسها الانحناء الواجب أمام آلهة البيت كما كانت تفعل فى منزل أبيها ، ولا تؤمن بها وإنما تؤمن بنفعها بوصفها معبودات لا غنى عنها لأولئك الذين يبلغ بهم الجهل ما يجعلهم فى حاجة إليها .

وكان من أسرارها أيضاً احتقارها للجهلاء والأغبياء احتقاراً شديداً وإن كان مشوباً بالعطف والرقة . وقد اكتشفت لتوها أن زوجها من هؤلاء ، لا لأنه فقير بل لأنه ثرى ثراء فاحشاً ، إذ كان أبوه وجده فى بسطة من العيش ، وكانت هذه صدمة عنيفة لها ، ذلك أنها كانت تصبو فى أحلامها إلى أن تشارك فى الحياة رجلا ذكيا ، ولكنها قبلت الأمر الواقع على علاته . وكانت فى حضرة زوجها دائماً رقيقة باسمة الثغر لا تستعمل عقلها إلا بقدر ما تقتضيه الحال من متابعة الحديث حسبما يهوى ، أما ما بقى من زاد عقلها فكانت تصرفه فى التأمل والتفكير الكثير فى الكتب العديدة التى كانت تواصل قراءتها فى الخفاء .

وانقضت السنون ، فزاد ذكاؤها وحكمتها أكثر وأكثر .

ولما ازدادت حكمتها وأصبحت أكثر نفعاً وفائدة اعتمد عليها زوجها فى كل شئونه ، بل عهد إليها إدارة أملاكه الواسعة الموروثة من الأراضى والمنازل المستأجرة ، ولا شك أن أبناءها الأربعة وبناتها الثلاث قد تعلموا منها كل ما يعرفون ، فقد بثّت فيهم حب المعرفة دون أن تفضى إليهم بشىء من أسرارها على حقيقتها ، حتى إنهم سعوا إلى مصادرها لينهلوا منها . ولم ينفذ أحدهم إلى ما وراء ذلك الجدار المنيع من فتنتها وسحرها ، الذى كانت تفيئه على كل منهم بصورة مختلفة عن الآخر ، وكانت تظهر فى نظر قرينها زوجة ومحبة بمعنى الكلمة ، وتبدى لكل طفل من أطفالها أنه صاحب الحظوة عندها . لقد كانت مغرمة بهم جميعاً ولكنها لم تكن تسمح لأحدهم بأن يخترق حجب هذا الجدار . وعلى هذا النحو عاشت مع أسرارها وكنوزها المتزايدة الحافلة بكل ضروب المعرفة ، ومع تأملاتها وأخيلتها وأحكامها فى الرجال والنساء والعالم بأسره .

وهكذا انقضت أعوام حياتها ، على أنه لم يتوفر لها من الهدوء الذى كانت تحن إليه فى حياتها إلاّ القليل . فقد كانت مشغولة دائماً بإدارة هذا البيت الكبير ، والبت فى الشكاوى وعلاج المتاعب التى كان يأتيها بها ، بل إن العهد الذى خرجت فيه إلى الحياة لم يكن يتسم بالسلام ؛ فقد عانت محنة الثورات وخبرت القتال ينشب

بين أرباب الحروب فى أوقات تغيّر الحكم ،وشهدت السلطان ينزع من عاهل واحد فى الإمبراطورية ويمنح لكثير من الناس فى الجمهورية التى قامت حديثاً ، ولكنها لم تر فى ذلك بريق أمل ، وقالت تحدث نفسها : « فكيف ننتظر أن يحكم كثير من الأغبياء حكما أفضل من حكم شخص واحد ؟ » . ومن ثم لم تبتئس عندما كثرت الضرائب وازدادت الشرور واستفحلت المنازعات ، فقد كانت متأهبة لذلك فى قرارة نفسها وأمدها زادها المصون بالقوة .

وجاء يوم سارت فيه الأمور من سيئ إلى أسوأ ، وتبين للقوم جميعاً أن العدو الأجنبى لم يهاجم البلاد فحسب بل كان أيضا يحرز نصراً فى أثر نصر . وكانت السيدة تشيين قد تتبعت تقدم اليابانيين من بدايته الأولى فى ولاية منشوريا الشمالية النائية حتى اقترب الآن من عقر دارها القائمة فى مدينة صغيرة قرب ساحل البحر الجنوبى ، وإذا هى تدرك أن واجبها نحو أولئك الباقين فى منزلها يقتضيها نقلهم إلى داخل البلاد بعيداً عن أيدى الغزاة . واستقر رأيها على ذلك ، ثم أخذت ، وهى الزوجة المطيعة التى تعرف واجبها ، تسأل زوجها عما يراه ، مفضية إليه فى براعة تحت ستار من أسئلتها خير ما تراه هى فى الموقف ، معربة له عن تقديرها لحكمته إذ قالت بعد بضع دقائق إن رغباته هى عين رغباتها .

وتبلور فى ذهنها أعظم سرّ من أسرارها حين كانت تتولى ذات يوم تدبير أسباب الهرب لأهل هذا البيت الكبير ؛ فقد راحت فى غمرة الفوضى والفزع والضوضاء، وفى سورة الجلبة التى كان يحدثها الحمالون والخدم بأصواتهم العالية ، تفكر فى مبلغ الهدوء الذى سوف يشمل البيت عندما يرحلون جميعاً وتخلو منهم الدار .

وقالت بينها وبين نفسها : « إننى لم أشعر بالهدوء قط ، ولم أنعم بالسكون مرة »

وكلما تخيلت هذا الهدوء وذلك السكون استبد بها الشوق إلى مكابدتهما ، وشعرت آخر الأمر أن ثمة دافعاً يدفعها إلى ذلك ، وأخذت تنقّب فى ذهنها عن الوسائل التى تحقّق بها غرضها . لقد أصبحت أسرتها الآن كبيرة ، فقد كان أبناؤها الأربعة قد تزوّجوا وأقاموا هم وزوجاتهم وأولادهم معها ، ومضت ابنتان من بناتها الثلاث إلى دارى زوجيهما ولكن ابنتها الصغرى كانت لا تزال تقيم معها . واستقر رأيها على أن هذه الابنة الصغرى دون سواها لا تزال هى مسئولة عنها حقاً ، ويزداد عبء هذه المسئولية بحكم أنها كانت أجمل بناتها . ومن أجل هذه الابنة استدعت السيدة تشيين ، بعد أن فكرت فى الأمر ملياً ، خادمتها العجوز المخلصة فى الليلة السابقة ليوم رحيلهم .

وقالت لها : « أريد أن أعهد إليك بمهمة خاصة يالى ما »

وأجابت السيدة العجوز القوية البنيان : « سمعا وطاعة ياسيدتى »

فقالت لها السيدة تشيين : « لا تتعدّى هذه المهمة أن تلزمى دائماً سيدتك الثالثة الصغيرة ، أصغر بناتى »

فأجابت لى ما : « لأفعلن هذا مهما تكن الحال ، فإنى ألازمك باستمرار ياسيدتى ، وستكون هى معك فى هذه الرحلة »

وابتسمت السيدة تشيين ، فقد تخلصت الآن من عبئيها الرئيسيين ، ذلك أن لى ما كانت خليقة بأن تصر على البقاء معها ، وهى لم تكن تريد أحداً .

وقالت : « طابت ليلتك أيتها الأمينة المخلصة »

وكان عليهم أن يشرعوا فى رحلتهم عند بزوغ الفجر ، وكان اليابانيون قد بلغوا الآن مكاناً لا يبعد عن دارهم بعداً كبيراً . ونامت السيدة تشيين ملء جفونها وهى سعيدة بأحدث ما طوت عليه صدرها من سر ، ولم تستيقظ إلا قبيل الفجر ، وكان الخدم قد انهمكوا فى أعمالهم ووقفت ثلاث سيارات تنتظر خارج سور الدار ، وأعدّت فى انتظارهم عند نهاية الطرق الممهدة جياد تحملهم مجتازة الجبال ، ومن هناك يقصدون إلى داخل الصين ، فيأمنون على حياتهم .

ونهضت السيدة تشيين ، وأقبلت لى ما تعينها على ارتداء ملابسها ، وتم إعداد كل شىء وخرج أفراد الأسرة من أفنية الدار يذرفون الدمع وهم مقبلون . وكان الأمل ضعيفاً فى أن يعود هذا البيت إلى ما كان عليه بعد تعاقب خمسة أجيال من آله ، وكان الجميع يعلمون أنه قد تقرر مصير هذا البيت على نحو ما ، وكانت السيدة تشيين آخر الركب ، وقالت للقوم مفسرة ذلك : « حتى أطمئن إلى أن كل شىء يسير على مايرام » . وكانت قد طلبت من زوجها أن يقود الركب ، فاستقل السيارة الأولى ومعه ابناه الكبيران وزوجتاهما وأولادهما ، وجاء فى أعقابهم مباشرة ابناهما الصغيران وزوجتاهما وأولادهما وبعض الخدم ، وبقيت السيارة الثالثة للسيدة تشيين وقد ركبتها بالفعل ابنتها الصغرى ولى ما وجميع الإماء الصغيرات . وتحركت السيارتان الأوليان ، وأدار سائق السيارة الثالثة محرك سيارته ، وكانت السيدة تشيين قد برزت إلى هذا السائق منذ ساعة وقالت له فى صوت خفيض ولم يكن بقربها أحد :

« إذا صحت بك (تأهب) وسمعت باب السيارة ينصفق فامضِ فى سبيلك بأسرع ما تستطيع ولا تلق بالاً لأى صراخ يصدر من ابنتى أو من النساء . . لا تقف لأى سبب من الأسباب حتى تجاوز باب المدينة »

وكان هذا خليقاً بأن يثير عجبه لولا أنها كانت من قبل قد بهرته بذلك القدر من الفضة الذى وضعته فى يده وهى تتحدث إليه، فلم يملك إلا أن يقول لاهثاً : « سمعاً وطاعة ياسيدتى »

وهكذا صدع بأمرها ، فقد سمعها تقول له فى صوت خفيض « تأهب » ، وسمع الباب ينصفق ، فأدار المحرك واندفعت السيارة فى طريقها ، وطرق أذنه فى غمرة الضجيج صياح النساء من خلفه ، ولكنه تذكر أن الأمر يقتضيه ألا يلقى باله إليهن ، فصم أذنيه عنهن ، وانطلقت السيارة تنهب الأرض نهبا إلى باب المدينة .

وشيعتها السيدة تشيين بنظرات تنم عن انتصار هادئ مطمئن ، وكانت أبواب المدينة قد أغلقت عدة أيام ، وتنفتح بضع لحظات فى الفجر لأولئك الذين يريدون أن يهربوا ، ثم تغلق فى الحال ولا تفتح لأحد ، وهكذا تخلفت عن الركب آمنة كما دبرت فى الخفاء .

. . . وكان السكون من حولها شديدا حتى خالت أن الدنيا قد كفت عن الحركة . وعادت إلى الدار وأغلقت الباب بالمزلاج لتخلو إلى نفسها خلواً تاما ، ولم يكن ثمة سبب آخر يدعوها إلى إغلاق الباب بالمزلاج إذ لم يبق فى الدار شيء له قيمة عند أحد إلا عندها ، ذلك أنها كانت قد وضعت الجواهر فى صندوق من جلد الخنزير عهدت به إلى لى ما ، وأرسلت إلى الريف نفائس الأسرة

وأروع قطع الأثاث المصنوعة من الخشب الأسود المحفور المرصع برخام يونات ، ورحلت الفتيات الحسان جميعا ، فلم تبق مسئولية تربطها بإنسان أو بشيء . لقد كان يوجد من قبل أولئك الذين من حقهم أن يتوجهوا إليها بطلباتهم يستنجزونها إياها ليل نهار ، وكانت هي تؤدي واجباتها بعد أن راضت نفسها على إظهار الطاعة ، أما الآن فقد خلا كاهلها من الواجبات ، إذ أصبحت وحيدة للمرة الأولى في حياتها على قدر ما تذكر ، ولم يكن أمامها ما تفعله . وافتر ثغرها عن ابتسامة واستوت جالسة على صخرة في ظل دغل من الغاب الهندي في الفناء الكبير .

وقالت بينها وبين نفسها : « لا حاجة بي إلى ترك هذه الصخرة، اللهم إلا إذا شئت ذلك »

وهكذا بقيت جالسة على الصخرة في هدوء تنعم بالسكون الذي تمنت يوماً أن تنعم به . كان الجو رطيباً حتى عندما راحت الشمس ترتفع في كبد السماء ، وكانت ظلال الغاب الهندي تنحسر ولكنها ظلت في رحابها . بل إنها لم تكلف نفسها عناء النهوض عندما سمعت ، بعد ساعة أو نحو ساعة ، صوت صفارة الإنذار يمزق السكون محذراً المدينة من اقتراب طائرات الأعداء مرة أخرى ، كدأبها في كل يوم أو تكاد يصحو فيه الجو وتصفو

السماء . وكان ثمة مخبأ يحتمون فيه من القنابل أقيم تحت الفناء الحافل بزهر « عود الريح » . إلا أنها كانت وحيدة فلم تجشم نفسها مشقة الانتقال إليه ، وقالت تحدث نفسها فى هدوء : « إن القنابل لن تتخير امرأة عجوزاً بمفردها » . لقد كانت متعطشة إلى مزيد من الوحدة ومزيد من السكون ، وقالت بينها وبين نفسها : « لعل الموت نفسه لايعدو أن يكون هذا السكون الخاوى ، ولكنه سكون يدوم إلى الأبد» . إنها لم تخش الموت قط ، بل خطر لها الآن أن الموت نفسه قديكون ممتعاً .

وحدث الانفجار فى تلك اللحظة وتطلعت إلى السماء فرأت طائرة وحيدة تلمع لمعان الفضة ، وسقط منها شىء كأنه زغب العوسج ، أو البيضة ، ثم ومض البرق فوقها فجأة ، ودوى صوت كالرعد .

وقالت بينها وبين نفسها : « إنه الموت » وأغمضت عينيها وكفت عن الحركة .

ولكنه لم يكن هو الموت تماماً فقد أصابت القنبلة الطريق خارج بابها المغلق ، وسمعت صوت قعقعة وارتطام الجدار المتهاوى . وهناك نهضت وبرزت إلى الطريق فوجدت السور أطلالا من التراب والآجر المتكسر ، وأخذت تنظر إليه ثم تنظر إلى الشارع

من أقصاه إلى أقصاه ، ولم يكن أحد يعبر الطريق فى تلك اللحظة على قدر ما كانت ترى . لقد كان شارعا هادئاً فى جميع الأوقات وبخاصة فى الأيام القليلة الماضية .

على أن الشارع لم يعد خاوياً وهى ترقبه ، فقد بدأت تشيع فيه الضوضاء ، ثم غشيه صوت أقدام كثيرة تعدو ، وما لبثت أن رأت على الناصية البعيدة حشداً من الرجال يضطربون متجمهرين ، وما انقضت لحظة حتى كان الشارع قد امتلأ بهؤلاء ، وكلهم يرتدى زى الجيش الصينى ، وراحوا يحتشدون حولها وفوق أطلال السور ، ومروا بها دون أن يروها فقد كان كل وجه يحملق فيما أمامه لا يلوى على شيء ، وكل ذهن قد انصرف إلى الهرب من خطر محيق .

ثم قالت تحدث نفسها : « إنهم يرتدون » وأدركت أن العدو بات على الأبواب .

وكانت السيدة تشيين قد انتظرت العدو أياماً طويلة ، وتزن الأمر قائلة إنهم إذا قدموا ، ولا شك أنهم قادمون إذ أن أسلحتهم أفضل من أسلحة الصينيين ، فإنها سوف تستطيع أن تعيش فى ظلهم على نحو ما ، وما دامت قادرة على أن تحتفظ بأسرارها فإنها تستطيع أن تعيش تحت أى حكم ، مهما كان أجنبياً ، زد على ذلك أن امرأة عجوزاً لم تكن بذات قيمة عند أحد . ثم راحت تتعجب من أن

الحياة ظلت فى نظرها بهذا الجمال . صحيح أن الزوج والأطفال والواجب لم تعد لها أى مغزى عندها ، إلا أنه قد بقى لهـا كل أسرارها التى لم ينفسح لها الوقت ولا الهدوء الكافيان من قبل لتتبعها .

وقد فقدت الآن هذا الهدوء ما بين طرفة عين وانتباهتها ، ففى طرفة عين كانت فى دارها وما انتبهت عينها حتى كانت قد دخلت فى خضم الهاربين كما يخطو المرء فى غمرة تيار عارم جارف ، وأطبق عليها التيار وجرفها معه ، لاتستطيع خلاصاً ولاتجد سبيلاً إلى العودة ، وشهقت مرة أو مرتين .

وقالت تحدث نفسها : فلأذكرن أنى لم أقصد الارتداد معهم » ، واستفاقت وهى تشعر بأنها تنجرف فى خضم هذا السيل ، ووضعت يدها على ذراع الرجل الذى كان بجوارها

وصاحت فى أذنه : « لمـاذا ترتدون؟ »

والتفت إليها بوجه يغشاه الذهول، ورأت أنه لايستطيع أن يعى شيئاً من فرط الذعر الذى كان متسلطاً عليه وعلى زملائه جميعاً .

وحدثت السيدة تشيين نفسها وهى تعدو قائلة : « يالهذا الغباء ! » وكانت أمها قد قيدت قدميها وهى بعد فتاة صغيرة . إلا أن السيدة تشيين كانت تطلق قدميها تدريجاً كلما تقدمت بها السن . وكانت أيضاً قد تغلبت منذ أمد طويل على الألم الناشىء من تقييد

قدميها وإطلاقهما ، فلم يكن قدماها إذن هما السبب فى أنها أخذت تتمهل فى خطاها شيئاً فشيئاً .

وصاحت بصوت عالٍ : « إنكم لأغبياء جميعا ! » . ووجدت متعة فى أن تجهر فى الرجال برأى كثيراً ماطوته بين جوانحها ، « إنكم لأغبياء إذ تهربون من هؤلاء الأقزام الصغار . . عار عليكم يا أبناء هان ! ياللعار ، ياللعار ، ياللعار ! »

وبينما كانت تعيّرهم على هذا النحو شدت قامتها ، وأصبح جسمها كالعود الصلب المتين فى غمار هذا الاندفاع الأحمق لرجال عصف الفزع بعقولهم .

وراحت تترنم مرددة : « يا للعار ، يا للعار ، يا للعار ! » وهى تشد قامتها وسط سيلهم الجارف .

وبدا أنهم لا يسمعونها ، وأنهم ينسلون من حولها ويجاوزونها ، مخلفينها وراءهم ، ثم دارت على عقبيها حتى تواجه أولئك الذين كانوا لا يزالون منطلقين فى سبيلهم ومضت تردد قولها مترنمة : « يا للعار » . وهى تولى المرتدين ظهرها .

وأخذوا ينصتون إليها بلا وعى ، أو لعلهم أحسوا بها فى وسطهم أكثر مما سمعوها . أجل أحسوا بها قوة من طراز خاص تستطيع أن تقف دون فرارهم ، وتوقف بعضهم آخر الأمر بلا شك ،

ثم توقف كثيرون ، وقفوا فى الشارع يتكأكأون حول السيدة تشيين ، وقد احمرت وجوههم ، وكانت نظراتهم لا تزال زائغة آبدة ، وراحوا يمسحون وجوههم بأكمام مغبرة مهلهلة . إلا أنها رأت فى وجوههم أمارات الخجل مما صاحت به فى وجوههم رامية إياهم بالخزى والعار . ورأت أيضاً أنهم فى ميعة الصبا وأن كل ما كان فى أيديهم من سلاح ليس إلا بنادق صغيرة خفيفة .

وسألتهم : « إلى أين ؟ »

ولم يجبها أحد ، ثم انبرى شاب يجيبها فى صوت خشن :

« إلى أى مكان ننجو فيه بأنفسنا ! لماذا نبقى حتى نقتل ونهلك؟ إن العدو مزوّد بمدافع أجنبية . ولم يزودنا ضباطنا إلا بهذه ! » . ورفع بندقيته الصغيرة لتشهدها فأخذتها منه وراحت تفحصها . وكانت هذه هى المرة الأولى التى تحمل فى يدها بندقية . إلاّ أنها كانت تتكتم من الأسرار سراً يتعلق بالأسلحة الحديثة ، فقد وجدت فى المكتبة القديمة التى كانت تختلف إليها ، كما كانت النساء الأخريات تختلف إلى المعابد ، كتاباً بالإنكليزية عنوانه « علوم الحرب الحديثة » يزخر بالصور ، فاشترته إذ رأت أن اليابانيين كانوا قد استولوا على منشوريا فى هذا الوقت أو كادوا .

وقالت : « ولكن لا بأس بهذه البندقية قط فإنها ليست من طراز قديم غاية القدم ، وإنك إذا اقتربت من مدفع اقترابا كافيا ، أجل اقتربت منه اقترابا يخرجك من أن تكون هدفا له ، استطعت أن تقتل الرجل الذى يقف خلفه » وأردفت تقول : « إن المدفع البعيد المرمى أخطر على البعد منه على القرب » .

وحدجها الرجال بنظراتهم وراح الشاب يضحك ، وسألها : « من أين للسيدة بهذا العلم ؟ » .

ونظرت إليه السيدة تشيين فى إباء وشمم وسألته : « أين العدو؟ » .

وأجاب الشاب : « إن العدو يتقدم هابطاً من الشمال ، وهو الآن على مسيرة أقل من ثلاثة أميال من المدينة »

وهتفت السيدة تشيين : « ولكن هذا معناه أن الأمر يقتضيه أن يعبر النهر »

وصاحت عشرة أصوات فى نفس واحد : « ولكنه يعبره فى هذه الساعة ، وقد وقعنا فى فخ نصبه لنا ! »

فقالت السيدة تشيين : « يالكم من أغبياء ! إنكم أنتم الذين أوقعتموه فى الشرك ، ألا يلتف النهر بالمدينة اللهم إلا فى الجنوب ، أولا تستطيعون أن تلتفوا حول النهر وتتركوا الجنوب مفتوحاً كأنه عنق الزجاجة ؟ »

وارتفع صوت يقول « ولكنهم إذا اجتازوا النهر فى طريقهم . . . » ، إلاّ أن السيدة تشيين قاطعته قائلة :

« لن يجتازوه إذا اعتقدوا أنهم قد استولوا على المدينة وجهلوا أنكم تكمنون لهم »

وحملقوا فيها ، ثم حملق كل منهم فى أخيه ، وكانت عيونهم تقول إن هذه إلا امرأة ، ولكنهم إذ فكروا فى الأمر ، أيقنوا أنها ليست امرأة كسائر النساء .

وتجرأ الشاب وسألها : « كيف عرفت هذه الأمور ؟ »

وأجابت السيدة تشيين بهدوئها المألوف : « إن لدىّ أسرارى » ، وكانت حرارة الشمس قد بدأت تشتد ، ثم قالت : « خير لنا أن نواصل السير كدأبنا حتى نبلغ النهر »

وهنالك استأنفوا سيرهم ، إلا أنه خلا عندئذ من الاضطراب الذى يلازم الارتداد . كانوا يسيرون بانتظام كما يسير جنود صدر إليهم أمر من الأوامر ، وصحبتهم السيدة تشيين . ولم يكن المسير يكلفها الكثير من المشقة ، ذلك أنها لم تكن قط بطيئة الحركة ، فقد كانت بطبعها تستحث الخطى حتى يتسنى لها أن تنجز واجباتها بسرعة ، وكانت ساقاها قويتين وظهرها الممشوق قوياً ، وانقضت ساعة قبل أن تحس بالحاجة إلى الراحة ، إلا أن الساعة كانت

طويلة بما فيه الكفاية ، فما انقضت حتى كانوا قد بلغوا النهر حيث التقوا بإخوانهم وكانوا لا يزالون يرتدون ، وراحوا يساومون لاستئجار بعض الزوارق يعبرون بها النهر .

ووجه الشاب الخطاب إليهم من كل جانب قائلاً : « قفوا ، فلدينا خطة أفضل » وخطا إلى الأمام ، وأعربت السيدة تشيين ، وإن ظلت لا تؤمن بآلهة الصين ، عن شكرها للسماء الصافية التى تعلوها على نعمة وجود هذا الشاب بقربها من دون هؤلاء الأغبياء جميعاً الذين يحيطون بها ، ذلك أنها لاحظت عندئذ أنه لم يكن غبياً .

وكان يقول : « فلنتظاهر بأننا نرتد ، ولنعبر النهر ثم نلتف بثنيته ، وليمض الربع منا إلى عنق الزجاجة فى الجنوب ويختبئوا هناك ، وعلى الآخرين أن يختبئوا حوالى النهر ، ولنطلقن النار على جنود العدو واحداً واحداً كلما استطعنا إذا اتفق أن اجتاز المدينة وحاول أن يتقدم »

واعترض رجل بقوله : « ولكن ماذا تكون الحال لو بقى العدو فى المدينة ؟ »

وتمتمت السيدة تشيين من خلف الشاب تقول : « إن هذا لخير لنا وأفضل ، فما أيسر أن تختلطوا بالزراع وهم ماضون إلى السوق وأن تندمجوا فى الجماهير فى مشارب الشاى تتسمعون وتقفون

على ما خفى عنكم ، وتدبرون أمر القتال »

وصاح الشاب بصوت مرتفع قائلاً : « إن هذا لخير لنا وأفضل ، وهنالك نستطيع الاختلاط بالناس حتى يتسنى لنا أن نسمع ونقف على ما نريد الوقوف عليه ونهاجم حين تواتينا الفرصة »

وراقبت السيدة تشيين الوجوه المنصتة فقررت فجأة أن هؤلاء ليسوا جميعاً من الأغبياء . لقد كانت الحيرة تتملكهم ، ولكنهم لم يكونوا يتسمون بالجبن.

وصاحت فجأة : « يالكم من شجعان ! »

وكانوا قد نسوها ، ولم يكن كثير منهم قد رأوها ، ولكنهم التفتوا إليها جميعاً الآن وضحكوا حين شاهدوا سيدة عجوزاً رقيقة تصيح بهذا الصوت المرتفع .

وهتفوا قائلين : « إنك لشجاعة ! » وتفلوا فى أيديهم وأقسموا بأمهاتهم ، وردد الواحد منهم بعد الآخر هاتفين بقول واحد : « لنموتن جميعا يوما لأى سبب من الأسباب ، فلم لا نموت على طريقتك ؟ »

وقالت السيدة تشيين بينها وبين نفسها وهى ترقبهم : « إذا تركتهم الآن فما عساهم يصنعون ؟ إنهم غرباء فى هذا المكان »

كانت قد اختارت البقاء فى المدينة واثقة من أن العدو مطوقها ،

ذلك أنها خليقة إبان الحصار أن تعيش وحيدة تنعم بالهدوء ، وها هى ذى الآن تبصر فجأة نهاية كل هدوء .

وراحت تفكر : « ومع ذلك فإن جدار دارى لا يزال متهدما قد هوى ترابا وأنقاضا ، ولئن عدت إليه الآن فمن ذا الذى يستطيع أن يقيمه فى غمرة هذه الفوضى كلها الناشبة فى المدينة ؟ »

ولم يستقر رأيها على شىء : أتبقى أم تعود ؛ فقد استرعى انتباهها جشع بحار من البحارة . صحيح أن بحارة الأنهار والبحيرات جميعا كانوا يتسمون بالجشع ولكن هذا الرجل كان فى مطالبه ممعنا فى الفظاظة والغلظة فاستثار غضب السيدة تشيين .

فقالت فى صوتها الواضح النبرات : « فى وقت كهذا يجب ألا يفكر المرء فى نفسه ، فلتأخذوا زورقه أيها الرجال ولتتولوا أمره بأنفسكم ، بل خذوا كل ما أنتم فى حاجة إليه من الزوارق ، ولكن احرصوا على أن تعيدوها إلى أصحابها ، فإنها وسيلتهم إلى كسب العيش ، وإن كان بعضهم لا يستحق أن يعيش »

فصاح الشاب قائلا : « استولوا على الزوارق ، فما يفكر فى مصلحته الخاصة الآن إلا الخائن »

وما انقضت لحظة حتى استولى الجنود على الزوارق ، وقد

كانوا من نسل رجال ونساء من العامة فأحسنوا التجديف وعبروا النهر ، وانتظر الشاب الزورق الأخير ثم التفت إلى السيدة تشين وقال ببساطة : « تعالى معنا أيتها الأم الرءوم »

وبمثل هذه البساطة نهضت من العشب الذى كانت مستوية عليه ووضعت يدها على الذراع التى مدها إليها وخطت إلى الزورق وهى تعلم أنها خلفت الهدوء وراءها .

وانقضت أيام طويلة دون أن يهاجموا ، ذلك أن السيدة تشين لم تسمح بالهجوم .

وقالت للشاب : « فلندع الزجاجة تمتلىء » وكانت قد علمت آنئذ أن اسمه تو نغ لى وقال لها : « نادينى بـ (ليه — تسى) فإن الجميع ينادوننى به » .

ولكن السيدة تشين وجدت أنها غير مستطيعة أن ترفع الكلفه بينها وبينه إلى هذا الحد ، فأخذت تناديه باسمه الكامل أو لا تناديه بأى اسم على الإطلاق .

وأردفت تقول : « حين تمتلىء الزجاجة نضع السدادة »

وكان أمام القوم عمل كثير يجب أن يقوموا به قبل ذلك . فقد كان الأمر يقتضى أن يتنكر الرجال حتى يستطيعوا أن يتجولوا

فى المدينة من غير حرج ويكتشفوا أين يعسكر العدو ويتبينوا عدد جنوده ويعرفوا عاداتهم . إن ساعة الهجوم تتوقف على هذه المعلومات ، وكانت السيدة تشيين تقيم الآن فى ركن من كوخ زارع ، يفصله عن أسرته الكثيرة العدد حصير من الغاب الهندى . وكان أثاث هذا الركن فراشاً من الغاب الهندى ومنضدة غير مطلية ومقعد خشن ، ولم تكن تستعمل الفراش إلا قليلا جداً . وكانت تجلس طويلا على المنضدة مع تونغ لى تدبر كل حركة من حركات الجند كل يوم ، وتستخرج من الكنوز التى وعتها فى صدرها سراً فى أثر سر ، وقالت من ثم :

« قرأت كتاباً أجنبياً ذات يوم ، وإن كان قد ترجم إلى لغتنا، يتناول الحرب والسلام ، وقد اشتمل على وصف معركة من المعارك وهكذا كان سيرها »

وراحت ترسم بظفر إصبعها الطويل على غبار المنضدة حركات الحملة التى شنها نابليون ذات يوم على روسيا ، ثم قالت : « ولكن يجب علينا أولا أن نوفد جاسوساً إلى المدينة يستطيع التسلل إلى مقر قيادة العدو نفسه حتى ينصت إلى خططه وهى توضع »

فقال تونغ لى : « وآسفاه ، إننا لا نفهم كلمة من لغتهم »

وفكرت السيدة تشيين فى الأمر برهة

وقالت : « آه إذن يجب أن أكون أنا الجاسوس »

وسألها تونغ لى : « أو تستطيعين ذلك ؟ » . وكان الفزع قد أدركه الآن منها أو كاد . فقد راح يتساءل فى جد واهتمام من تكون هذه المرأة التى لا يزال وجهها بهذا الحسن اللطيف وملابسها بهذه الأناقة وإن كان التراب قدلوثها ، وكان هذا الشاب ابن الفلاحة يؤمن بالآلهة والآلهات والجنيات والنساء اللواتى على هيئة الثعالب ، وقد أيقن الآن أشداليقين بأن السيدة تشيين خرجت من زمرة هؤلاء ، وأرسلتها السماء لتعين الناس فى حاجتهم .

وقالت السيدة تشيين على استحياء : « إننى أفهم قليلا من اليابانية ولو أن هذا الفهم كان يبدو لى حتى الآن لا ينفع ولا يشفع »

وكاد الفزع يتسلط عليها هى نفسها ، ترى أكانت تُعَدّ طوال هذه السنين لمصير بات اليوم وشيكاً .

وهكذا أصبحت جاسوسة ، فاقترضت ملابس خشنة من زوجة الزارع ودلكت جلدها بتراب أسمر اللون أخذته من الجرن ، وأخذت سلة ملأتها بكعك مصنوع من شحم الخنزير كانت زوجة الزارع تعده أحياناً للبيع ، وعلقت السلة على ذراعها كما يفعل الباعة

وراحت زوجة الزارع تتفحصها لتطمئن إلى أن مظهرها جميعا قد أصبح كما ينبغى أن يكون . وكانت السيدة تشيين من قبل ممثلة ، فقد ظلت سنين عدة تقوم بدور امرأة ودود دائما ولكنها لا تبلغ من البراعة أبداً المبلغ الذى يرضى الرجال ، وكانت حين تشعث شعرها وتسود أسنانها ثم تكسو وجهها بمسحة من الغباوة تبرع فى ذلك براعة تخدع كل من يراها ، ولو أن أولادها أنفسهم رأوها لمروا بها دون أن يعرفوها .

وصاحت زوجة الزارع : « لشد ما يبدو منظرك رائعا ! » وأردفت : « إنك لتبدين كواحدة منا تماما » ، ثم رأت الكعك مكشوفا فهتفت : « إن الكعك سوف يغشاه التراب ! » ، واختطفت منشفة الأسرة من مشجب فى جدار الكوخ المبنى بالطين .

وما إن رأت السيدة تشيين هذه المنشفة حتى غص حلقها ، وإن كانت تعلم أن ذلك لا مبرر له ، فأى حرج فى أن يغشى الكعك ما يغشى مادام سيباع للعدو ؟ ومع ذلك فقد ثارت غرائزها ثورة لم تستطع أن تقتلها ، فقد كانت المنشفة سوداء قذرة ، وقد رأتها من قبل تستخدم فى مسح المناضد والطاسات ووجوه الأطفال وعرق الزراع ، بل رأتها تستخدم فى كل ضرورة المعيشة فى حياة الأسرة .

فقالت فى رقة ولطف . « لسوف تحتاجين إلى منشفتك الوحيدة ومن اليسير على أن أشترى منشفة أخرى عند باب المدينة » .

وكانت تلك القطعة النظيفة الجديدة من القماش التى اشترتها بعد ذلك بقليل من السوق تحت حنية باب المدينة السبب فى أن مثلت السيده تشيين فى الحال أمام قائد الأعداء . وهكذا تدبر السموات الأمر لمن تحبهم ، وذلك أن اليابانيين كانوا يكرهون القذارة أشد الكره حتى إنهم كانوا يعافون ، بالرغم من جوعهم ، أكل الكعك المغطى بمناشف البائعين القذرة المليئة بالعرق . ولم تكن السيدة تشيين نفسها تعرف من أمر طباعهم هذه شيئاً ، فلما دخلت مشرب الشاى ورأوا سلتها مغطاة بقطعة من القماش بيضاء ناصعة تهافتوا على كعكها ، فلم تجد بداً من رفع أسعاره حتى لا ينفد قبل أن تريد له النفاد ، ومع ذلك فقد كان كعكها خليقا أن ينفد لولا أن جنديا شابا جذبها من كمها وأشار إليها أن تتبعه .

وأمر رفاقه قائلا : « لاتشتروا من الكعك فإن القائد سيحتاج إلى ما بقى منه »

وما إن سمعت هذا حتى انتابها الفزع مرة أخرى من مصيرها الذى لاح لعينيها . على أنها لم تتردد ، وتبعته وهو يجتاز طريقا مألوفا حتى جاء بها أمام سور متهدم ، فأدركت ما حدث . لقد كان

بيتها أحسن بيوت المدينة الصغيرة ولذلك خص القائد نفسه به . وتبعت الجندى وهو يجتاز عتبة البيت إلى الفناء حيث جلست قبل ذلك ببضعة أيام تستريح وتحلم بالهدوء . لقد تبعت هذا الغريب إلى منزلها هى ، وشاهدت القائد يجلس فى القاعة الكبرى على كرسى زوجها الطويل فى راحة واسترخاء ، ومن حوله ضباطه الذين يقلون عنه رتبة .

ورفع الشاب الذى كانت تتبعه يده بالتحية .

وسأله القائد : « ما وراءك ؟ »

فأجاب الجندى : « وجدت عجوزاً تبيع كعكا نظيفاً ياسيدى »

ورد القائد بقوله : « أهذا ممكن ؟ » وهز رأسه وضحك ، ثم أومأ إلى السيدة تشيين أن تدنو منه ، ورفع قطعة القماش البيضاء واستولى على كل ما بقى من الكعك وراح يلتهمه بنهم شديد ، ثم قال ممتلئ الفم : « لو كنت أصغر مما أنت ببضع سنوات أيتها العجوز لكانت حاجتى إليك أكثر من حاجتى إلى كعكك » . وأدرك رجاله أنه يتندر فضحكوا ، وسر هو من نفسه ، ثم قال للسيدة تشيين بصوت مرتفع : « عودى غداً » ولكنها احتفظت بمخايل الغباوة البادية فى نظرتها ، وراح هو يشير إليها ببعض الإشارات حتى بدا أنها أدركت مايعنى فأومأت برأسها وانصرفت .

وهكذا كانت تعود إلى منزلها يوماً بعد يوم ، وأصبحت شيئاً فشيئاً خادماً فى بيت كانت دائما هى ربته . لقد كان من اليسير عليها أن تبدأ بصب الشاى فى الطاسات التى تفرغ حين يأتى القوم على كعكها ، ثم تشعل لهم السجائر ، ثم تأتى بالطعام ، ثم ترتب الغرف وتنظف الأثاث ، ووجدت ثلاث شابات يابانيات يشغلن غرفتها ، وأصبحت تقوم على خدمتهن شيئا فشيئا ، ولم تند عنها فى أى وقت بادرة تدل على أنها تفهم كلمة من حديث كل من كانت تسمعهم . مع أنها كانت تفهم هذه الأحاديث ، وقد حرصت على ألا تبدى فهما لأى أمر يصاح به فى وجهها ، بل ظلت تواصل أداء خدماتها فى هدوء كلما رأت داعياً إلى ذلك كأنها لا تدرك أيضا أنها المقصود بأوامرهم ، وانتهى الأمر بأن نسوها وأخذوا يتحدثون كأنما لم يكن لها بينهم وجود .

ثم عرفت كل شيء عنهم : أين يعسكر جنودهم ، وعدتهم وكيف كانت ترسل الحملات إلى الشمال ، وعدد الجنود الذين يقضى الأمر إيفادهم للمعاونة فى تلك الحملة ، ومقدار الذخيرة التى حملت إلى هذه المدينة لتخزينها ومكان ذلك .

وكانت تحمل كل ماتعلمه ، فى أوبتها ليلا ، إلى تونغ لى الذى كان ينتظرها فى كوخ الزارع ، ونصحته إذ رأت تحرقه للهجوم

قائلة : « دعهم يأكلوا ويشربوا بضعة أيام أخرى حتى يزدادوا رخاوة وضعفا ، فإن نصف الجنود سيرسلون إلى الشمال بعد بضعة أيام ، وعندما يحين هذا اليوم لن يبقى فى المدينة إلا حامية ، ولكنهم سيخلفون كثيراً من الذخيرة التى عينت لك مخازنها ، وعندئذ يسهل علينا الهجوم ، ونستطيع بفضل تلك الذخيرة والمدافع والبنادق المخزونه أن تتعقب أولئك الذين يسيرون صوب الشمال ، فاعمل على شد عزيمة رجالك تأهباً لذلك اليوم »

وهكذا انصاع تونغ لى لنصحها ، كما كان يفعل إذ ذاك فى كل شىء ، وجعل من رجاله عصبة قوية وأطلقوا على أنفسهم اسم « عصابات النهر الأسود » وجاء بعضهم إلى السيدة تشيين ذات ليلة بطلب نابوا فيه عن إخوانهم جميعا .

وقالوا : « نريد أن ندعوك أمنا ، فقد جلبت لنا حسن الحظ »

لقد أصبحوا جميعا الآن يؤمنون بعبقريتها فى قرارة نفوسهم ، وإن كانت هى لا تعلم ذلك ؛ فقد كانت شيمتها دائما التواضع ، إلا أنها كانت قد مست شغاف قلوبهم الشبيهة بقلوب الأطفال .

فأجابت : « إنى لفخور إذ أناديكم ياأبنائى »

وأخذت عن بعد تفصح عن استجابتها لهم بأعمال صغيرة تدل على الرحمة والحنان ، فكانت ترتق فتوق ملابسهم الخشنة بتلك

البراعة الفائقة التى كانت تطرز بها يوما صور الطيور والفراشات والأزهار على الأطلس ، فإذا أصيب رجل منهم بجرح غسلته له وضمدته ، وكانت تعلم الكثير من هذه الأمور ، ذلك أنها كانت قد اشترت يوما بعض الكتب الكبيرة الأجنبية فى الطب ، وكان خادم فى منزل طبيب أجنبى فى مدينة أخرى قد سرقها من سيدة ليبيعها لقاء شيء من المال يغتصبه لنفسه ، وانتقلت الكتب من يد إلى يد حتى وقع نظرها عليها ، وخطر لها الآن أنه يجب أن تكون هذه الكتب بالقرب منها ، إذ قد يصاب كثير من الرجال بجروح فى الأيام المقبلة ، ومن ثم كانت تدرس كتابا من هذه الكتب تحت سترة الفلاحين التى ترتديها كلما عادت إلى منزلها .

وقال لها تونغ لى ذات ليلة : « نحن الآن مستعدون لاسترداد المدينة ، ولكن أنىَّ لنا أن نعرف اليوم السعيد المناسب إذا أنت لم تعينيه لنا ؟ »

فأجابت : « إن ثلثى الأعداء سيرحلون فى الليلة التى يكتمل فيها القمر ويصبح بدراً ، وسواء أوقع الهجوم فى ذلك اليوم أم فى اليوم الذى يليه فإن ذلك يتوقف على خطة سرية أدبرها »

فقال لها فى عجلة وقد توجس منها بعض التوجس : « لا تفشى أسرارك » .

وكأنما كانت الآلهة قد ألهمته النطق بهذه العبارة .

فأجابته بهدوء وهى لاتستشعر شيئاً من توجسه : لن أفشيها » .

أما هذا السر فهو أنها تذكرت أين كان يحتفظ زوجها بخموره الأجنبية ، لقد كان يحب هذه الخمور إلا أنها كانت سريعة التلف فاستنبطت هى طريقة لتخزينها فى بئر قديمة قرب فنائه الخاص ، ودلت سلماً على جانب هذه البئر وأقامت رفوفاً حول جدرانه القديمة المبنية بالآجر ، وغطت فتحة البئر بغطاء سميك .

وقالت لزوجها ، مرتكنة على ماسبق أن قرأته مرة بالصدفة : « إن الأجانب يضعون خمورهم فى أقبية تحت منازلهم ، ولما كانت منازلنا تبنى على مستوى الأرض فإن هذا أخير وأفضل »

وخلت من عملها لحظة فمضت إلى البئر وكانت الكروم قد نمت على غطاء البئر ولم تستطع أن ترفعه وحدها ، ولكنها استدلت من ذلك أيضاً على أن أحداً لم يكشف المخبا ، فعادت أدراجها وذهبت بنفسها تبحث عن القائد ، وجذبته من كمه وأشارت إليه بأن يأتى معها ، وكان يلاطفها الآن كما كان الكل يلاطفونها ، فجاء معها . وأشارت إلى البئر القديمة فظن أن بها كنزاً ، وصاح منادياً إليه أركان حربه ليفتحه ، فجاء هذا وأسند كتفه إلى الغطاء ورفعه من بين الكروم ، فسطعت أشعة شمس الصيف القوية على القنانى التى علاها التراب .

وضج القائد ضاحكاً من السرور ، وهتف : « لم أحسبه إلا ذهباً ! » ، ومد يده وجذب قنينة أطاح برأسها على حافة الحجر وراح يصب الخمر الأجنبية فى حلقه صبا .

وأخذت السيدة تشيين ترقبه ، لقد كان الرجال الذين تعرفهم يستوى فى ذلك أبوها أو أخوها أو زوجها أو أبناؤها يحتسون هذه الخمر فى طاسات من الخزف غاية فى الصغر فى أثناء تناولهم الطعام . أما هذا الرجل فكان يعب الخمر عباً ، وانصرفت متسللة والقائد لايزال يميل القنينة على فمه ، واجتازت الأفنية والسور المتهدم وهرعت إلى تونغ لى ، ولم تقف إلا لترشو الحارس الذى يقف على باب المدينة .

وقالت لتونغ لى : « استعد فالليلة موعدنا »

وانصرف مهرولا وأحست هى فجأة أن الكلال قد نال منها كل منال ، ومهما يكن من شىء فإنها لم تك خادما فى يوم من الأيام . ومع أن حياتها كانت زاخرة بالنشاط والحركة فإنها كانت مقصورة على إصدار الأوامر للخدم ، ولا تتولى الخدمة بذاتها ، وقالت تحدث نفسها : « ما إن يطرد العدو من هذه المدينة حتى ينتهى عملى » .

وراحت تمنى نفسها بالهدوء حينا بعد حين فى تلك الليلة العصيبة عندما ينقضى الأمر ، وعبر رجال العصابات النهر فى الظلام الحالك

وجلست هى فى الزورق مع تونغ لى ، ووجهت الرجال إلى الباب الجنوبى حيث سمح لهم الحارس المرشو بالمرور ، وإن كان وجهه قد امتقع حين فعل ، وما إن اجتازوا الباب حتى قفز إلى فراشه وتظاهر بأنه مستغرق فى النوم استغراق أهل الكهف ، وقادتهم السيدة تشيين إلى جميع المواضع السرية التى كان العدو يعسكر فيها وكانت تعرف كل ما غاب عن الرجال معرفته، وبُثَّ الرجال فى كل مكان انتظاراً للهجوم ، أما تونغ لى فقد قادته هو وخير رجاله بأسا إلى منزلها هى .

وقالت : « هاكم قائدهم » ثم تملكتها الدهشة من أن النفور والاشمئزاز اللذين كبتتهما طويلا قد ثارا فى نفسها ، ذلك أنها كانت قد أصبحت تمقت هذا الرجل مقتا شديداً وتمقت نظراته وأساليبه الوحشية وصرخاته وسورات غضبه المفاجئة حتى باتت ترثى للنسوة الثلاث اللواتى فى غرفتها لأن اشتهاءه لهن كان خبيثا أشد الخبث .

وقالت : « اقتل القائد أولا »

فأجاب تونغ لى : « لأفعلن »

فقالت وهى تشير إلى فناء من الأفنية « سأنتظر وراء هذا الباب»

فوعدها بقوله : « سآتيك هناك بأنباء الفوز »

وبينما كان الهجوم يجرى فى بيتها وفى كل بيت ينزل فيه العدو عادت هى إلى فنائها ووجدت تلك الصخرة القديمة الرطيبة فاستوت عليها وارتقبت الهدوء والسكينة ، حتى إذا انتهى هذا الأمر كله ونقلت جثث القتلى استأنفت وحدتها ، ولسوف تكون الوحدة فى منزلها أحلى وأعذب مما كانت من قبل ، وجلست تنتظر هذه الوحدة على حين انطلقت المدافع تقصف فى الظلام ، وأخذ الرجال ، وقد فوجئوا فى نومهم وسكرهم ، يحتشدون ويتأوهون ويزفرون زفرات حرى قبل أن يلفظوا نفسهم الأخير ، وجلست هى فى الظلام تنصت .

وقالت بينها وبين نفسها : « ليكونن ذلك أغرب أسرارى جميعاً حين ينشر السلام لواءه »

وساد الهدوء عند الفجر ، ورأت تونغ لى فى تباشير الصباح الباهتة قادماً نحوها من خلال الباب وقد ظهر عليه الإعياء والكلال.

وقال : « لقد قضوا جميعاً ، ولشد ما ينزفون ! »

ولم تجب على قوله هذا ، بل صبرت لحظة ثم انتصبت واقفة وقالت : « لأعودن إلى منزلى » . ولم تكن قد باحت لأحد منهم من أين هى ولا قالت إن هذا البيت هو بيتها .

على أن تونغ لى صاح بها قبل أن تخطو خطوة واحدة :

« ألست قادمة معنا فى حملتنا على الآخرين ؟ »

وقالت فى غباء كأنما كانت من عامة النساء : « أى الآخرين تعنى ؟ »

فأجابها : « أولئك الجنود الذين أنفذوا ليفتحوا المدن التى فى الشمال »

ثم عجبت لأمره إذ خر على ركبتيه وراح يقرع رأسه أمامها كما يفعل الناس أمام الأصنام فى المعابد وقال لها : « لا تتركينا الآن، فإن أمامنا معركة أكبر من هذه إذا شئنا أن نطرد العدو من البلاد ، وما قيمة بلدة صغيرة إذا ظلوا مستولين على مدننا الكبيرة وسواحلنا وولاياتنا الشمالية ، وكيف ننتصر إذا لم تنبئينا بمشيئة السماء ؟ »

وهنالك أدركت للمرة الأولى أنه يعدها فوق البشر ، ولذلك التمس عندها العون،وكانت على وشك أن تنكر ماظنه فيها من ربانية ، ولكنها أمسكت . لقد كان فتى ساذجاً ، وطاف بذهنها الذى أشرق بالحكمة المشوبة بالأسى أن السذج لابد أن يكون لهم معبوداتهم المحسوسة فما الذى يضيرها أن تتمثل هذه المعبودات فيها أو فى غيرها ؟

ووقفت مترددة . ألا ما أجمل الوحدة والسكينة ترفرفان فى أروقة دارها ! أو ليست تستحقها الآن ؟ ثم ألا يكونان هما نعيمها الوحيد ما دامت لا تؤمن بنعيم سواه ؟

وهنالك تبددت الوحدة فجأة مرة أخرى وتناثر الهدوء هباء وغاب النعيم ، فقد أقبل من خلال باب الدار عشرون أو أربعون رجلا أصيبوا بجراح ، إلا أنهم كانوا قد ثملوا بخمرة النصر بالرغم مما كانوا يكابدونه من نزيف وآلام ، ومزقت أحاديثهم وضحكاتهم التى تشيع فيها العزة والتفاخر آخر خيوط الهدوء إرباً إرباً .

فقد قال أحدهم مفاخراً : « لقد أغلقت باباً دون عشرة منهم ، وإذا بابن سلحفاة بحرية يابانية يدفع سفينة من خلال شق فيصيبنى بهذا الجرح »

وقال آخر : « وأنا أوقفت اثنين وظهراهما إلى الحائط وقتلتهما جميعاً » .

ولم يكن لديها ما تضمد به جروحهم ، فقالت : « لأمضين باحثة عن شيء من الماء الصافى وقطعة من القماش النظيف فى أى مكان ، وقد ألفوا منها أن تفعل ما تريد ، فاستلقوا يستريحون منتظرين أوبتها ، وقصدت هى إلى غرفتها ومرت فى طريقها بجثث القتلى دون أن تلقى عليهم نظرة ، وكانت غرفتها خاوية ، فقد هربت النساء ولم يبق شيء من أشيائهن قط ، ولكن لا ، فقد بقى ثوب نظيف من القطن الأبيض محلى بزهور زرقاء وكان هذا الثوب قد غسل منذ وقت قليل ليجف ، ونسيته النساء كل النسيان ، وجسته السيدة تشيين فوجدت أنه جف .

وقالت تحدث نفسها : « إنه يصلح لجراحهم » ووقفت لحظة فى غرفتها وتنهدت ثم أخذت الثوب وقفلت راجعة إلى الفناء الصاخب ، وإنما توقفت لتتناول دلواً خشبياً من الماء من بئر ضحلة فى طريقها .

وقالت للرجال : « لقد ترك العدو لكم هذا الثوب تضمدون به جراحكم » ومزقت يداها السريعتان الثوب إلى قطع مستطيلة ، ثم ابتسمت وقالت مازحة : « يا لك من عدو طيب يجب أن نقتفى أثرك لنشكرك على هذا الصنيع وعلى كل ما قدمت لنا »

وضجوا بالضحك ، وحتى أولئك الذين كانوا يتألمون أحسوا بالراحة والرضا ، وقال تونغ لى : « إنما نشكرك أنت »

ولم يعد أحد ممن كانوا يعرفون السيدة تشيين حق المعرفة يراها مرة أخرى أو يسمع عنها شيئاً . لقد استمرت الحرب طويلا حتى إن أكبر أولادها عاد يوماً ليبحث عنها ويسأل إن كان قد رأى أحد أمه أو بلغه شىء عنها ، فنفوا جميعاً ذلك . وراح الرجل يتجول فى أنحاء المنزل الخالى ، ولكنه لم يجد أثراً يدل على أنها كانت موجودة بعد مغادرة الأسرة للمنزل . وقال الجميع وهم يحدقون فى المنزل إن العدو لاشك قد قتلها . وعاد أدراجه ، عاد إلى أبيه ، حيث حزن عليها الجميع ظانين أنها قد لقيت حتفها ، وارتدوا الثياب

البيض ضعف الأيام التى كان الواجب يقتضيهم ارتداءها ، ذلك أنهم جميعاً كانوا يعزونها غاية الإعزاز ، كل بطريقته الخاصة .

بل لقد نسيت هى نفسها من تكون . واستمرت الحرب ، وبدا لها آخر الأمر أنها لم تكن طوال حياتها إلا تلك المرأة التى ينعتها هؤلاء الشبان بأم العصابات . لقد كان الجنود غلاظاً سذجاً ، بل كانوا أقذر مما تريد لهم . ولم تكن تستطيع قط أن تحفظ ملابسهم الممزقة على حال من الرتق ترضى عنه ، كان الواجب يقتضيها أن تمدحهم وتنهرهم وتأمرهم وتعاقبهم بإبداء سخطها عليهم حين يجانبون الصواب فى أفعالهم ، وأن تعد نفسها أيضاً لإنزال السكينة على قلوبهم حين يدركهم الموت . ولكنها بقيت معهم ، ذلك أنها أدركت الآن أن من واجبها أن تسدد خطاهم وتسير خلفهم إلى أن تضع الحرب أوزارها ويسود السلام ، أو تجد هى الراحة آخر الأمر فى رقعة صغيرة من الأرض فى مكان ما على طول الطريق !

النمر .. النمر!

كانت موللى تعلم ، دون أن تفتح عينيها ، أن الوقت قد حان لـكى تغادر فراشها . فقد انتصف النهار أوكاد ، وراحت تسمع وقع أقدام خادمتها الصغيرة تدب على أديم غرفتها المصنوعة من البلاط المربع حاملة لها الشاى والحلوى لتتناولها قبل أن تغادر فراشها . إلا أنها بقيت لحظة أخرى ، فقد أحست فجأة بجوع شديد إلى إفطار أمريكى شهى من ذلك النوع الذى كانت تتناوله كل يوم فى الـكلية . لقد كان الجو الأمريكى بارداً قارساً فتحس بالجوع دائماً . وأخذت تفـكر فى الطعام لونا لونا .. عصير البرتقال . والشوفان والقشدة ، وقديد الخنزير والبيض ، والخبز المحمر والقهوة ، آه .. ما أطيب القهوة ! إنها لمستطيعة أن تشمها فتحس بشذاها وحرارتها تنفذان إلى خياشيمها .

وقالت أوركيد فى صوت هامس رقيق : « هل أصب الشاى ؟ » ولم يكن أحد فى هذا المنزل الذى كانت هى فيه الابنة الوحيدة يستطيع أن يوقظها إلا فى رفق وأناة ، وكان ثمة أصوات صغيرة رقيقة تمهد بحيث تساير نهوضها التدريجى من فراشها ، ويأتى فى أعقابها

همس أوركيد الرقيق . وكان أبو موللى قد اشترى أوركيد منذ سنوات طويلة قبل أن تستطيع ذاكرة موللى أن تعى شيئاً ، وكانت أوركيد تكبر موللى بسنتين فقط ، لتكون أمة لها ، وقد انتظرت أربع سنوات حتى تعود موللى من أمريكا ، وراحت فى أثناء انتظارها تطرز الملابس الداخلية الحريرية الرقيقة التى جعلت الفتيات الأمريكيات يهتفن بصوت عال : «آه ياموللى ! ما أروعها.. ويالتلك الغرز الدقيقة كلها . . وهذا الرسم البديع ، آه . . ما أسعدك من فتاة ! » . واكتفت موللى بالابتسام مسلمة بأن أوركيد تصنع هذه الغرز الصغيرة أزهاراً وأطياراً وفراشات غاية فى الجودة والإتقان . وكانت موللى وهى فى أمريكا تحمل نفسها على الحنين إلى الوطن قليلا متخيلة أوركيد جالسة فى ركن مشمس من الفناء تطرز ، إلاّ أنها لم تكن تحس بالحنين إلى الوطن حقاً ، فقد كان لديها فى أمريكا عمل كثير جداً ، آه .. من هذا الكسل الذى تعانيه الآن ، بعد أن انتهت دراستها فى الكلية ، وعادت إلى وطنها وليس لديها ما تفعله !

ولم يستطع أبوها أو أمها أن يفهما ذلك قط ، أو تعيه صديقاتها .. أولئك الفتيات اللواتى عرفتهن ، ولم يسبق لهن بحال أن يغتربن عن الوطن .. يا لهذا الكسل من شيء لا يحتمل !

ولم تفتح الفتاة عينيها ، وما الذى يدعوها إلى ذلك ؟ لقد كان

يستوى أن تنهض أولا تنهض ؛ إذ لم يكن ثمة ما تفعله فى هذا الثغر القديم الهادئ القائم فى جنوب الصين .. أجل لم يك ثمة شىء ذو شأن !

وشعرت بلمسة أوركيد على اللحاف الحريرى المبطن .

« إن أمك ، أى سيدتى الصغيرة ، تريد منك أن تذهبى معها إلى المعبد اليوم ، وقد أمرتنى بألا أوقظك وحسبى أن أنبئك حين تستيقظين من تلقاء نفسك أنها قد تأهبت للخروج ، ثم إننى جئت إليك بشىء ، ولترين عندما تفتحين عينيك . . » وتوقفت أوركيد تنتظر .

إن أوركيد تستطيع أن تجعلها تشعر أنها عادت تلك الفتاة الصغيرة المدللة ، أجل تشعرها هى التى كانت الطالبة الحائزة على درجة الامتياز فى جامعة وليسلى ورئيسة القسم العالى ، حتى لقد قال لها العميد : « إنك لصاحبة موهبة فى الأعمال التنفيذية » ، وهاهى ذى أوركيد تلاطفها فتجعلها تشعر بأنها صلبة الرأى متجهمة ، ماكرة . وفتحت عينيها فرأت باقة كبيرة من الزهور الصفر الصغيرة كالشمع .

وهتفت أوركيد فى فرح : « الربيع ! » ووضعت الأغصان التى تنوء بأزهارها وقد تجردت من أوراقها على الفراش ، فتضوعت الخميلة المصنوعة من ستائر الفراش الحريرية بشذاها .

وصاحت مولى تقول وهى تهم جالسة « زهور اللاماى ! آه .. أو تزدهر الآن الشجرة القديمة القائمة فى فناء الغاب الهندى ؟ »

فأجابت أوركيد وهى تبتسم : « لقد امتلأت بالزهر »

فقالت مولى : « لقد نسيت »

وقالت أوركيد : « لم أنبئك بذلك ، بل انتظرت حتى صباح اليوم ثم خرجت مبكرة ، كنت أعلم البارحة أن الزهور ستتفتح اليوم ، وقد استحالت فى هذا الصباح شجرة من ذهب ! »

يا للربيع ! وقفزت مولى من فراشها .. فإن زهور اللاماى حين تتفتح يكون الشتاء قد ولى ، أجل يحل الربيع حتى لو عادت السماء فأمطرت ثلجاً ، ذلك أن الثلج لا يدوم . لقد كانت الغرفة باردة جداً ، وأخذت مولى تدفئ يديها فوق أديم الفحم الذى فى الموقد ، وكانت قد حدثت أباها المرة بعد المرة عن الدفء الذى يشيع فى المنازل الأمريكية ، وكيف كان يستمر الشتاء بطوله فلا يحس أحد بالبرد قط مهما تراكم الثلج وعلا . أما هذه الغرف القديمة الكبيرة بأديمها المصنوع من البلاط وجدرانها المشيدة بالآجر والمطلية بالملاط فكانت كالثلاجات ، ومن ثم لازمها البرد طوال الشتاء .

وقال أبوها وهو يلتف بالأثواب الحريرية المبطنة : « ها ! يا لتلك المنازل الأمريكية ! لو كنت هناك لهلكت ، استكثرى من الملابس يامالى » . إلا أنها أجابت فى نزق : « لست أحب أن أتنقل هنا وهناك كأننى لفة من فراش السرير » على أن الأمر لم يكن بذى بال ؛ فقد أقبل الربيع .

واغتسلت مسرعة بالماء الساخن المعطر الذى احتواه الإبريق النحاسى . وأخذت ترتعد قليلاً والبخار يتصاعد من جسدها العارى ، ثم شربت الشاى الساخن وهى ترتدى ملابسها ، وكانت أوركيد قد وضعت باقة الزهور الذهبية فى آنية خضراء مصقولة ، وظلت موللى تطيل النظر وهى تأكل وتشرب .

وقالت بينها وبين نفسها إن هذه الزهور ولاشك هى السبب فيما بدا عليها اليوم من قلق شديد وصبر نافذ ، وكانت تشعر بالخجل من نفسها ؛ فقد كان فى قرارة نفسها شىء يدفعها إلى الإسراع فى خطاها وفى كلامها وفى كل ماتفعل ، بل لقد بلغ من أمرها أنها كانت تريد أن تستعجل أمها .

وكانت أمها تقول : « إيه يامالى ، أو قد تزودنا بكل ما يلزمنا ؟ البخور والحذاء الفضى الذى سنحرقه ونذرنا إلى المعبد والدجاج وأنبوبة المياه ومنديلى ، أو تهب الريح ياأوركيد ؟ إذا كانت تهب فلا بد لى من صندوق الزينة الصغير حتى أصلح من شأنى قبل أن أتقدم

للصلاة ، ولعله يجمل بى أن أحمله معى على كل حال . هل سلة الشاى يا أوركيد فى المحفة ؟ إلينا ببعض الكعك خشية أن نجوع .. أجل الكعك المصنوع بزيت الخضر لا بزيت شحم الخنزير احتراماً للآلهة وتوقيراً ، فإنك تعلمين يا ابنتى أن الآلهة تشم شحم الخنزير بسرعة فائقة ، وهى تضيق برائحته أشد الضيق ، وإنى لأردد دائماً أن السبب فى فقدى أخيك الصغير عقب ولادته مباشرة يعود إلى أنى كنت أكلت « كلاوى» خنزير فى ذلك اليوم الذى مضيت فيه للتعبد ، وأعنى به اليوم السابق على ولادته ، وقد شمت المعبودات أنفاسى ... »

لقد كان من السخف أن ينفد صبرها من ثرثرة أمها الصغيرة الجميلة وهى تترنح على قدميها الصغيرتين المقيدتين . لقد كانت تحب أمها ، وكذلك كان يحبها الناس جميعاً ، ولكنها قالت تحدث نفسها وقد ثار التمرد فى صدرها فجأة : « إننى متعبة .. متعبة ، لقد تعبت من الذهاب إلى المعابد ومن هذا الهراء كله الذى ترد ده ! » وعاونت أمها على ركوب المحفة ، ثم قالت فى حدة : والآن يا أماه ، لقد قلت لك إن تلك الآلهة العتيقة السخيفة لا تنطوى على شىء من الحق ! »

وصاحت أمها تقول : « صه ! وأمسكى ! فإنك لا تعلمين أية

أرواح تطوف فى الجو ! ، وتبدل وجه أمها الصغير المستدير فأصبح يدعو للرثاء .

وقالت مولى فى لهجة واقعية . « إيه ياأماه ! إنهم فى أمريكا »

وسألتها أمها . « أليست لهم معبوداتهم الخاصة بهم ؟ لكل دولة معبوداتها التى تنبعث من رياحها ومياهها وأرضها »

وقالت مولى : « إننى لا أخشى أحداً منها » . وراحت تثبت الأطراف السفلى للستارة المبسوطة أمام وجه أمها والتى أعدت لتحجبها عن فضول الناس ، ومامن سيدة فى تشانغ تشو تفكر فى ركوب المحفة تجتاز بها شوارع المدينة وهى نهب للعيون . أجل مامن سيدة تفعل ذلك وزوجها من أبناء أعرق الأسر وأوسعها ثراء ، ولكن السيدة تشو الصغيرة أزاحت جانب الستارة مقدار بوصة لتقول لابنتها الطويلة القامة القوية البنية فى لهجة اليقين : « لاحاجة بك لأن تخشى معبوداتنا وأنت فى أمريكا ، فإذا عدت إلى الوطن ، ارتددت إلى سلطانها » . ثم أسدلت الستارة وصاحت بحملة المحفة قائلة : « هلموا ! » فرفعوا ركائز المحفة على أكتافهم .

وجلست مولى معتدلة القامة فى محفتها ، وكيف بها لو رأتها الآن زميلاتها الأمريكيات فى الكلية ؟ لقد تعلقن بها فى بداية العطلة السنوية فى شهر يونية الماضى تعلقاً ينم عن الود والمحبة

وحاولت أن ترد تحيتهم بمثلها ، وإن كانت قد لقنت أن اللحم يجب ألا يلمس اللحم . وقد صحن بها بأصواتهن العالية الفتية الرنانة : « اكتبي إلى يا موللى ! » ؛ « إذا قمت برحلة حول العالم ياموللى فسأتوقف فى الصين للقائك ، فإننى تواقة لمشاهدة منزلك » .

وقالت هي : «أنبئنني بقدومكن . وأرجوكن أن تأتين لزيارتى »

وبعد فإن موللى لم تكن تخجل بحال من منزلها ، ذلك أن قاعات الكلية لم تكن أكثر جلالا من المنزل القديم الذى أقامت فيه أجيال من أسرتها . ولو أن إحدى زميلاتها قد جاءت حقا لزيارتها فلا شك أنها ستقول لأبيها ببساطة وبصريح العبارة إن الأمريكيات لن يفهمن مسلكه إذ يبصق حيث شاء . وإذا لم يقبلن فى الشتاء فلن يعرفن مبلغ ما يصل إليه الزمهرير من شدة ، ولسوف يعجبن من الأسطح المنبسطة والأفنية المبلطة ببركها الصغيرة وأشجارها القميئة ، ولن تحدثهن بما لم تقع عليه أنظارهن .. المطبخ بأفرانه المشيدة بالطين ، وأطفال الخدم يركضون هنا وهناك بوجوه قذرة ، ثم الذباب ! إنها لم تذهب إلى المطبخ بشخصها ، فقد كان الخدم يعنون بكل شيء ، وكانت تحت المنزل بالرغم من أن هدوءه كان يثقل عليها ، لقد شيد المنزل منذ ثلاثمائة سنة ومن الممكن أن يظل إلى ما شاء الله .

وكان أبوها يقول أحيانا فى لهجة يشوبها الحزن : « لم يعد ثمة بقاء لشىء ، فالمرء لايستطيع اليوم أن يبنى بيته ليبقى إلى ما شاء الله كما كان يفعل أجدادنا،ولامناص من أن يطبق علينا اليابانيون يوما».

وكان إذا قال هذا انتابها الخوف دائما ، إلا أنه كان خوفا لا يدوم إلا لحظة ، بالرغم من أنه كان يردد قوله هذا المرة بعد المرة على قدر ما تذكر. وكان الأطفال يصيحون فى الشوارع وهم يتشاجرون : « سينالك الأقزام السمر القصار ، سينالك الأقزام السمر القصار » ، أو يصيحون قائلين : « ليخرجن النمر من مكمنه فى التلال ويهبط منها ويلتهمك ! » . اليابانيون والنمر ، لقد كان اليابانيون هم الأقزام الذين حفلت بهم القصص الخيالية التى كانت تسمعها فى طفولتها ، وكانوا هم الجن والعفاريت الصغيرة ذات المكر والدهاء ، وكان النمر هو العملاق الخبيث . فلما شبت عن القصص الخرافية لم يعدهذا كله يبدو حقيقيا فى نظرها ، زد على ذلك أنه كان ثمـــة فتاة يابانية فى الكلية اسمها تشيو . ولم تكونا صديقتين بمعنى الكلمة ، وكانت تلك الفتاة قصيرة القامة سمراء أقرب إلى الدمامة كأنها القزم ، إلا أنهما لم تكونا عدوتين ، وكان كثير من الفتيات يحب تشيو ، أما النمر فلم يكن إلا زعيما قديما من زعماء قطاع الطرق يتحدث عنه الناس ولم يره أحد قط ، ثم إن المفروض أنه لم يعد ثمة وجود لقطاع الطرق ، فقد سنت

الحكومة قانونا للضرب على أيديهم .

وراحت تحملق بشدة من خلال لوح الزجاج الصغير الذى شبك فى الستارة المصنوعة من القماش ، ولو أن أباها رضى بالانتقال إلى شنغهاى للإقامة فيها لاستطاعوا أن يستأجروا منزلا أجنبيا وأن يؤثثوه بأثاث أجنبي ويزودوه بنظام التدفئة المركزية . إن شنغهاى لمتعة ، فهى كأمريكا سواء بسواء ، ولكنها حين قالت إنها تريد الإقامة فيها لم يكن من أبيها إلا أن دمدم بضحكته العريضة الكبيرة وقال بلطف كأنما رأى أن فى ذلك الكفاية : « لقد أقمت هنا طول عمرى » ثم أردف فى لهجة مسالمة وديعة : « لا تقلقى يا بنيتى فسرعان ما تتزوجين وتستطيعين حمل زوجك على المضى بك إلى شنغهاى ، إننى رجل بلغت من العمر عتيا ثم إننى مفرط فى البدانة فما عساى أن أصنع فى شنغهاى ؟ » . لقد كان يتحدث دائما عن زواجها إلا أنها كانت تأبى أن تنصت إليه ، ثم صاحت تقول : « ولكن ماعساى أن أفعل هنا ؟ »

وأطال فيها النظر .

ثم قال وهو يبتسم : « وهل يجب أن تفعلى شيئا ؟ » . فلما همت بأن تفتح فمها لتجادله نهض مسنداً يديه إلى ركبتيه البدينتين وسار وهو يدلف فى مشيته .

وقالت تحدث نفسها وقد تملكها الغضب : « عار على أبى أن يكون مفرطا فى البدائة إلى هذا الحد » . ورأت من خلال بضع البوصات المربعة من الزجاج مستطيلا من الشارع المرصوف المزدحم ، وقطاعا من العمال يدفعون العربات ذات العجلة الواحدة ، والحمير تخب محملة بأكياس الأرز ، والأطفال يقامرون بالبنسات ويتشاجرون فى غمرة الغبار الثائر . لم يكن فى تشانغ تشو عربات حتى من طراز « الرِّكشة » ، ولا سيارة واحدة ، بل لم تكن ثمة شوارع تتسع للسيارات ، ثم إنه كان فيها جسور مقوسة فوق الترع ، وقد مالت بشدة الآن إلى الوراء عندما أخذ الحمال يرقى درج الجسر . وانقضت لحظة لم تر فيها من خلال لوح الزجاج المربع إلا السماء البيضاء ، ثم دفعت إلى الأمام وامتلأ المربع لحظة أخرى بالبلاط المبتل ، وعادت فاعتدلت فى جلستها وراحت تتأرجح فى الشارع من جديد .

وقالت بينها وبين نفسها فى غضب وحنق : « أبى ! إنه لا يفكر إلا فى أن يزوجنى ، فلم أرسلنى إلى أمريكا إذن ؟ »

وقد سألت أباها عن السبب مرة ، إلا أنه لم يجبها واكتفى بجذب نفس من غليونه وهز رأسه .

ثم قال : « لم أبعث بك لأى سبب خاص ، ولكننى ذهبت إلى

أنه قد يكون من المفيد الوقوف على بعض مايفعلون هناك ، ولم يكن لى ابن أبعث به » ثم أردف يقول فى حماسة شديدة : « والآن حدثينى مرة أخرى عن تلك الطائرات .. تقولين إنها ترتفع فى الجو كأنها طائرات من الورق ، إلا أنها ... »

لقد كانت تقضى الساعات تحدثه عن أمريكا .

وأخذت تحدث نفسها قائلة : « إنه لا يسألنى لأن حديثى قد يكون فيه منفعة ، ولكنه يريد أن يتسلى فقط . لقد تخرجت بمرتبة الشرف فى جامعة غربية حديثة للفتيات الراقيات حتى أقوم بتسلية رجل عجوز بدين فى ثغر صغير تافه على ساحل بلاد الصين ! » .

وأحست بأنها قد حطت إلى الأرض فى هبدة . ثم جاءت أوركيد فأزاحت الستار .

وقالت وهى تمد يدها لتساعدها على النهوض : « لقد وصلنا ياسيدتى الصغيرة » إلا أن موللى انتصبت واقفة فى خفة ونشاط ، وقالت فى لهجة خشنة : « لا أحتاج لمعاونتك » .

وكانت أمها قد ترجلت . وراحت فيما بدا لها تثير ضجة حول المتاع .

فقد كانت تصيح قائلة : « إيه ياأوركيد ! أين الـ .. آه هاهو ذا !

وأين منديلى ؟ أى نعم ! لقد وضعته فى كمى ثم ها هو ذا رئيس المعبد الصالح ! »

وكان رئيس المعبد يسرع هابطا الدرج وهو يبتسم ويفرك يديه المكتنزتين وثيابه الرمادية تتطاير فى الهواء . لقد كانت تكرهه . ولم تكن أمها تستطيع أن ترى قط ذلك الجشع الذى تنطق به عيناه ، ولا تلك القسوة البادية على فمه ، ولا تلكما اليدين اللتين تشمئز منهما النفس ، بفرط نعومتهما وشدة اكتنازهما . ومضوا ينحنون بعضهم لبعض وينحنون ؛ فلقد كان يسر رئيس المعبد بطبيعة الحال أن يرى سيدة عجوزاً حمقاء واسعة الثراء .

وقال رئيس المعبد وهو يتكلف الابتسام : « حين فرغت هذا الصباح من أداء صلاتى رأيت شجرة اللاماى فى كامل ازدهارها فعرفت أنه يوم يبشر بالخير ، وها هو ذا الخير قد أقبل ! ».

وسار الرجل فى طليعة القوم إلى المعبد ، وتبعت موللى أمها ، فى صلابة واحتقار ، وحذاؤها الأمريكى يطقطق على الدرج الرخامى القذر . وجاءت من خلفها أوركيد ثم الحمالون يحملون النذور ، وأحاطت بهم جميعاً وجوه متطلعة متسائلة ، وشعور شعث وعيون متفرسة . لقد كان اولئك هم جمهور الفقراء يتدافعون إلى الأمام . ولم تكن قط تحفل بالنظر إليهم ولم تنظر إليهم الآن ،

بل إنها لم تلق بنظرة إليهم على الإطلاق طوال مرحلة طفولتها ، وهى تحتمى بالأسوار العالية من منزل أبيها . وتبعت أمها إلى قاعات المعبد المعتمة العالية ورائحة البخور المحترق الزكية النفاذة تكتنفها كأنها غلالة من الحرير المنسوج ، واختنقت أنفاسها أو كادت .

وقالت لها أمها : « اذهبى ، فإنى أريد أن أصلى وأبتهل لأمر خاص » ووقفت تنظر ، وراحت أمها تؤدى صلواتها الطويلة المعتادة طلباً للصحة والمحصولات الجيـــدة فى مزرعة الأسرة ، وتبتهل ألا يأتى اليابانيون قط وأن يعرض النمر عن الأسرة ، وكانت قد مضت تبتهل لتحقيق ذلك سنوات طويلة .

وعادت أمها تقول لها : «اذهبى»

وابتعدت قليلا ، وكان أداؤها هى للصلاة أمراً مفروغاً منه ، فقد انتهوا فيه إلى رأى حين عادت إلى الوطن أول ماعادت .

فقد قالت : « لأذهبن إلى المعبد يا أماه ، ولـكننى لن أجثو على ركبتى مرة أخرى أمام تلك التماثيل العتيقة » . كان ذلك فى اليوم الذى جاءت فيه أمها لتعرب عن شكرها للآلهة على عودة ابنتها سالمة.

وأعولت أمها قائلة : « يالك من فتاة خبيثة .. خبيثة ! » ، ثم التفتت إلى زوجها وهى تولول هاتفة : لتغضبن المعبودات منا جميعاً ! »

فأجابها مداعباً : « لن تغضب إذا أنت لم تخبريها بالأمر ، فإنى

لم إختلف إلى المعبد منذ سنوات وهى لا تعلم من الأمر شيئاً » ، وانحنى إلى الأمام وربت على كتفها : « ثم إن الآلهة لا يمكن أن تؤذى أحداً يمت إليك بصلة بعد كل هذه السنين »

وقالت موللى من بعد لأبيها : « ألا تعتقد فى الآلهة القديمة يا أبت ؟ »

فهز رأسه وهمس قائلا : « لا تشى بى ! » ثم دلف إلى رف من أرفف كتبه وأخرج كتاباً صغيراً مجلداً بالورق وقال لها : « لقد قرأت هذا منذ سنوات طويلة » ، وأدهشها أن تجد الكتاب ترجمة لكتاب داروين «أصل الأنواع» ولم يكن يدور بخلدها قط أن أباها يمكن أن يقرأ شيئاً غير الروايات والقصائدالقديمة ، ثم قال لها : « لامناص من أن تكون لأمك أوثان تعبدها ، أما أنا وأنت فلا حاجة بنا إليها »

واتصلت بينهما بارقة من تفاهم ، ثم فقدت هذه البارقة عندما سعل بصوت عال ثم تفل ، وفقدتها أكثر وأكثر حين كان يجلس وقد أثقل النعاس جفونه من فرط ما أكل وشرب ، وحين كان يستلقى على أريكة ينفق وقته فى النوم بلا فائدة ، وقالت تحدث نفسها وقد انتابها شعور من الحزن والغضب : « كيف يضيع نفسه هكذا » ، ثم كانت إذا حدثته عن شىء رأته فى أمريكا استيقظت

حواسه فجأة وعرف ماذا تعنى ، ثم تسود بينهما مرة أخرى تلك البارقة من التفاهم ولا تلبث إلا برهة وجيزة .

وقالت بينها وبين نفسها فى انفعال : « ما من شىء فى هذه المدينة القديمة الوسنانة يمكن أن يحفز أحداً إلى النهوض بأى عمل من الأعمال » ، وطرق أذنها من جناح فى المعبد طنين الكهنة المرتلين ، بطيئا ناعسا ، وهم يترنمون بنشيد القرون الخالية . ولم تستطع أن تحتمله ، فابتعدت ووقفت بجانب باب المعبد الكبير المفتوح . وراحت تطل منه إلى الخارج . لقد كان الفناء الضخم زاخراً بالباعة ، يبيعون الكعك المصنوع من الخضر ، والبخور ، وأوراق النقد ، والأطعمة المطهوة للقربان . كان الفناء قذراً مزدحما تكثر فيه الجلبة والضوضاء . ثم دهمتها فجأة ريح الربيع تهب نسيما منعشا عذبا قادما من التلال التى خلف سور المدينة . . نسيما رطبا ولكنه ليس بارداً ، وكانت السماء فوق أسطح المدينة المشيدة بالقرميد الأسمر زرقاء متألقة تشوبها سحب صغيرة تسبح فى رحابها . وقالت تحدث نفسها فى انفعال : « لا أستطيع . . لا أستطيع . . أن أقيم هنا طول عمرى وأن أشب كما شب هؤلاء جميعا ! »

وفى تلك اللحظة سمعت أوركيد تسعل من خلفها فالتفتت إليها بسرعة ، وكانت أوركيد تبتسم فى شىء من النزق .

فسألتها موللى محتدة . « ماذا دهاك ؟ ولم تضحكين ؟ »

وسألتها أوركيد فى خبث ودهاء : « أتعلمين لماذا تصلى أمك ، أى سيدتى الصغيرة ؟ »

وأجابتها موللى فى اقتضاب : « كلا ، فليس هذا من شأنى »

فقالت أوركيد وهى تضحك : « بل إنى لأعتقد أن هذا من شأنك ، إنها تصلى مبتهله أن ترزقى زوجا ! »

وحملقت فيها موللى النظر ، زوج . . . لها !

ثم قالت : « اصمتى . . اصمتى أيتها الحمقاء ! »

فقالت أوركيد فى وداعة ولين : « سمعاً وطاعة يا سيدتى » وبدت فى عينيها نظرة رضا تلقيها امرأة نطقت بما جاءت من أجله.

ولم تسأل أمها شيئاً ، ولحقت بها أمها وهى لا تزال واقفة بباب المعبد ، وكانت نظراتها هادئة وصوتها قوياً .

وقالت : « إنه ليوم طيب للصلاة ، لقد شعرت اليوم بأن الإله قد حنا على ليسمعنى وعندما ابتهلت إليه عرفت أنه أجاب سؤلى ، هيا بنا إلى المنزل »

ورأت فى عينى أمها بريقا كانت تعرفه ، بريقاً يدل على أن أمها تدبر أمراً .

وقالت بينها وبين نفسها : « إذا كانت أمى تحسب أننى سأتزوج شخصا تختاره لى فقد أخطأت الظن ، ولعلها تقول لى إن الآلهة قد اختارته لى »

وركبتا مرة أخرى المحفتين اللتين كانتا فى انتظارهما ، وأشاحت بوجهها عن رئيس المعبد القذر ، وهم ينحنون وينحنون فى أثناء مغادرتهم المعبد .

ولن تسأل أمها شيئا ، أجل ! بل ستذهب رأسا إلى أبيها عندما تصل إلى المنزل ، ولاح لها جميع من فى الشارع من الناس أشباحا فقط تروح وتغدو من خلال لوح الزجاج ، وستقول لأبيها : « أبتاه ، أبتاه لن ... لن أتزوج أحداً ... لن أتزوج رجلا إلا إذا — » ، وراحت تعمل الفكر المرة بعد المرة فيما عساها تقول لأبيها ، وبدا لها أنهم قد بلغوا الدار فى الحال تقريبا »

وسألت الخادم الذى جاء يستقبلهم عند الباب : « أين أبى ؟ »

فأجابها قائلا : « إنه نائم فى المكتبة » ، وهرعت من فورها إليه مجتازة الأفنية .

فلما بلغت المكتبة لم يكن أبوها نائماً ألبتة ، فقد سمعت صوته الخشن يجرى بالحديث وفتحت الباب مندفعة ، ورأت ثلاثة رجال تقدمت بهم السن يجالسون أباها وأمامهم أقداح الشاى ، وكان

هؤلاء هم شيوخ المدينة ، إلا أنهم لم يكونوا يشربون الشاى ، بل كانوا يميلون إلى الأمام وقد تقاربت رؤوسهم وراحوا يتهامسون . وما إن دخلت الغرفة حتى اتجهت أنظارهم إليها ، وانتصب أبوها واقفاً .

وقال : « كنت على وشك أن أرسل فى طلبك يا مالى . أين أمك ؟ يجب أن ترحلا فى الحال إلى شنغهاى بسرعة . . بأقصى ما يمكنكما من السرعة ؟ » .

ودمدمت تقول : « لماذا ؟ لماذا ؟ » . إلا أنه كان يدفعها من كتفيها خلال الباب .

فهمس : « النمر . . إن النمر سيهاجم المدينة! »

وحملق فيها بنظرات تنم عن الرعب ، ثم قال وهو يزدرد ريقه بمشقة : « كأنما لم يكفنا ، أجل كأنما لم يكفنا أن اليابان تهدد سواحلنا فينقض علينا النمر من الداخل يمزقنا شر ممزق ! »

ثم أغلق الباب .

ووقفت لحظة وقد أوصد الباب من دونها كأنها طفلة تأتمر بأمر يصدر إليها . النمر ! إن أباها كان خائفاً حقاً ، وهو أمر مضحك . لقد كانت تسمع عن النمر طول حياتها فقد كان النمر الذى يخشاه الناس موجوداً دائماً ، يقيم بعيداً فى الجبال إلى الشرق ، زعيما

على عشرين ألفا من قطاع الطرق . وكانت تعلم أن المدينة تدفع له سنويا إتاوات ليدع أهلها وشأنهم . وسمعت أباها يتحدث عن « إتاوة النمر » . لقد كان الجميع يدفعون إتاوة النمر مغتبطين بذلك ما دام يتركهم يعيشون فى سلام ، وكانت البلاد الصغيرة التى لا تستطيع الدفع لشدة عوزها تروى الروايات عن سورات الغضب الجامح التى كانت تتملك قطاع الطرق فيتدفقون من خلال أبوابها ويحتشدون فى منازلها ومحالها . وكانوا إذا رحلوا وضعوا اللافتات على أبواب مدينتهم وكتبوا عليها : « سيروا فى طريقكم فقد سبق أن سطا اللصوص علينا ولم نعد نملك شيئا » . وإنما كانوا يفعلون هذا خشية عصابات اللصوص الأخرى كعصابة الذئب الأزرق مثلا ، وإن كان المفروض أن يبقى الذئب الأزرق فى ذلك الجانب من الجبل المحجوب عن الريح ، إلا أن أحداً لم يكن يخشى الذئب الأزرق خشيته للنمر . لقد رجا الجميع أن تدرك المنية النمر العجوز حتى يشب ابنه عن الطوق ، ثم انقطع رجاؤهم بعد أن اشتد عود الابن ، ذلك أنه كان أقوى من أبيه وأبرع ضعفين ، على ما قال الناس جميعا ، وإن كان لم يقع عليه نظر أحد .

ووقفت تذكر كل هذا الحديث الذى سمعته من الخدم ومن أوركيد . ولاحت أمريكا فى مخيلتها فجأة فأحست بشىء من الحسد

والشوق . وهنالك استبد بها الغضب ، وراحت تقول بينها وبين نفسها : « إن من أشد ما يسخط النفس أن يكتب علينا أن نظل نعانى من أرباب الحروب هؤلاء حتى فى هذه الأيام وهذا العصر » ، وقد ضحكت ذات مرة من سؤال وجهته إليها مارى لين وهى تقرأ جريدة ، إذ قالت لها : « أرباب الحروب . . آه كلا ! لم يعد لدينا أرباب حروب فى الصين ! » ، بل إن النمر لم يكن قد خطر لها على بال وهى فى أمريكا .

وضربت الأرض بقدمها وفتحت باب المكتبة . وتطلع إليها الشيوخ جميعا وكان أبوها يكتب على قطعة من الورق . وكانت تعلم ماذا يكتب . لقد كان يحسب مقدار ما يستطيعون أن يجمعوه من مال ليرشوا به النمر حتى يدعهم وشأنهم .

وقال أبوها دون أن ينظر إليها : « إن المجموع سبعة وأربعين ألفا . وسأضيف ثلاثة آلاف حتى يصبح المبلغ خمسين ألفا » . فهل يتركنا وشأننا لقاء خمسين الفا ! »

وقالت مولى بصوت مرتفع : « أبتاه ، ما الذى يدعوكم إلى إعطاء لص شيئا من المال ! »

ونظر إليها وقد تملكته الدهشة .

وقال فى لين ورفق : « وى ، لقد كنا مكرهين ولا نزال على

أن نعطى النمر دائما . إن النمر العجوز لم يكن غاية فى السوء ، ولكن النمر الشاب هو الذى يقض مضاجعنا ، فإن أطماعه واسعة »

وصاحت تقول : « وأنتم بسبيل بذل العون له ! »

ونظر إليها الشيوخ فى أناة وصبر . وكانت مستطيعة أن تتخيل ما يدور فى أذهانهم ، كانوا يقولون بينهم وبين أنفسهم إنها امرأة ، والمرأة لا تدرك شيئا .

وانتصب أبوها واقفا .

وقال : « قلت لك أن تمضى إلى أمك ، فأنا لا أحب أن تتدخلى فى هذا الأمر . لقد كنت تتوسلين أن تذهبى إلى شنغهاى ، فاذهبى إذن وزورى بنات عمك وارقصى لهم تلك الرقصة التى يحببنها جميعا واستمتعى بوقتك ! »

وأجابته : « وأتركك هنا ؟ »

فقال فى لهجة ذات معنى : « لست فتاة صغيرة » . وعاد وأمسكها من كتفيها ودفع بها من خلال الباب وراح يسر إليها فى صوت مرتفع . « اذهبى ، ألا ترين أنك تخجليننى أمام شيوخ المدينة ؟ تظاهرى على الأقل بأنك تطيعيننى » .

وقصدت إلى غرفتها وجلست والدم يغلى فى عروقها غضبا . يا لبلادها من بلاد ! تجد فيها تلك الآلهة التى رأتها فى المعبد هذا

الصباح مائلة فى أصنام عتيقة سخيفة من الطين ألصقت عليها أوراق ملونة وموهت بالذهب ، وتجد وجوها شرسة سخيفة قصد بها إلقاء الفزع فى قلوب الجهلة ، وراحة رئيس المعبد البدين مبسوطة — وكراسى المحفات بدلا من السيارات ، ثم إذا برب من أرباب الحروب يوشك أن يهاجم المدينة !

وصاحت فى انفعال تحدث نفسها : « إن مقامى ليس هنا ! إنها لبلاد بشعة ، ينبغى أن تموت وتدفن مع غيرها من دول القرون الوسطى ! » ثم راحت تفكر : « ماذا يحدث لو أتت مارى لين لزيارتى حقا ؟ إن الكثيرين يزورون الصين الآن . وددت أنهم لا يفعلون » . وتذكرت أمها وهى تجثو أيضا أمام الآلهة السخيفة وقالت بينها وبين نفسها : « أمى أنا » ، ثم كيف بأبيها الذى يدفع الإتاوة إلى رب من أرباب الحروب ، ومن عسى أن يكون أرباب الحروب إلا قطاع طرق ؟ ، وقالت بصوت مرتفع : « كان ينبغى أن يزجوا فى السجون » ، ثم عادت تقول بينها وبين نفسها فى مرارة : « بل لعله لا يوجد سجن فى المدينة » ، وفكرت فى حالها محدثة نفسها : « وإنى أحمل درجة جامعية من ويليسلى ! إنها لتلائمنى ملاءمة سيارة تشق طريقها فى هذه الشوارع ! » . وجمعت يديها . وقالت فى لهجة من صح عزمه على أمر : « لن أحتمل هذه الحال ! لن أحتملها وكفى ! » .

وراحت تسائل نفسها ترى ماذا كانت تفعل مارى لين فى هذه الظروف ؟ بل ماذا كانت تفعل أية فتاة .. أعنى فتاة تعيش فى أيامنا هذه ؟

وجلست تدبر أمراً خطيراً ، وكادت لا تشعر فى غمرة خواطرها السريعة بأريج زهور اللاماى العذب النفاذ على غصونها السمراء التى تجردت من أوراقها . وفتح الباب واندفعت أوركيد إلى الغرفة .

وصاحت قائلة : « يجب أن نذهب إلى شنغهاى يا سيدتى الصغيرة ! يجب أن نذهب جميعا إلى شنغهاى فى الحال . لقد عاد النمر ! وقد طلبت منى أمك أن أحزم ثيابك فوراً » .

ونظرت إليهامولى فى دعة ولطف ، وقالت فى صوت رقيق : « حسن جداً ياموللى » . وكان صوتها ممعناً فى الرقة حتى إن أوركيد صاحت مرة أخرى وقد تملكتها الدهشة : « أكنت تعرفين ؟ ألا تخافين النمر ؟ »

ومدت موللى أصبعاً ولمست زهرة من الزهور الصفراء الباهتة ، ودمدمت تقول : « كنت أتوق إلى الذهاب إلى شنغهاى ، ثم إننى لا أخاف أحداً » .

وهتفت أوركيد تقول فى صوت خفيض : « آه .. إذن فأنت الوحيدة التى لا تخافين ! »

وقالت موللى بينها وبين نفسها : « هذه ! أجل هذه هى اللحظة المناسبة ! » ، وكانت الباخرة الساحلية الصغيرة المترنحة قد أطلقت آخر صفاراتها فى صوت ضعيف مرتجف وبدأت جلبة العمال تتلاشى ، وكان أبوها قد انصرف بعد أن هتف من رصيف الميناء : « إلى اللقاء ! إلى اللقاء » . وانحنوا له وانحنى لهم ولوحوا جميعا بأيديهم ، ثم تحول عنهم وركب محفته ، فقالت لها أمها : « سآوى من فورى إلى فراشى ياموللى فإن المرض سيصيبنى » .

فأجابتها : « حسنا يا أماه » ، ثم قالت تحقيقا لما دبرت تماما : « يجب أن تذهبى معها يا أوركيد » .

والتفتت أمها وقالت : « إئتى بحقيبتى الصغيرة يا أوركيد » . وتناولت أوركيد الحقيبة الصغيره المصنوعة من جلد الخنزير الحاوية لأدوات الزينة ، وكانت الحقائب جميعا مكدسة على ظهر السفينة . وقد اعتمدت موللى على ذلك أيضا ، ذلك أنها سوف تأخذ لفة ملابس أوركيد عندما تحين اللحظة الأخيرة ، وهى ملابس زرقاء عادية مصنوعة من القطن صرّت فى منديل كبير منقوش بالزهور ، كانت تلك هى اللحظة ، فقد كان آخر من تبقى من المودعين فى

طريقهم إلى النزول مجتازين الجسر المتحرك الذى كان اثنان من البحارة ينتظران ليرفعاه ، وانطلق من السفينة صوت صرير خفيف وهى تبتعد عن رصيف الميناء بضع بوصات .

وصاح البحارة : « أسرعوا . . أسرعوا ! »

وانحنت موللى والتقطت اللفة واندمجت فى الجماعة ، وتبعتهم فى هبوطهم الجسر المتحرك ونزولهم إلى الشـــارع ، ولو اتفق أن رأتها أوركيد نفسها فلن يطوف بذهنها ما استقرت عليه من أمر . لقد كانت مسرورة من أنها ارتدت أبسط أثوابها فى هذا الصباح ، وكان ثوبا أزرق داكنا ، وغابت فى غمرة الشارع المزدحم ، وسط التيار ، وانعطفت وأصبحت بذلك فى مأمن ، إذ ما من أحد كان يستطيع أن يراها الآن . وتلبثت عند موقف للعربات كانت تؤجر فيه المحفات .

وسألت : « ما أجرة المحفة طول اليوم ؟ »

فأجابها رجل بدين : « ريال فضى وما يجود به قلبك الطيب من مال نحتسى به الشاى »

فقالت : « قبلت ، وليكن الحمالون أقوياء لأننا سنمضى إلى الجبال »

وسألها الرجل البدين : « أتقصدين معبداً ياسيدتى ؟ »

فأجابت فى هدوء : « كلا ، بل إلى جبل النمر »

وى ! لقد قالت ذلك بصوت مرتفع ! ونظر الرجال بعضهم إلى بعض ، ودمدموا « جبل النمر . . . إن هذا ليس . . . كلا . . . ما من أحد . . . لن نستطيع . . . »

فقالت : « ماذا دهاكم ؟ »

فأجابها الرجل البدين فى خشوع : « مامن حمال يستطيع تسلق ذلك الجبل يا سيدتى ، وإن فعلنا فلن نستطيع العودة إلى زوجاتنا وأطفالنا »

فقالت : « أعدكم بأن تعودوا إلى دياركم »

وكانوا يحدجونها بنظراتهم ، وسألها الرجل البدين هامسا : « من أنت ياسيدتى ؟ » فقد كان أولى بها ألا تتحدث عن النمر جهرة فى الطريق .

وأجابته فى برود : « خير لك أن تمضى بى دون أن توجه إلىّ سؤالا ، فإن النمر . . . » ثم توقفت !

وتوسل إليها الرجل قائلا : « إذن فإلى سفوح الجبل فحسب ، وهناك تجدين يا سيدتى جياداً ألفت الممرات الضيقة ، وأنت بلا شك تعلمين هذا إذا كنت تعرفين النمر »

فقالت : « إذن إلى سفح الجبل » ، الجياد ! لقد ركبت الجياد فى أمريكا ، لقد كانت هى ومارى لين تستأجران الجياد أحيانا فى الكلية فى يوم من أيام العطلة تركبانها مجتازتين ريف نيو إنجلاند ، وكانت مارى قد علمتها كيف تركب الجياد .

وركبت موللى فى محفة وأسدلت الستار .

وأمرتهم قائلة : « هيا ! »

ثم ساد السكون لحظة ، شعرت بعدها بأنها ترفع فى الهواء كما شعرت بترنح خطوات الحمالين وهو أمر ألفته كثيراً ، وانتظرت ساعة ثم أخذت تبدل ملابسها خلف الستار ، محاذرة أن تتحرك أكثر مما يقتضيها الحال ، وارتدت سروال أوركيد المسترسل الأزرق المصنوع من القطن وائتزرت بسترتها القطنية الزرقاء ، وكانت قد لبست هذا الصباح حذاء السير الخاص بها المصنوع من أمتن الجلود الأمريكية .

وصاح أحد الحمالين بها : « لا تتحركى يا سيدتى ! فإنك حين تتحركين يحز القضيب فى أكتافنا »

فردت عليه قائلة : « إنما أرتدى المزيد من الملابس ، فقد أخذ الجو يزداد برودة »

وكان هذا صحيحا ، ذلك أن سفوح الجبل كانت ترتفع

أمامهم ، وربطت ملابسها ربطا محكما فى صرة أوركيد ، وما انقضت لحظة حتى شعرت بكرسى المحفة ينحط على الأرض فترجلت ، وكان من حولها إقليم غريب وتلال منخفضة حادة تقوم كالأمواج حول الجبل العظيم . كانت تقف على جرن ، بل قطعة مربعة من الأرض الصفراء ممهدة اقتطعت من سفح التل ، يقوم على حافتها منزل ريفى مشيد بالطين ، وظهره إلى التل . وكان بالقرب منه ستة جياد علقت فى شجرة صفصاف ، وجاء إلى الباب زارع كئيب الطلعة .

وسألته بهدوء : كم إيجار الجواد ؟ ، وشعرت بالخوف يهز أعماق قلبها قليلا ، فإنها لم تكن قد رأت قط وجوهاً كتلك التى بدأت تحتشد حول الباب ، ذلك أنها كانت تقيم فى أفنية مسورة يغذوها فيض من ضوء الشمس .

وهمس الحمال البدين قائلا : « إنها صديقة من أصدقاء النمر » ، وأومأ بإبهامه صوب قنة الجبل التى تعلوهم بكثير .

وسألها الزارع الكئيب : « لم لم تقولى هذا ؟ إنك لا تستطيعين المضى وحدك ياسيدتى ، فالدروب ضيقة وهذه الجياد برية . . لأذهبن معك »

فأجابت : « حسن جداً » وكانت تعد فى يدها أجر الحمالين ،

فقد أخرجته من كيس نقودها من قبل وهى مختفية وراء الستار ، حتى لا تغريهم رزمة الأوراق المالية التى كان أبوها قد أعطاها لها ، وقال لها : « اشترى بعض الثياب الجديدة فى شنغهاى ، واذهبى إلى المسرح واستمتعى بوقتك » . ولكن الحمالين لم ينظروا إلى النقود أو كادوا ، بل تناولوها ولفحوا المحفة الخالية على أكتافهم ومضوا فى سبيلهم .

وهتفوا : « إلى اللقاء ياسيدتى » ، وهم يحمدون ربهم أن قيّض لهم الرحيل ، ووقفت لحظة ترقبهم وهم يعدون فى خفة هابطين الممر وعاد قلبها يهتز فى صدرها . لعلها كانت حمقاء !

وسألها صوت : « هل لك ياسيدتى أن تصيبى شيئا من الطعام قبل أن تصعدى فى الجبل » ، فالتفتت ووقع نظرها على وجه امرأة نحيل أسمر فى لون الجلد ، وقد حملت فى يديها طاسا من ثريد الأرز الساخن ، كان أرزاً أسمر خشناً غير مطيَّب إلا أنه كانت تفوح منه رائحة ذكية ، وكانت مولى قد برّح بها الجوع .

فقالت : « شكراً لك » ، وأتت على الثريد ، ثم ألقت بقطعة من النقود فى الطاس الفارغ ووضعته على الأرض ، وفك الرجل الكئيب المنظر زمام مهرين قصيرين قويين وقادهما إلى الأمام ، وكان السرجان من سروج الجنود ، مرتفعين لهما شرابتان من

الحرير ، إلا أنها عندما اعتلت مقعدها على ظهر مهرها وجدت المقعد مريحاً ، وكان الرجل قد وثب إلى مهره فى وثبة واحدة ، والتفت ونظر إليها .

وقالت : « إننى متأهبة للسير » . وكانت أمها وأوركيد خليقتين آنئذ بأن يجن جنونهما لعدم إمكانهما العثور عليها ، على أنهما لم تكونا تستطيعان شيئاً ؛ فإن السفينة حرية بأن تكون قد بلغت حينذاك عرض البحر ولا سبيل إلى عودتها ، ولم يكن ثمة جهاز للاسلكى على تلك السفينة القديمة . ولذلك لم يكن فى مقدورهما أن تبرقا إلى أبيها إلا بعد أن تبلغا شنغهاى ، أى بعد يومين من ذلك الوقت ، وتكون هى قد عادت بعد يومين اللهم إلا . . .

وسألها الرجل فجأة : « مذ متى وأنت هنا ياسيدتى ؟ »

فأجابت : « منذ زمن طويل »

فقال : « آه حسبت أننى لم أرك ، ولكن لم ينقض علىّ هنا إلا سنة واحدة ، فإن الزارع القديم توفى فى الربيع الماضى »

ولكنها لم تحر جواباً .

فمضى يقول : لتجدين العرين الآن مختلفاً جد الاختلاف عما كان .. يكاد يجمع الناس كلهم على أن الأمور تغيرت كل التغير فى

عهد النمر الشاب ، على أنى لا أعلم من الأمر شيئاً . أو تعرفين النمر الشاب أم الشيخ ؟ »

فأجابت : « كليهما »

فقال فى فضول : « آ ه .. أمن أقربائهما أنت ؟ »

فأجابت : « أجل » لقد كانت تكذب ببراعة ، وقالت تحدث نفسها وهى تتلمس الأعذار : « ولكننى أمت لهما بصلة فعلا ، فقد عرفتهما طول حياتى بوجه من الوجوه »

وكانا يجتازان جسراً ضيقاً بل بلاطة من صخر من صخور الجبل الخشنة ألقى بها فوق سيل أخضر دافق ، وحبست أنفاسها . لقد كان الرجل يقول شيئاً ، إلا أن صوته ضاع فى هدير الماء ، ثم خرجت إلى الطريق المكشوف مرة أخرى فعلا صوته . « .. لقد كان من الممكن أن تسوء الحال عما كانت ، فإن النمر الشاب يعدل دائما مع أولئك الذين يعدلون معه »

وقالت بينها وبين نفسها فى استخفاف : «يعدل!» لقد رأت أباها وشيوخ المدينة يشقون فى جمع الإتاوة للنمر . بل راحت تدبر خطتها بسرعة . ولسوف تقول له فى صراحة ووضوح : « لقد جئت لأقول لك . . . »

وصاح الرجل : « ها هــــو ذا الباب » وقفز عن ظهر جواده وأخذ يقرع باباً مدعما بالحديد يقوم فى سور صخرى مرتفع وانفتح باب سرى صغير وأطل منه رأس خشن أشعث الشعر .

« من الطارق ؟ »

فأجاب الرجل : « قريبة من أقارب النمر »

فصاح الرجل الأشعث : « قريبة ؟ لم ينبئنى بذلك أحد . . . »

وقالت موللى : « لقد اجتزت مرحلة طويلة » ثم انزلقت عن ظهر جوادها ودست قطعة من النقود فى يد دليلها وقالت له : « شكراً لك ، لأخبرن ابن عمى بمسلكك الحميد معى » وقبل أن يدركا ما هى مقدمة عليه كانت قد اقتحمت طريقها مجتازة الباب الصغير .

وقالت : « قل لابن عمى إننى هنا » ، وكانت تقوم بجوار الحائط أريكة فجلست عليها .

وسألها الرجل الأشعث مشدوها : « أستحلفك باسم أمى أن تنبئينى من يكون ابن عمك هذا ؟ »

فأجابت : « وى ! إنه النمر » ، ونظرت إليه وجعلت عينيها تتألقان ومن ورائهما قلب واجف .

وحدجها الرجل بنظراته ، ثم قال : « لم ينبئنى أحد بأنك قادمة »
فأجابت : « لم يكن يعرف بقدومى أحد ، ولكن هأنذا ... »
وحملق فيها مرة أخرى ، ثم حك رأسه وهرول مبتعداً ، فبقيت وحدها . وكانت شمس الأصيل تسطع على فناء مبلط بالحجر الكبير لا تغشاها سحابة ، وقام هذا الفناء على جانب الباب الداخلى الذى مرق منه الرجل . ولم تبد بعد أية علامة من علامات الحياة . وانتظرت وقتاً طويلا ولم يعد الرجل . لقد أنجزت ما كانت قد دبرته وأصبحت وحيدة فوق قمة هذا الجبل . . جبل النمر ! لقد مضت الجياد ، إن هذا لجنون ، جنون فى جنون . وتحسست شيئاً فى صدرها ، أجل هاهو ذا المسدس الأزرق الصغير المصنوع من الصلب ، وكان أبوها قد اشتراه ذات يوم من أمريكى متجول أفلس واحتاج إلى المال . لقد دلفت إلى المكتبة فى الليلة الماضية وأخرجته من درج مكتب أبيها ، أوقد حدث هذا فى الليلة الماضية فحسب ؟ كان كل شىء يتراءى لها كأنه حلم إلا فى هذه اللحظة . وكانت تجلس على أريكة صلدة فى فناء الحصن الذى كان النمر الشيخ قد بناه لنفسه قبل أن تولد ، وقالت بينها وبين نفسها : « من أموال الشعب » . وحاولت أن تغضب ، ولكنها لم تشعر إلا بالخوف يدب فى أوصالها . وانفتح الباب الداخلى فجأة فى صرير وعاد الرجل .

« أقسم النمر بأمه أن ليست له ابنة عم » ، ثم توقف الرجل ليبتسم ابتسامة كالحة ، « ولكنه سألنى أو حسنة الطلعة أنت » ورفعت بصرها إليه فقال : « قلت له إنك بين بين ، فأمرنى بإدخالك»

ووضعت يدها فى صدرها تتحسس المسدس الصلب، ثم تبعته.

وقالت تحدث نفسها : « يجب أن أذكر أن هذه السنة هى سنة ١٩٣٧ وأننى خريجة جامعة ويلسيلى وأن . . . وأن . . .»

وكانت تجتاز فناء فى أثر فناء ، ولم يعد الأمر يبدو فى نظرها غريبا كل الغرابة ، فقد كان ثمة نساء وأطفال يحدجونها بنظراتهم وقد ارتدوا الملابس الخشنة ، نساء كالفلاحات ورجال خشنو المظهر يتفرسون فيها ، إلا أنهم كانوا من الشعب ، وقد سرها أنها ارتدت ملابس أوركيد المصنوعة من القطن ، ومضت تتبع الرجل فدخلا قاعة فسيحة خاوية ، واجتازاها وفتح هو الباب .

وقال بصوت عالٍ : « هاهى ذى » ، ثم وجدت نفسها فى الغرفة .

وكان رجل طويل القامة يجلس إلى مكتب يكتب على الآلة الكاتبة ، ورفع إليها رأسه فرأت وجه شاب وسيم جرىء .

وقال لها : « اجلسى » ، ثم قال للخادم : « انصرف »

وجلست ووضعت صرتها على الأرض بجوارها ، وأغلق الباب فجلس الشاب يحملق فيها .

ثم قال لها : « ألا خبريني لِمَ قلت إنك ابنة عمي وأنا ليس لي ابنة عم ؟ »

لقد كان هو النمر ، وكانت هي تعلم هذا . ولكن نبضات قلبها أخذت الآن تهبط إلى مستواها العادي . وبللت شفتيها الجافتين وابتسمت ، لقد كان الأمر يسيرا غاية اليسر .

وقالت : « لم أكن أتوقع أن أرى آلة كاتبة هنا »

فقال مقطبا جبينه : « لقد ألم بها خلل وحاولت إصلاحها المرة بعد المرة ، حتى كاد اليأس يدركني ويدفع بي إلى إلقائها في الهاوية ، فقد استثارت غضبي الشديد ، ولكن الحصول على الآلات الكاتبة ليس بالأمر الهين . لذلك أردت أن أجرب إصلاحها مرة أخرى »

فأجابته قائلة : « لقد ألفت أن أكتب رسائلي على آلة كاتبة في الكلية . . سألقي عليها نظرة »

ولم يتكلم . وانتصبت هي واقفة وأقبلت عليه ، وكان يرتدي حلة سوداء عادية من الصوف . وكانت يداه الملقاتان على مفاتيح الآلة الكاتبة كبيرتين جميلتي الشكل .

وقالت : « دعني أرها ، هلا نهضت عنها ... »

وقفز إلى قدميـــه ، وجلست هي تفحص الآلة الكاتبة ، واستطاعت أن ترى بطرف عينها قدميه تكتسيان بحذاء أجنبي من الجلد .

وما لبثت أن قالت : « ها هو ذا موضع الخلل ، إذ يجب أن يمر الشريط من هنا ... » وأصلحته بسرعة ، ثم راحت تكتب بسرعة أيضا عبارة إنكليزية : « لقد آن الأوان لكى يهب جميع الصالحين لنجدة الحزب »

فسألها مشدوهاً : « أتعرفين الإنكليزية ؟ »

فأجابته : « لقد كنت طالبة فى إحدى الجامعات بأمريكا ، وكنت أستخدم آلة كاتبة طول الوقت » ، ورفعت وجهها والتقت عيناها بعينيه اللتين كانتا تحملقان فيها من عل فى غبطة وسرور .

وصاح يقول : « عندى كتاب إنكليزى حاولت قراءته ، ولكننى لم أستطع فهمه ، فهل تستطيعين ؟ »

فقالت وهى تبتسم : « أستطيع ذلك طبعا »

ومد يده إلى درج وأخرج كتابا

وقال لها فى صوت آمر : « اشرحيه لى فإنه كتاب بقلم كارل ماركس »

وفكرت ثم ضحكت فى دخيلة نفسها وهى تقول : « النمور ! لماذا يخشى الناس النمور ؟ »

وكان يقول فى لهجة حزينة : « إننى أفهم المفردات الإنكليزية فى هذا الكتاب ، ولكننى لا أستطيع أن أدرك مغزاها »

فقالت : ليستغرقن شرح هذا الكتاب زمناً طويلا ، وأخشى أنى لا أستطيع أن أبق هنا مدة طويلة »

فهتف يقول : « من أنت ؟ ولماذا جئت ؟ »

فقالت : « جئت للقائك »

فسألها : «ألم يساورك الخوف ؟»

وكانت تريد أن تقول : « لم يساورنى شىء من الخوف قط » إلا أنه كان ذا وجه مليح . وكان يقف بجوارها يطل عليها ، وتنطق عيناه السوداوان بالصراحة والطيبة ، ومن ثم قالت له : « أجل . كنت خائفة » . ودست يدها فى صدرها وكانت على وشك أن تقول : « لقد جئت بهذا معى » . ولكنها لم تفعل ؛ فقد كان على كل حال ابن النمر الشيخ . وما لبثت أن غيرت رأيها وقالت : ولكننى لم أجد بدا من المجىء لغرض خاص »

فسألها . « أى غرض ؟ لم يعد ثمة ما يدعوك إلى الخوف »

فقالت : «لقد برح بى الجوع » وهنالك تبلبلت فلم تدر كيف تقول ماجاءت من أجله « لم أصب شيئا من الطعام منذ غادرت السفينة ، اللهم إلا طاسا من الأرز »

وعاد يقول . « سفينة ؟ من أنت ؟ خبرينى »

فقالت : « دعك من هذا ، فما أنا إلا بنت من بنات الشعب تقيم فى مدينة بجوار البحر »

فقال متمهلا : « إننى لم أر قط فتاة على شاكلتك ، ملابسك خشنة كأنها ملابس أمة ، ولكنك .. لست أمة ، لا لن أدعك تنصرفين حتى تخبرينى »

ونهضت ، إلا أنه مد يده فى لهجة الآمر الناهى وقال : « إن الجميع يطيعوننى »

وكانت تحس إحساساً كاملا بقبضته القوية على ثوبها ، وتنصلت منها ، فقد كانت على أية حال لا تعرفه ، ومن حسن الحظ أنها كانت تخفى المسدس ، ولكنها لم تكن تخافه ، وقالت بينها وبين نفسها : « ما هو إلا رجل »

ثم قالت : « أريد أن أغتسل ، ثم إنى جائعة »

وسألها : « وكيف أثق أنك ستفعلين ؟ »

فأجابت : « لم أخبرك بسبب مجيئى ولن أرحل قبل أن أفعل هذا » .

وابتسم ثم قال : « بديهة حاضرة » . وصفق فجاء خادم ووقف بالباب .

وصاح وهو يطل برأسه : « أجل ؟ » .

فأمره النمر بقوله : « قل لامرأتك أن توافينى هنا » ، وما انقضت

لحظة حتى أقبلت عجوز اشتعل رأسها شيبا .

فقال لها : « خذى هذه السيدة إلى الغرفتين اللتين كانت أمى تنام فيهما » ، ثم قال لموللى : لقد توفيت أمى فى العام الماضى ، وانتقل أبى إلى رواق آخر ، ستكونين هنالك فى مأمن لا يعكر صفوك شىء . لقد كانت امرأة صالحة وما زالت روحها تحل فى ذلك المكان ، وسأنتظر هنا حتى تعودى »

وعاد فجلس أمام الآلة الكاتبة ، والتقطت هى صرتها وتبعت العجوز ، وخيل إليها أنها لا تشعر البتة بأنها غريبة ، وعجبت بينها وبين نفسها أن تكون الحال كذلك ، ودفعت العجوز باباً فانفتح ، ودلفت إلى غرفة كبيرة هادئة تتصل بغرفة أخرى .

وقالت العجوز : « هاك ، هاك الغرفتين ، إنهما نظيفتان ، وأنا أتولى ذلك كل يوم ، وإنى لماضية لإحضار الماء الساخن والطعام » .

وأغلقت الباب ، ووقفت موللى وحيدة فى وسط غرفة مربعة كبيرة سقفها من الروافد ، وجدرانها من الطين المطلى بالملاط طلاء خشنا ، إلا أن الأثاث كان مصقولا وجميلا ، وستائر الفراش من الحرير الأزرق الناعم الملمس تجمعها مشابك من الذهب ، فقد كانت هذه الغرفة تخص سيدة عريقة الأصل ، وكان ثمة كتب فى خزانة تلاصق الجدار ، ومضت موللى لتنظر

إليها ، فوجدتها جميعا كتبا قديمة فى الشعر القديم وفى الفلسفة القديمة وفى التاريخ ، وكان مما يدعو إلى العجب أن تلك المرأة التى كانت تقيم هنا كانت تعرف القراءة ، إن أمها نفسها لم تكن لتستطيع قراءة كتب كهذه ، وقالت بينها وبين نفسها : « ترى من كانت هذه السيدة ؟ » ، ثم أردفت : « ومن أى طراز من الرجال يكون ابنها ؟ »

واستبد بها الشوق فجأة إلى العودة لتكون معه ، لقد كانت تريد أن تعرفه ، وأن تتبين حقيقة أمره ، وشرعت فى فك الملابس الخشنة التى كانت ترتديها ، وقالت تناجى نفسها بسرعة : « سأرتدى ملابسى الخاصة » ، فقد كانت تريد أن يراها على حقيقتها ، وقالت بينها وبين نفسها : « يجب أن أبدو له على حقيقتى »

وراح النمر يقول فى جد : « إنك لترين الآن حاجتى إلى التزود بالمال »

لقد انتصف نهار اليوم التالى أو كاد ولكنها كانت قد فقدت كل إحساس بمرور الوقت . ذلك أنهما ظلا يتحدثان الليلة الماضية حتى قال هو نفسه : « يجب أن تمضى الآن إلى الغرفتين المعدتين لك حتى لا يتقول عليك هؤلاء القوم الغلاظ القلوب ، لقد أمرت تلك العجوز أن تنام بالقرب منك وتتولى خدمتك . لقد كانت جارية أمى ، وأرادت أمى لها السعادة فزوجتها بزارع من الوادى .

ولكنها لم تنعم بالسعادة فى أثناء إقامتها هناك فعادت وجاءت معها بزوجها ليخدم أبى »

ولكنها لم تنم إلا قبيل الفجر ، ذلك أن العجوز بدأت تتكلم وتحدثها بكل شيء .

فأنشأت تقول ، وهى تستوى على مقعد بجوار السرير بعد أن غطت كتفى مولى باللحاف الحريرى : « ليتك رأيت كيف كانت الأحوال فى الأيام الخوالى ، كانت تلك الأيام أيام مجد وسؤدد ، فقد كان رجال النمر الشيخ يهبطون كل يوم إلى المدن القائمة بجوار البحر ويعودون بأحمال من كل ما يستطيعون حمله .. منسوجات من الحرير ومجوهرات وثياب من كل نوع وأثاث نفيس وفرش وكل ما نحتاج إليه ، أجل لقد كان الجميع يخشون النمر وقتئذ ، وكنا نعيش كالملوك والأباطرة »

وسألتها موللى فى هدوء :

« أليست الحال كذلك الآن ؟ » وتذكرت للمرة الأولى فى ذلك المساء أباها وشيوخ المدينة العجائز وهم يجمعون إتاوة النمر ، وهزت المرأة العجوز رأسها .

وهمست تقول : « إن النمر الشاب يقرأ الكتب ، وليس هذا خليقاً بسيد من سادة الحروب ، وإنما يجب عليه أن يمتشق الحسام ويشهر السلاح ، ويطلق يد السلب والنهب فى المدن ، وهذا

ما ينبغي له » ، ومالت إلى الأمام لتقول فى صوت أكثر همساً :
« إن الغلطة غلطة أمه فهى التى علمته القراءة ، أما النمر الشيخ فلم يكن يعرف القراءة »

وسألتها مولى هامسة : « ومن كانت أمه ؟ »

فأجابتها العجوز : « لا ندرى . إنها سيدة من مدينة ما ، سيدة رآها النمر الشيخ فأحبها . لقد كانت فتاة صغيرة عندما جاء بها إلى هنا ، ولم تكن تفعل شيئاً إلا أن تبكى حتى رزقت بابنها ، مع أن النمر الشيخ كان يعطيها كل شىء . وكان يقول لرجاله
«ابحثوا عن اليشب وعن اللآلىء صيغت فى حلى للشعر» ، ثم يقول : « ائتوا لها بالكتب معكم » وإنك لترين كل هذه الكتب ، وقد امتلأت بها غرف أخرى غير ما ترين ، على أنها لم تكف عن البكاء حتى ولدت ابنها ، وهنالك كفت عن البكاء . بيد أنها لم تخط قط خارج هذا الباب ، ولم تسأل أبداً شيئاً من إنسان ، وكنت إذا شرعت أقص عليها أنباء غارة عظيمة وأحدثها بكل ما غنمه الرجال منها وضعت يديها على أذنيها ، فتعلمت ألا أقول لها شيئاً ، وقد شب النمر الشاب على نهجها ، ولم ينشأ كأبيه »

ثم تنهدت ، وأنشأت تقول وهى متكئة بمرفقيها على الفراش :
« وى ، لقد كانوا فى الأيام الخوالى . . . » ، وراحت مولى

تنصت ، ورأت الأيام الخوالى تتكشف أمامها وسمعت أشياء لم تحلم قط بسماعها . رأت مطالع أيام صاخبة عظيمة وموائد إفطار ضخمة تقام قبل المعركة ، ورأت مئات من الرجال يهبطون جانب التل مسرعين مارين بالمشاعل المتأججة المرفوعة عند الممر يموجون منحدرين إلى الوادى محتشدين للقتال ، ثم يقتحمون أبواب المدينة وهم يضحكون ، تهز أعطافهم الخمر وتثقل كواهلهم الغنائم .

وقاطعت موللى العجوز قائلة : « وهل ذهب النمر الشاب معهم مرة ؟ »

فأجابتها العجوز : « مرة ، أجل مرة واحدة .. ثم بكت أمه بكاء مراً حتى لم يسمح له النمر الشيخ بمرافقتهم مرة أخرى »

« أولا يذهب الآن قط ؟ »

فأجابت العجوز فى لهجة تنم عن الاستخفاف والازدراء : « الآن ! لم تكن ثمة غارات حقيقية فى هذه السنوات العشر الأخيرة ، فقد أدمن النمر الشيخ الأفيون للتخفيف من ألم أصاب كبده ، وهو يستلقى فى الفراش نائماً طول الوقت ؛ إننا نعيش اليوم على ضرائب نفرضها على الناس ، شأننا شأن الحكام ، ولم نعد لصوصاً شرفاء نأخذ من الأغنياء وحدهم ونعتق الفقراء »

ورقدت موللى تحدج العجوز بنظراتها ، لقد كانت هذه البقعة ..

هذه البقعة أيضاً وطنها ، وتبدت لها أمريكا بعيدة غاية البعد .
ترى هل أقامت فى أمريكا يوما ؟ ألم يكن هذا كله حلما ؟ أجل لقد
كان يبدو لها كل شىء حلما فيما عدا هذا المكان الذى تمثل فيه الآن .
ثم استسلمت للكرى والعجوز ماضية فى حديثها ، وحلمت بأنها
سجينة فى هذه الغرفة ، ومع ذلك فلم يكن ثمة شىء بعد يقيد حريتها ،
لقد كانت حرة فى أن تخرج من الغرفة إذ كان بابها مفتوحاً ،
إلا أنها عندما مضت إليه لم تستطع أن تأتى بحركة ، واستيقظت
وهى تتصبب عرقاً من الخوف . كان الصبح قد انبلج والفراش
دافئاً وثيراً كفراشها ، على أن أشعة الشمس الآتية من الجبل
منسابة من النافذة كانت أشد تألقا من أية أشعة للشمس وقع عليها
نظرها ، وفتح الباب ودخلت العجوز تحمل حوضا من النحاس
مليئا بالماء الساخن وآنية من الشاى .

وأنشأت العجوز تقول : « سيدى الصغير يقول لك هلا
تتناولين الإفطار معه ... »

وقفزت موللى من الفراش ، لقد كانت فى أمان وسلام
ولم يكن الشر إلا حلما .

وتحدثا فى كل أمر من الأمور ، أجل فقد كانا يريدان الحديث
فى كل شىء فى آن ، كأنما كانا يقفزان معا فوق قمم الجبال ،

ولسوف يعودان يوما إلى هذا كله ، ويكتشفان كل وادٍ من الأودية ، أما الآن فلابد أن يعرف كل منهما عن الآخر كل شيء ، ومن ثم راح كل يوجه إلى أخيه أسئلة عريضة شاملة ويتلقى الإجابة فى نهم وسرعة وهو يحدق النظر فى صاحبه .

وقال : « لم أر فتاة مثلك قط »

وكانا قد فرغا من تناول الإفطار وراحا يتحدثان فى فناء من الأفنية تسطع عليه الشمس .

« خبرينى كيف تعرفين الإنكليزية كأنك من بناتها ، وقولى لى ... »

وسألته : « كيف أنت على ما أنت عليه الآن ؟ ومن كانت أمك ولم تبق هنا ؟ أو تعلم ... »

وقص كل منهما على الآخر كل شيء ، وتناولا طعام الغداء وراحا يتحدثان ، وغربت الشمس وأصبح هواء الجبل بارداً فتناولا عشاءهما ومضيا إلى المكتبة وجلسا يتحدثان ويتحدثان ، وقالت له كيف كرهت المعبد وسئمت البطالة واشتاقت أن تؤدى أى عمل ، ولكنها احتارت أى عمل تختار ؟ وكيف تمنت ألا تزورها مارى لين لأنها كانت تخجل من أشياء كثيرة ، حتى من أمها — قليلا — ومن أبيها الذى لم يكن يفعل شيئا إلا أن يأكل وينام .

وقال : « كثيراً ما فكرت أنا أيضاً فى أن أفعل شيئاً ! فقد سئمت هذا الحصن القديم كل السأم ، ويخلو أبى إلى الرقاد بين اليقظة والمنام طول يومه فقد طعن فى السن » .

وتقدم بهما الليل فافترقا ، وانقضى اليوم الثانى كاليوم الأول ، ونسيت أنها فى الحصن أو أنه هو النمر .

وفى تلك الليلة الثانية قالت بينها وبين نفسها ، والفزع يتملكها : « يجب أن أعود ! » يومان ! لا شك أن أمها ستبرق إلى أبيها ، فخليق بها أن ترحل فى صبيحة اليوم التالى .

ولكن كان من العسير أن ترحل ، فقد أخذ النمر الشاب بيدها وتوسل إليها ألا ترحل . لقد كان مستبداً معها غاية الاستبداد فى أول الأمر ، كدأبه مع كل إنسان ، ولكنه لم يعد كذلك ، فقد اتسمت نظراته الجريئة باللطف الآن ، ولم تر إلا الطيبة على وجهه ، لا يشوبها تشامخ أو كبر .

وتوسل إليها قائلا : « لا ترحلى فلا يزال أمامنا كثير جداً من الحديث لم يدل به كل منا إلى صاحبه ، ثم إننى لم أرك الجبل بعد »

فأجابته : « يجب ، أجل يجب أن أرحل ، فإن أبى سيقلب المدينة غداً رأساً على عقب باحثاً عنى »

ونظر كل منهما إلى الآخر نظرات تجيش بالألم والشوق ،

وكانا قد بلغا الباب الآن ، وقد وقف جواده الخاص بالباب ليحملها ، ووقف رجل ليقودها إلى سفوح التلال حيث كانت تنتظرها محفة ، ووقفت هى وقد امتلأت جوانحها بالتبرم والثورة ، وعاودها الشعور بالحلم ، لقد كانت حرة ترحل حين تشاء ، ولكن أمراً ما كان يعجزها عن الرحيل .

وهمس قائلا : « متى وكيف نلتقى ؟ » .

وكان الدليل يرمقهما خلسة ، يراود الابتسام جفونه المرتخية ، فجذبت يدها من يده .

وقالت له : « تستطيع . . تستطيع أن تغير على المدينة ! »

وضحكت وهى تقول هذا ، ولكنه لم يضحك ، بل وقف ينظر إليها وعلى وجهه أمارات الجد ، فلما امتطت صهوة جواده التفتت ، وكان هو لا يزال ينظر إليها .

وتمثلت هذين اليومين العجيبين وهى تجتاز الطريق كله هابطة التلال مجتازة السهول . كان قد مضى عليها منذ تركت السفينة وتركت أمها وأوركيد صباحان فحسب ، إلا أن العالم كله تغير فى هذه الساعات ، إنها لم تر قط رجلا على شاكلته ، فقد كان أبناء عمومتها ، أولئك الشبان الذين يقيمون فى شنغهاى ، ضعافا مهازيل إذا قورنوا بهذا القوام الممشوق القوى الذى خلفته وراءها فوق أعالى

الجبال ، ويالكل تلك الأحاديث البارعة التى تبادلاها وذلك الفيض الذى تحدر من عقليهما الذكيين الأريبين ! وقالت بينها وبين نفسها : « ليس له بين الرجال نظير ولا ضريب » ، صحيح أنه كان ابناً من عامة أرباب الحروب ، ولكنها لم تستطع أن تنساه قط .

وكانت أشعة الشمس تنساب فوق المناظر الطبيعية الخلابة وفوق القرى والقنوات المتألقة والحقول الخضر الخصيبة ، وشعرت للمرة الأولى بأن هذا الجمال الذى يحيط بها إنما هو ملك لها ، ذلك أن هذه الأراضى كانت ملكا للنمر . لقد ظلوا سنوات يؤدون له الجزية ، وكانت هى أيضاً — أو قل أباها — تؤدى له الجزية ، وقالت بينها وبين نفسها فى شىء من الخجل : « إننا جميعا من رعاياه ، وكأنما هو ملك علينا »

وإنما تذكرت فجأة وهى على باب دارها أنها نسيت المسدس الصغير . إنه لا يزال على المنضدة فى الغرفة التى فى أعلى الجبل حيث نامت الليلة الماضية ، ثم ضحكت ؛ فقد نسيت شيئا آخر ، نسيت أن تنبئه بسبب مجيئها .

وراح البواب العجوز فى فناء منزلها يفرك عينيه بمفاصل يده .

وهتف قائلا : « أتكون هذه هى السيدة الصغيرة ؟ »

وأجابته فى هدوء : « أجل ، هى بعينها »

فصاح : « ولكنك على ظهر السفينة فى عرض البحر ! »

وأجابته بقولها : « ولكن هأنذا ماثلة أمامك ، أين أبى ؟ »

فقال الشيخ : « إنه لذاهل ، وهو فى المكتبة يقضم أظافره ، وقد قدمنا له الطعام ولكنه عازف عنه . ولسنا ندرى ماخطبه » .

آه ، لقد سمع إذن أنها فرت .

وقالت : « لأمضين إليه »

واجتازت الفناء الداخلى مسرعة وفتحت باب المكتبة فى رقة ولطف ، وكان أبوها يجلس إلى المنضدة يحصى كوما من الريالات الفضية ، وقد بدا وجهه المكتنز شاحبا منهوكا ، وتدلى لحمه المتقع طيات .

وقالت مترفقة حتى لا تزعجه : « أبتاه ! » ، ولكنه جفل ، وتطلع إليها بوجه بدا كالشمع فى أشعة الشمس الحارقة .

وصاح يقول : « مالى ! أنت ! أين أمك ؟ »

كلا إنه لم يسمع بفرارها ، لقد كان ثمة شىء آخر يزعجه .

فأجابت : « إنها على ظهر السفينة » ثم دخلت الغرفة وأغلقت الباب وأسندت ظهرها إليه ، وأردفت : « إنى لم أرحل » .

فسألها : « أين كنت ؟ » .

وفى تلك اللحظة شعرت للمرة الأولى بأن ما فعلته كان شيئا مستحيلا ينكره العقل ، وما كان لأبيها أن يصدقها قط ، فقد تبدى لها الآن للمرة الأولى أنها قد مضت إلى دار شاب ، بل دار شاب غريب ، وكان هذا وحده لا يقبل التعليل . وإنها لخليقة بأن ترمى بالجنون إذا قالت إنها ذهبت إلى جبل النمر ، فاكتفت بهز رأسها .

وكرر أبوها عليها القول : « أين كنت ؟ »

فأجابت ببساطة : « لا أستطيع أن أخبرك يا أبت »

فحدق فيها النظر بعينين مثقلتين ، وقال فى بطء : « كأنما المتاعب التى أعانيها لا تكفينى .. أجل كأنما المتاعب التى أعانيها لا تكفينى .. اليابانيون .. وأمك .. كيف أخطب لك شاباً محترماً ؟ لقد طلبت منى أمك قبل أن ترحل أن أدبر أمر زواجك قائلة : « دبّر أمر زواجها فالفتيات يجب أن يتزوجن فى زمن الحروب » ، وهكذا قالت كأنما غاب عنها أننى مكره على جمع كل ما أملك لتقديمه إلى ذلك اللص ! ولكن من ذا الذى يرضى أن يتزوجك بأى ثمن كان ؟ وكيف أجد من المال ما يكفى لحمله على زواجك ؟ » ، ثم صاح فى صوت كالهدير : « أين كنت هاتين الليلتين ؟ » ، وضرب المنضدة بقبضة يده فاهتزت أكوام الريالات الفضية وسقطت على الأرض ، وراحت تلمع فى ضوء الشمس .

كلا ! إنها لا تستطيع أن تبرر له أى شيء .

وقالت له : « ما من حاجة تدعوك إلى أن تختار لى زوجا » .

فأجابها فى استكانة : « لا تكونى حمقاء ، فهذا واجبى ، ثم إننى إذا أمسكت عن ذلك فكيف يتاح لك مجال الزواج ؟ »

فقالت وهى تلهث : « لأتزوجن » .

فقال لها وهو ينخر : « زيجة من تلك الزيجات الجديدة التى تقوم على الحب ! كلا ، لن تتزوجى على هذه الصورة ، بل سأختار لك زوجا بنفسى اختياراً يقوم على الحشمة والوقار ، كما اختار لى والداى زوجتى » .

ومضت إلى المنضدة ونظرت من علٍ فى وجهه الغاضب .

ثم همست : « ولكننى اخترت زوجى » ، وكانت قد اخترته فى تلك اللحظة ، وقبل أن يتفوه أبوها بلفظ كانت قد التفتت وهرولت خارجة من الغرفة بل من الدار واجتازت الأفنية إلى الباب .

وصاحت تقول للبواب العجوز : « أين المحفة ؟ »

« لقد رحلوا من ذلك الطريق » ، وأشار بذقنه إلى الشارع المتجه إلى الجبل بعيداً عن البحر ، « إننى لم أر قط مثل هؤلاء

الرجال فظاظة وغلظة ، ذلك أنهم لم ينطقوا بحرف عن القرية التى جاءوا منها أو اسم العشيرة التى ينتمون إليها »

ولكنها لم تكن تنصت إليه ، فقد كانت تسرع مصعدة فى الشارع ، وكان ثمة مشرب للشاى بالقرب من طرف المدينة ، لعلهم ألموا به يشربون الشاى أو يتبلغون بلقمة قبل أن يعودوا إلى ديارهم .

لقد كانوا فى مشرب الشاى بالفعل وعلى فم كل منهم طاس من الشعرية ، وراح القوم يتفرسون فيها ولكنها لم تحفل بذلك ، ومضت إليهم .

وقالت فى صوت خفيض : « إنى على استعداد للعودة الآن ».

فهبوا على أقدامهم وتبعوها فى الحال ، دون أن يتملكهم شىء من الدهشة ، كأنما كانوا ينتظرونها ، وما انقضت لحظة حتى كانت تتأرجح على أكتافهم فى الطريق الريفى عائدة إلى الجبل .

وقالت بينها وبين نفسها ورأسها يدور : « إننى ذاهبة أنحاز إلى قطاع الطرق » كلا ! لم تكن هذه هى حالها ، بل كانت عائدة إليه هو .

كانت فى طريقها إليه ، وقد أسدل الليل ستاره أو كاد عندما بلغت أبواب الحصن ، وألفت هذه الأبواب مفتوحة كأنما كان

القوم فى انتظارها . وكانت المشاعل تتأجج فى تجويف عيدان الخيزران التى غرست فى الأرض ، والأفنية تفيض بالضوء ، وكانت تفوح فى الجو رائحة اللحوم المشوية الطيبة . لقد كانت جائعة .. أجل جائعة متعبة ، ومضت رأسا إلى الغرفة التى كانت تعلم أنه فيها ، إلا أنه سمع وقع أقدامها ففتح الباب وأقبل نحوها .

وقال : « ها أنت ذى قد عدت ، لقد أمرتهم بألا يبرحوا المدينة دونك »

فغمغمت : « أمرتهم ؟ »

وقال : « كلبن عليهم أن ينتظروا حتى يرخى الليل سدوله ، فإذا أبيت العودة باختيارك فقد حق عليهم أن يبحثوا عنك ويعيدوك إلىّ »

فهمست تقول : أختطف ! لقد كنت عازما على أن تخطفنى !»

وقال لها : « انظرى » ; وقادها إلى نافذة ، فرأت على بعد بعيد دونهما الناحية وقد أخذ الظلام يغشاها ، إلا أنه قد ألم ببقعة معلومة منها حشد عظيم من أضواء صغيرة تتحرك صوب الجبل .

ثم أردف : « هذا هو جيشى ، ولو أنك لم تعودى قبل حلول الليل لأشعلت النيران على قمة الجبل ومضى الجيش إلى دارك وجاء بك إلىّ »

فهتفت وقد أذهلها ما أقدمت عليه : « لقـد اختطفت نفسى إكراما لك »

وابتسم لها ولم يحر جوابا .

فمضت تقول مستأنية : « أظن أننى مسرورة لأننى جئت من تلقاء نفسى »

فأجابها قائلا : « لقد كنت آتية على كل حال ، فقد دبرت ذلك قبل رحيلك »

وتبينت فى اليـوم التالى أنه كان قد أعـد للأمر عدته ، واستغرقت فى النوم فى غرفتها حتى شعرت بأنها لا تستطيع أن تستيقظ أبداً ، إلا أن العجوز أقبلت فى صبيحة اليوم التالى وراحت تهزها حتى استيقظت .

وكانت تقول : « زوجك يأمرك ، زوجك ... »

زوجها ! إن هؤلاء القوم يتحدثون كأنما قضى الأمر ، إلا أنها استيقظت على رنين هذه الكلمات ، ونهضت من فراشها فى لطف ودعة واغتسلت ثم ارتدت ملابسها .

وقالت العجوز : « عليـك بالانتظار فى القاعة الكبرى » وانتظرت مولى فى القاعة الكبرى ، وأحست بشىء من البرد فقد كانت حرارة الشمس لم تشتد بعد ، وكانت القاعة فسيحة الأرجاء

مرصوفة بالحجر ، ثم جاءت خادم بالطعام ، فأكلت فى نهم . وأقبل هو متكلفا أعظم التكلف ، وسيما يرتدى ثيابا مسترسلة من الأطلس الأزرق المطرز بالقصب ، ولم تكن رأته من قبل يرتدى ثيابا كهذه فانتابها الخوف لحظة . ما هذا الذى تقدم عليه وهى ، هى موللى تشو خريجة جامعة ويلسيلى ، التى نشأت نشأة أمريكيه — وهو ابن لص — أو قل رجلا من رجال القرون الوسطى .

وأنشأ يقول فى لهجة جافة : « أما وإن خطبتنا ستعقد رسميا بعد ظهر اليوم ... »

وصاحت فى عنف بالغ : « لا أريد . . أجل إنى لأعتقد أننى لا أريد الزواج بك ، أعتقد أننى ... أننى أريد العودة إلى ديارى» .

ونظر إليها !

وقال فى ثبات : « لا تستطيعين ذلك ، فأنا صاحب الكلمة » ، وكان يشوب صوته رنين أبواب تفتح فى صرير ثم تغلق ، ولو أنها هربت الآن لما وجدت جواداً فى انتظارها ولا محفة معدة لحملها . كانت قد اختطفت حقا !

ومضى يقول : « لقد عدت إلىّ بالأمس باختيارك ولكننى عليم بطبائع النساء ، وإنى لمستعد اليوم للاحتفاظ بك شئت أو لم تشائى » . ثم صفق فدخل الخادم العجوز وأمره قائلا : « أبلغ

أبى أننا سنمثل فى حضرته حالا ، ودعهم يعدون وليمة الخطبة عند الظهر » ، ثم انحنى لموللى وقال : « اليوم خطبتنا وغداً حفل زواجنا » .

وهمست تقول : « كلا . . كلا . . إن فى هذا تسرعا شديدا — ولست واثقة »

وتراءى لها منزلها ، وأبوها وأمها ، والغرف التى كانت تلعب فيها وتنام ، والجامعة والفتيات الأمريكيات ومارى لين . إن مارى لن تصدق هذا كله أبداً ، فإن ذلك لا يمكن أن يحدث إلا فى الصين ، وهتفت قائلة : كلا ! كلا ! »

والتفت هو إلى الخادم قائلا : « لقد عرفت أوامرى » ، فانحنى الخادم وانصرف .

وأمرها باللهجة نفسها تماما قائلا : « تعالى معى » فأطاعته وهى لا تدرى ما يمكن أن تفعل بعد ، وما انقضت بضع لحظات حتى كانت تقف بجواره أمام رجل عجوز واهن ، يجلس فى كرسى ضخم منقوش وقد التف بجلود النمور ، وكان رأسه كبيراً ضامراً ، وقد برزت من جلده كل عظمة من عظام الجمجمة ، وتهدل على الفم الجميل الذى ينطق بالضجر شارب أشيب طويل عريض ، وعلت

هذا الفم عينان برمتان تشتعلان من خلال غشاوة خابية ، وكان هذا هو النمر الشيخ .

وأمرها ابن النمر الشيخ هاتفاً : « انحنى لأبينا » ، فانحنت !

وهكذا تزوجته ، وانقضى هذان اليومان العجيبان .. يوما الخطبة والزواج ، أجل انقضيا فى غمرة من الضجيج والولائم الصاخبة والألعاب النارية والمشاعل المتأججة والصواريخ ، وضحكت المرأة العجوز وهى تضع نقاب العروس على رأسها .

وصاحت : « ترى ماذا يظن أهل الوادى فى ذلك ؟ لسوف يرون النيران ويسمعون الضجيج فينتفضون فى أسرتهم . إن الرجال يبتهلون إلى النمر أن يسمح لهم بغزو أية بلدة للتسلية واللهو . لقد أفرطوا فى الأكل والشرب حتى جن جنونهم أو كادوا »

أهل الوادى ! إن أباها من أهل الوادى ، وقد جاءت هى إلى هنا لتدافع عن أبيها ، وتنبىء النمر حانقة غاضبة برأيها فى سادة الحروب قطاع الطرق الذين يعيثون فى الأرض فساداً فى هذه الأيام وهذا العصر ، ولكنها بدلا من أن تفعل هذا . . .

وقالت العجوز فى خفة : « إنك الآن جميلة » ، ثم استرسلت : « آه ما أعظم سعادتنا ! لقد كنا نريد له منذ سنوات أن يتزوج ، ولكنه عنيد صلب الرأى ، فقد أصر على أن يختار عروسه بنفسه .

لقد كانت تريده لنفسها مائة امرأة ، بل إن نصف النساء اللواتى كن يقعن فى أسرنا كن يأبين مغادرة الجبل حتى يحملهن هو على الرحيل »

واستبدت بمولى الرغبة فى أن تمزق النقاب الذى يعلو رأسها .

ومضت العجوز فى حديثها تقول فى صوت ضاحك : « ولكنه عندما أرسل رجاله وراءك فرحنا جميعاً ، فلم نر منه أنه يحفل بأية امرأة وسيان عنده أن تعيش أو تموت »

أجل ، لقد أرسل رجاله وراءها ، ولو أنها لم تعد بمحض اختيارها لأكرهها على العودة إليه . وأحكمت وضع التاج ذى النقاب المرصع بالخرز على رأسها .

وجثت العجوز لتسوى طيات النقبة المزركشة التى ارتدتها أم النمر يوماً فى حفلة زفافها ، ومضت تقول : « إن رجلا على شاكلة النمر الشاب يحتاج إلى زوجة شابة » ، وكان زنار الوسط الموشى ضيقاً عليها فاضطروا إلى نقل الأزرار من مواضعها قبل أن تستطيع ارتداءه ، « أما وقد رجعت الآن فلعل عزمه يصح على العودة إلى القتال ، كما ينبغى له ، ليسترد ما فقد فى شمالى الجبل ، فقد استولى الذئب الأزرق على تلك البقعة »

وقالت مولى : « لم أسمع بهذا قط »

وقالت العجوز فى إهمال : « ما كنت لتسمعى ، فالجميع يقولون

إن الذئب الأزرق لا يعد شيئاً بين سادة الحروب . أجل ليس شيئاً على الإطلاق ، وإنما زوجته هي التي تحركه حقاً ، إنها امرأة عجيبة كما يقول الناس جميعاً، أجل إنها في الحق هي التي ... ها أنت ذى قد تمت زينتك »

وكانت مولّلى قد نسيت ثرثرة العجوز ، وتمت زينتها وتأهبت للزفاف ، فخرجت وشربت الخمر ممزوجة بخمره أمام الجيش المحتشد ، وجثت بجواره مصلية لمعبودات أسرته !

وكانت قد سمعت منذ أقل من عام صوت مدير كلية من الكليات الأمريكية يقول لها وهي واقفة تتسلم درجتها الجامعية :

« أى مالى تشو ، إنه ليسرنى بوجه خاص أن أمنحك درجة البكالوريوس في الآداب ، مدركا أن ذلك يتيح لك في بلادك فرصة لا نظير لها لإشاعة نور الحضارة والعلوم والثقافة الحديثة ، وقل من النساء من تتاح لهن مثل هذه الفرصة العظيمة في أيامنا هذه »

وها هي ذى الآن تجثو أمام هذه الأصنام العتيقة من الصلصال على مسيرة عشرة آلاف ميل من كليتها فوق قمة جبل موحش في حضرة عصابة يتزعمها لص . لقد انتهى كل شيء ، انتهى انتهاءً لا رجعة فيه ، فقد شربت الخمر ممزوجة بخمره وأكلت الأرز من طاسه .

وسألته قاصدة إثارته وهى تعرف الجواب حق المعرفة :
« من هو الذئب الأزرق ؟ » .

لقد انقضى على زواجهما أربعة أيام .. أربعة أيام هنيئة طويلة مشرقة . وكان الحصن يربض فى هدوء شامل تكسوه غمرة من أشعة الشمس الصافية تشرق على أودية غشيها الضباب . وكانت حشود الرجال قد رحلت ، ولم تسأل موللى إلى أين رحلوا ، ذلك أنها لم تكن تريد أن تعرف ! أجل لم تكن تريد أن تعرف بعد . لقد أقصت عن مخيلتها كل خاطر ، إلا اللحظات التى قضتها فى هذه الأيام وحيدة معه . لقد كان أبوها وأمها اللذان يجب أن تفكر فيهما يقيمان تحت هذا الضباب الذى يغشى الوادى ، ولسوف تقطع أمها رحلتها وتعود إلى دارها باكية مولولة ، ويتملك الذهول أباها فلا يدرى أحقا رآها أم أنه رأى شبحا من الأشباح ، ولسوف يستبد بهما الحزن ، ولابد لها أن تنبئهما بكل شيء ، ولكن لم يحن أوان ذلك بعد ، فإن هذا الرجل الذى تزوجته كان عجيبة من الأعاجيب وحلما من الأحلام ، بل شريفا من أشراف القرون الوسطى وشابا فى مثل سنها . وقالت بينها وبين نفسها إنها سوف تغير من طباعه ، فتجرده من هذه الثقة بالنفس التى يشمخ بها ويتكبر ، وتصوغها بما يلائم الزمن ، ولكن لا مناص لها أولا من أن تكشف عن دخيلة نفسه وأن تنصت إليه وترقبه وتحمله

على أن يفيض بكل ما امتلأت به نفسه من خطط عظيمة رسمها غير آبه كأنما لم تكن ثمة حكومة ولا حكام فى البلاد . لقد كان يفكر فى التوسع فى رقعة المملكة التى يحكمها توسعا بسيطا ، تلك المملكة التى كان أهلها يؤدون له الجزية .

وقال : « لأجندن جيشا كبيراً ، أجل جيشا من الشبان يدربون وفق جميع النظم التى سمعت بها ، ويتزودون بالطائرات والمدافع ... » ، وكان قد أخرج من بين كتبه كتاباً يتحدث عن صنع طائرات من قاذفات القنابل وكتاباً آخر يعالج المدفع الحديث .

وقالت له موللى فى لهجة عنيفة : « إنى أكره الحروب »

وفتح عينيه وسألها : « ثم ماذا ؟ »

فقالت : « يجب أن تفعل شيئاً من أجل الشعب ، فتنشىء المدارس مثلا »

ولكنه كان قد فكر فى المدارس ، فقال : « مدارس شعبية » .

وألح عليها أن تحدثه عن المدارس الأمريكية والمدارس الروسية ، وكأنما كانت تحادث شاباً أمريكياً ، ابن رجل ثرى انقلب فأصبح اشتراكيا ، وهو من أبيه بمثابة ضميره الحى . ثم ناداه أحدهم فمضى وعاد بعد ساعة تلوح عليه أمارات الشر .

وصاح قائلا : « لأقاتلن ذلك الذئب الأزرق ، فقد سرق قرية

أخرى جنونى الجبل ، لقد جربت المسالمة فلم تأت بطائل ، لأقاتلنه وأقطع رأسه بسيفى » .

كانا عندئذ فى غرفته ، وهى غرفة كبيرة مربعة مليئة بالكتب ، فيها سريره الضخم وكرسيه المنقوش وخزانته المنقوشة ، وكان يعبث فى صندوق كبير من خشب الكافور . وأخرج من أعماقه سيفا قديما كبيراً منقوشا ، ثم استله من غمده . كان قد تغير تغيراً كبيراً فاربدت سحنته اربداداً حتى خالت أنها لم تعرف هذه السحنة من قبل قط .

وقالت : « لقد كنت تتحدث منذ بضع دقائق فقط عن مدارس تقيمها للشعب »

فأجابها فى تجهم : « لأعلمنهم فى هذه المدارس أكثر مما يجدونه فى الكتب ، لأعلمنهم القتال »

ثم مضى ، وأغلق من ورائه الباب الخشبى الكبير فى قوة أطارت الغبار من شقوقه ، وجلست هى ساكنة لا تريم ، وقد أذهلتها نظراته القاسية وكلماته الخشنة ، ترى ماذا يكون هذا الرجل الذى تزوجته فى حماقة شديدة وسرعة كبيرة ؟

وغدا الحصن كمستشفى للأمراض العقلية ، ارتفع فيه الصخب وعلا الصياح ، وازدحم برجال خشنى المظهر غلاظ القلوب تلوح

عليهم أمارات الوحشية ، لهم عيون جريئة وشعر مسترسل أشعث ، ترى من أين جاءوا ؟ لقد كانوا يتدفقون مصعدين فى الجبل . فلما أطلت مولى من النافذة وجدتهم يتسلقون الممرات الصخرية الضيقة كأنهم الماعز ، يقفزون فى مهارة ماضين فى ارتقائهم الجبل . وشاع فى الجو طنين مطارق الحدادين تهوى على السندانات ، ورائحة الجلد الغفل ، وصهيل الجياد .

وأمرها النمر قائلا : « الزمى غرفتك » ، وأطاعته أول الأمر ، وأطلت من نافذتها على الأفنية المليئة بالحركة ، وخرج النمر الشيخ من سباته ووقف ممسكا عصاه الطويلة التى صيغ رأسها على هيئة التنين ، ولحيته البيضاء تتطاير فى الهواء ، وظل يصيح مسديا إليهم النصح بصوته الضعيف الواهن .

وصاح بهم : « فلتبلغوا بالتراجع ما تبلغه المرأة بمروحتها ! اخدعوا عدوكم بالتراجع حتى يتقدم إلى الموضع الذى اخترتموه للقتال ! »

وانطلق من حناجر الرجال هدير ، وراحوا يصيحون فى لهجة تنم عن الود : « أجل ، أجل ، أيها النمر الشيخ » .

وشجعه هذا على أن يمضى فى صياحه قائلا : « إن المعتدين ليسوا هم الذين يفوزون آخر الأمر ! » ، ثم تريث وجمع أنفاسه

مرة أخرى ، وقال : « تراجعوا وقفوا وتخيروا الوقت الملائم ، ثم اضربوا ! »

وصاحوا وهم به معجبون : « أجل ، أجل ، أيها النمر الشيخ ! » .

ولكن النمر الشاب لم يضيع وقته فى الصياح ، بل مضى إلى مكتبته يدبر الخطط ، وكانت على مكتبه خريطة ضخمة للجبل والمنطقة التى تكتنفه . وتسللت موللى إلى الغرفة فوجدته مكبا على الخريطة يرسم خطوطا سوداء ثابتة على طول الطرق ودوائر حول المدن ، وسمع وقع أقدامها فرفع رأسه .

وأشار بإصبعه إلى بقعة وقال : « سأكون فى هذا الموضع بعد شهر من اليوم ، فإن هذا هو معسكر الذئب الأزرق »

ونظرت فى عينيه ، ولم يكن يدرى أنها فى الغرفة ، ذلك أنه لم يفكر فيها ساعات بطولها ، وسرى إلى قلبها شعور بالمرارة والغضب سريعا دافقا .

وسألته : « وماذا يكون من أمرى أنا ؟ »

فأجابها : « ماذا تعنين بقولك هذا ؟ »

« أين أكون ؟ »

فأجابها وقد تملكته الدهشة : « حيث أنت الآن فى الدار تنتظرين أوبتى »

فقالت فى عجلة : « كلا ، كلا لن أكون فى الدار ، إنك مخطىء ، فلن أكون هنا حين تعود »

وخرجت مهرولة من الغرفة واندفعت إلى غرفتها وارتمت على فراشها تبكى من صميم قلبها ، وهى لا تدرى لبكائها سببا إلا أنه سيتركها .

ودخل الغرفة بعد لحظة ، وشعرت بيده على كتفها .

وسألها : « خبرينى ماذا عنيت إذ قلت إنك لن تكونى هنا حين أعود ؟ »

ولم تحر جوابا ، بل بقيت مخلدة إلى الفراش ساكنة لا تريم ، وشعرت بأنها نكدة غضوب كالطفل لأنها كانت تحبه ولأنه أراد أن يتركها . وأدار وجهها بقوة وأمسك بها من كتفيها وألصقها بالفراش ثم حدق فى وجهها .

وسألها : « أتسمعينى ؟ »

وناضلت حتى تخلصت منه ، واستوت جالسة ، وسوت شعرها ، ثم أجابت فى برود « إنما عنيت ما قلت » ، ذلك أنها لم تكن طفلة على أية حال ، ثم مضت تقول : « إن كل هذا القتال عبث لا طائل منه »

وكان هذا بداية الشجار الشديد .

وتعطلت الحرب وهما يتشاجران ، وأبت أن تغادر غرفتها ودخل هو إلى الغرفة وتشاجرا ونأى عنها مرة أخرى . وكان الرجال فى الخارج يتمتمون ويصيحون والجياد تضرب الأرض بأقدامها وتهز رءوسها ، ونسى النمر الشيخ كل ما أسداه من نصح وعاد إلى تعاطى الأفيون وهم ينتظرون ، وبقيت هى وحيدة فى غرفتها ساعات على حين جلس هو فى مكتبته ، وقد أغرق رأسه بين يديه على الخريطة التى أمسك عن دراستها . أما هى فلم تقرأ بل ولم تكتب الخطاب الذى كانت تزمع كتابته إلى والديها ، وكيف تكتبه وهى حرية بأن ترحل فى أية لحظة وتعود إليهما ؟ لم يكن قد أذعن لإرادتها ، فيما عدا أنه لم يرحل بعد ، ولكنه قد يرحل فى أية لحظة ، فقد أمر بأن تظل الجياد مسرجة تنتظر وألا يهبط الجبل رجل واحد ، وظلت الحال على هذا المنوال ثلاثة أيام أو نحوها ، ذلك أن شجارهما استغرق كل هذه المدة الطويلة .

وكان هذا كله قد بدأ منذ تلك اللحظة التى شعرت فيها بالغيرة واستفحل الأمر حتى أصبح شيئاً خطيراً لا يمكن لأحدهما أن يتراجع عنه ، ذلك أنها قالت إنه لو خرج إلى هذه الحرب السخيفة لعادت هى إلى ديارها ولن ترجع إليه قط . وقال هو إنه سيأمر بغلق الأبواب حتى تصبح سجينة .

، وقالت : « إذن سأكرهك إلى الأبد ؛ قد يبقى جسمى هنا ولكنك تكون قد فقدتنى إلى الأبد »

وسألها : « لماذا ؟ »

فأجابت فى غير اكتراث : « لأنك تكون أغبى وأحمق من أن تحبك أية امرأة .. اللهم إلا إذا بلغت من الجهل مبلغك »

وصاح بها هادراً : « لست جاهلا ! »

فصاحت : بل إنك لجاهل ، جاهل قوى ، فى أية دولة تجد رجالا مثلك ؟ إن الخجل ليعرونى أمام صديقاتى الأمريكيات »

فتمتم : « ارحلى إلى أمريكا إن شئت فلن أحفل بأمرك » ، وهرع من الغرفة لا يلوى على شىء

ثم عاد إلى الغرفة مرة أخرى وهتف قائلا : « ما بالى لا أقتلك وأمضى إلى شأنى ! »

فأجابت : « اقتلنى ! فهذا هو الشىء الوحيد الذى تعرفه ! »

فقال وقد اشتد به الغضب : « ما من امرأة تستحق كل هذا ! » ، واندفع خارجاً من الغرفة مرة أخرى ، بيد أنه لم يقتلها ، وانتظرت باقية على حبه ، وقد استبد بها الحنق حتى ودت أن تعض يديها .

وجاء مرة ، مخادعاً مترفقاً ، وجلس وسيفه يتدلى على جانبه ، ومع أنها قالت بينها وبين نفسها إنها تكرهه ، فإنه لم يسعها إلا

أن ترى مبلغ وسامته ، وأن تبقى على حبه .

وأنشأ يقول · « أى مالى ، ما هذا الشعور الذى يدفعك إلى معارضة طريقى فى الحياة ؟ إنى لزعيم قبيلة وابن زعيم »

فردت عليه قائلة : « بل إنك لثائر على الحكومة ، وقد رصدت مكافأة لمن يأتى برأسك »

فأجاب مستخفاً : « الحكومة ! الحكومات تأتى وتروح ، وقد قامت ثلاث حكومات فى العشرين سنة الأخيرة أما أنا . . . »

فصاحت فى انفعال . « أتعلم مبلغ كراهية الناس لك ؟ أتعلم كم تثقل عليهم الإتاوة التى يدفعونها للنمر ؟ »

فأجاب فى تمهل : « إن هذه لفرية ، فأنا آخذ من الأغنياء ولا آخذ من الفقراء أبداً ، ذلك أن فرض الإتاوات على الفقراء يخالف تقاليد اللصوص الشرفاء »

وشرعت تقول « إن أبى ... »

فقاطعها قائلا . « أبوك غنى وأنت ابنته ! »

ونظرت إليه ثم أخذت تضحك فى عنف بالغ ، وصاحت قائلة : « كأنما يمكن أن يوجد شىء سخيف اسمه اللص الشريف ! لا يوجد على التحقيق شخص من هذا القبيل فى أى مكان آخر من

العالم ، لص ! لقد تزوجت لصاً حقيراً ! ولست أعرف شيئاً اسمه اللصوص الشرفاء ! »

وانصرف مرة أخرى ، واهتز الحائط من صفق الباب ، وأسندت ذراعيها إلى المنضدة وأحنت رأسها عليهما .

ثم انقضت فترة طويلة وفتح الباب فى رقة ولطف ؛ وأرهفت السمع دون أن ترفع رأسها . لقد عاد ، وما دام قد عاد فستتوسل إليه ، ولكن القادم لم يكن هو ؛ بل كانت العجوز تسير فى الغرفة على أطراف أصابعها .

وهمست قائلة . « إن الرجال يزدادون غضباً من هذا التأخير وهم يدبرون أمراً »

ورفعت موللى رأسها لتنظر إلى المرأة العجوز .

وقالت المرأة العجوز . « لقد سمعتهم يقولون (إلينا بالمرأة ! إنها هى السبب !) إنهم يقصدونك ياسيدتى ! »

وانتاب موللى الفزع فجأة ، وهى تحملق فى هذا الوجه العجوز المجعد الخشن ، وفى هاتين العينين اللتين تنطقان بالدهاء ، وانتصبت واقفة .

ثم قالت لاهثة : « أريد أن أعود إلى ديارى ، وددت ألا أكون هنا أبداً ، ليتنى لم آت قط ، إنما هؤلاء الرجال وحوش

همج ، لست أدرى على الإطلاق أى شىء وهمت أننى قادرة على فعله هنا ! »

وخرجت تعدو من الغرفة ، واجتازت القاعة ثم دخلت المكتبة ، ستقول له أن يمضى فى حروبه ، فقد يئست . لقد كانت تريد العودة إلى ديارها لأنها لم تكن ترغب فى رؤيته بعد ، ما كان لامرأة مثلها ورجل مثله أن يتزوجا . لقد انتهى الأمر ، ولم تعد تحفل به .

ولكنها ما إن بلغت عتبة الباب حتى رأته واقفاً بجوار مكتبه ، لقد خلع سيفه وراح ينظر إليها بعينين سوداوين يلوح عليهما التعب ، ممسكا بسيفه فى يده .

وقال لها قبل أن تستطيع الكلام ، وبدا صوته مستكيناً كأنما كان صوتا غير صوته : « إنك لعلى حق ، وإنى لأعلم أننى رجل جاهل غليظ غير مهذب ، ولو أننى فقدتك لفقدت النور الذى يهدينى ، لقد هبطت علىّ فى ذلك اليوم كما يهبط النور ، ولأفعلنّ كل ما تطلبين فإننى أحبك » .

ونظر كل منهما إلى صاحبه ونسيت موللى المرأة العجوز والمتآمرين ، وهرعت إليه فاتحة ذراعيها .

وهمست قائلة : « لماذا تشاجرنا ؟ » ، وشدت قامتها مستندة إليه .

ثم سمعت صليل سيفه على أديم الأرض الحجرية .

لقد كان من العسير أن يصدق المرء أن شجاراً يمكن أن ينشب بينهما قط ، فقد كان كل منهما يحب الآخر حبا عارما ، وخرج فى صبيحة اليوم التالى وأمر رجاله فى غلظة أن يعودوا إلى مزارعهم وقراهم ، فلن تكون حرب بينهم وبين الذئب الأزرق .

وسألوه وقد هلعت قلوبهم : « أبداً ؟ »

فأجاب فى اقتضاب . « أبداً »

وأمر بمنحهم شيئا من المال . وانصرفوا ورءوسهم تدور وقد خيم عليهم السكون . وراح كل منهم ينظر إلى أخيه ، وكأن ملكا قد تنازل عن عرشه لامرأة دون أن يكون له وريث ، وتركهم بلا حاكم يحكمهم . وعادوا إلى ديارهم لا يعرفون ما يفعلون. ذلك أنهم قد ذرجوا منذ أمد طويل بقدر ما تعيه ذاكرتهم على طاعة النمرين ... الشيخ منهما والشاب !

وقالوا محزونين وهم ينصرفون فى بطء وريث : « لم يبق لنا الآن إلا الحكومة »

وسأل واحد منهم : « ماهى الحكومة ؟ »

وانفرد النمر بمولى فى هذا الحصن الهادىء وراح ينظر إليها ، وسألها كالطفل : « ماذا عساى أن أصنع الآن ؟ » .

لقد غمرها شعوره الفياض ، وانتابها الخوف لحظة ، وبدا الحصن من حولها غريبا .

وقالت مبهورة الأنفاس : « هلّم بنا نعد إلى الديار . إننى لأود العودة إلى ديارى »

فقال : « لأفعلنّ كل ما تطلبين »

وقبل أن ينتصف النهار كانا قد هبطا الجبل واجتازا السهول . وكانت هى من خلف ستائر محفتها تدبّر ما عساها أن تصنع . إن أمها لحرية بأن تكون قد عادت إلى الدار الآن . ولسوف تلج الدار معه فى سكون ، وتقول : « أبتاه . أماه . هذا هو زوجى » . ثم تنتظر لحظة وتقول إنه ابن النمر .

أما بعد هذا فقد كان من المستحيل التكهن بما يحدث .

وهنالك كانت تقول : « أبتاه ، أماه ، هذا هو زوجى » .

وكان العجوزان يجلسان فى المكتبة يحدجان مولى بنظراتهما ، وقد ارتدت أمها ملابس الحداد ، فلبست حذاء أبيض وربطت شعرها برباط أبيض ، ولكن أباها كان على سننه .

وهمست أمها قائلة : « ظننت أنك مت ، فإن الشبان يقتلون أنفسهم على أيسر وجه فى هذه الأيام ، وقد حسبت أنك غضبت منا لأمر من الأمور »

وقال أبوها : « قلت لك إن ذلك الذى رأيته لم يكن شبحها » .

ولم يكن عقلاهما الواهنان ليدركا الأمر بسرعة كافية ، فقد كانت هى ماثلة هنا ، وهذا الشاب الطويل القامة ...

ورددت أمها القول : « زوجك ! إننى لا أعرفه »

وتمتم أبوها : « لم أره فى حياتى قط ! وأشاح بوجهه عنهما .

وذكرته قائلة : « قلت لك إننى اخترت »

فقال وهو لا يزال ينأى ببصره عنها : « إن الزواج لا يتم أبداً على هذه الصورة »

ثم قالت ، كما دبرت من قبل تماما ! « إنه ابن النمر ! »

ولم تكن واثقة من أنهما سمعاها على الإطلاق ، إلا أن أباها رفع رأسه فجأة وفغر فاه .

وقال : « لا شك أنه قد دهاك أمر من الأمور ، فإنك ... فإنك قد خرجت عن وعيك ... »

وهتفت أمها : « كان يجب ألا تذهب إلى أمريكا »

والتفتت مولى إلى النمر وقالت له : « تحدث إليهما »

وسألها : « وماذا عساى أن أقول ؟ »

فقالت : « قل لهما أى شىء حتى يمكنهما أن يسمعا صوتك ويعرفا أنك شخص حقيقى »

فقال فى لهجة غاية فى الود والبساطة : « إنها . . . إن ابنتكما ... جاءت إلى دارى لـ ... » ثم التفت إلى مورلى مبهوتا ، وقاطع نفسه بنفسه قائلا لها : « لم تخبرينى قط عن سبب قدومك »

وقالت مورلى فى عجلة : « لقد حدث الأمر على هذه الصورة يا أبت ، رأيتك فى ذلك اليوم الذى اجتمعت فيه بشيوخ المدينة وقد استبد بك القلق ، فصح عزمى على أن أذهب وحدى لأرى من يكون النمر وأنبئه مبلغ إمعانه فى الشر بمضيّه فى اضطهاد الناس ، على نحو ما اضطهدهم سنوات وسنوات ، وقلت بينى وبين نفسى : «إنما هو رجل عجوز جاهل ، ولو أن إنسانا صارحه بالحقيقة لعدل عن موقفه .. أجل لو أن إنسانا صارحه بأنه سبة فى جبين شعبنا ... وقد ذهبت حقا لأنقذك يا أبت »

ولهث أبوها ، ثم سعل من خلف يده ، وقال : « فهمت ، وهكذا جئت بالنمر معك إلى الدار »

وولولت أمها فجأة : « آه ، ما أكثر ما صليت للآلهة ، ابتهلت إليها أن يتم زواجك قبل أن ينصرم الشهر ، ولكن الآلهة عبثت بى »

وقال أبوها متجهما : « قلت لك إن المرء لا يأمن إذا أطلع تلك الآلهة على ما يريد ، فإن لها نزعة غريبة إلى الشر ، تجيب الدعوات على نحو غاية فى الالتواء »

وخيم عليهم صمت مطبق ، وتنحنح النمر فجأة .

وقال : « لست أبلغ من الشر هذا المبلغ ، ولتختبرانى »

وقالت موللى ضاحكة : « إذا كانت الآلهة قد بعثته يا أماه ، فقد حق عليك أن تقبليه »

واشتبكت يداهما وراحا يحدجان بنظراتهما وجهى العجوزين اللذين ارتسمت عليهما أمارات الشك والحيرة ، إلا أن العجوزين لم يستطيعا التفكير فيه إلا على اعتبار أنه النمر .

وقالت أمها ذات صباح فى صوت خافت : « إنه لضخم الجثة ، حتى ليبدو المنزل أضيق من أن يسعه »

وبذلت موللى أقصى ما وسعها من جهد ، إلا أنها لم تفلح فى حمل والديها على نسيان أنه النمر ، وأطلقت عليه اسما من ابتكارها ، فدعته : « السلام الباسل » ، وعللت الاسم بقولها : « لأنه تنازل بمحض إرادته عن أن يكون سيداً من سادة الحروب »

وسألها أبوها ذات ليلة : « ترى ماذا تفعلين معه ؟ إنه لم يألف المدن ، فهو لا ينفك يذرع الأرض روحة وجيئة كأنه وحش حبيس فى قفص ، ولا يمكن أن تستمر الحال على هذا المنوال »

والحق أنها بدأت تتبين أن الواجب يقتضيها أن تفعل شيئاً ، فإن هدوء المنزل العتيق وسكونه كانا يخنقان أنفاس النمر خنقاً .

وراح يشكو قائلا : لا أستطيع أن أتنفس فى هذا الجو ، إن رياح البحر الدفيئة تخنقنى ، فقد ألفت الجبال »

وكان قد امتلأ قلبه بالندم أيضاً على تركه النمر الشيخ.

وراح يقول لها ويعيد : « ما كان يجب أن أترك أبى هكذا فجأة ، فإن هذا يخالف ما أوصانا به كنفوشيوس »

وقالت له تحاجه : « لقد كان نائماً ، وقد قلت أنت نفسك ، كما تعلم ، إنه قادر على أن ينام اليوم بطوله ، ولم تكن أنت تستطيع القرب منه أياماً بأكملها »

وعاد يقول : « إن هذا يخالف ما أوصانا به كنفوشيوس »

فقالت فى شىء من المشاكسة : « إيه ، إن الناس لا يعدون كنفوشيوس إلهاً فى هذه الأيام »

فقال لها مجادلا : « إن كنفوشيوس يدعو إلى الخير »

وصاحت به : « عد إذا شئت ! » ، ثم أردفت مسرعة : « كلا كلا ! إننى لم أعن ما قلت »

ولم يعد ، وكانت أحيانا توقن بأنه لن يعود أبداً ، أجل توقن بذلك بعد الساعات الطويلة التى يقضيانها منفردين ، فقد كانت تمر بهما ساعات يعودان فيها إلى حديث طويل يتجلى فيه الود والإخلاص ، وكانت تكشف خلال تلك الساعات عن عقله .. عقله

الواسع القليل الخبرة، الزاخر بالنشاط. وكانت تطرح في تلك اللحظات كل ما تحس من غيرة وغضب، وترجو ضارعة أن تعرف كيف توجه هذا النشاط. لقد كان رجلا من الممكن أن يصاغ في أية صورة لو عرفت كيف تصوغه.

وسألته ذات يوم: «أتحب أن تدرس؟»

وسألها: «وماذا أدرس؟»

فأجابت: «أشياء كثيرة، كالكتب والعلوم ...»

فقال في لهفة: «أجل»

وجاءت بكتبها القديمة، كتب الجامعة، وظلا ينعمان بهذه الصحبة ساعات سعيدين، ثم إذا به يبسط قامته ويخرج إلى الفناء ويروح يذرعه بخطى سريعة. لقد كانت هذه الخطى القلقة القوية هي التي جعلت أباها يهز رأسه قائلا: «إنه لوحش حبيس في قفص»

وقالت أمها في صوت خافت: «ما كنت أظن قط أنني سوف أخاف من زوج ابنتي، ولكني سأظل أخشاه دائماً»

وهمست أوركيد قائلة. «وأنا أخشاه أيضاً، بل إن الجميع يخشونه»

وأدرك موللي الخوف منه فجأة ولكنها لم تعد تخاف فيه النمر بل الرجل وأي رجل، رجل قلق قادر متسلط، ولد ونشأ كالملوك

يأمر ويفعل ، وإذا به لا يجد شيئاً يفعله الآن . لقد كان ماثلا أمامها ملازما لها يسألها فى كل شىء ، كان يجهد عقلها بمطالبه ، فتدرس كما لم تدرس قط فى الكلية حتى تستطيع أن تجيب عن أسئلته التى لا ترحم . أجل تدرس فى كل كتاب كانا يقرآنه ، وتبينت أن هذا التعليم لن يكفيه قط ، وبدأت تستيقظ فى الليل وقد تملكها الخوف ، هب أنها هى أيضاً أصبحت ذات يوم لا تسد مطالبه ؟

ونحل جسمها من قلقها عليه ، فقد كان أعتى مما تحتمل بكثير ، عظيم القوة ، شديد العناد ، ممعناً فى القلق .

وقالت بينها وبين نفسها : « يجب أن ننطلق » ، ودبّرت الأمر فى الظلام : « لو ذهبنا إلى شنغهاى لكان ذلك مدعاة لتسليته »

وأصبح الصبح فسألته . « أتحب أن تذهب إلى شنغهاى ؟

فأجابها : « وما الذى يدعونى إلى الذهاب إلى شنغهاى ؟

فقالت : « حتى ترى كل ما هو جديد ، فإنك لم تر قط الصور المتحركة أو السيارات ، بل قد تحب أن ترقص ، وأنا أعرف الرقص »

وأجاب فى اقتضاب : « ها ! إن هذا لمن شيمة الأطفال »

وراحت تلاطفه قائلة : « أنقيم مأدب احتفالا بعودتنا إلى دارنا ؟ »

وافتر ثغره قليلاً لقولها هذا ، وسألها : « أتظنين أن أصدقاءك يرحبون بتناول الطعام مع النمر ؟ »

ولم تحر جوابا ، كلا : إن أصدقاءها لن يرحبوا بهذا ، وكان أبوها قد أبدى قلقه لذلك ، وقال : « ينبغى أن نقيم وليمة عرس ، من قبيل اللياقة على الأقل ، ولكن أصدقائى خليقون أن يخشوا المجىء . وأنا عليم بشعورهم ، وما كنت لأقرب النمر لو لم أعرف حقيقته ، أجل إنه شاب وكفى ، ولكنه غاية فى القلق يامالى ، غاية فى القلق ! »

وساءلت نفسها فى يأس وقنوط : « ما عساى أن أصنع به ؟ »

ثم رحل فجأة ذات يوم ؛ فقد قفز واقفا على قدميه فى نوبة من نوبات القلق التى تنتابه ، وخرج إلى الفناء وشرع يذرعه رائحا غاديا بالطريقة التى كانت قد بدأت تخشاها ، وشيعته بنظراتها وهى لا تدرى أتلحق به أم لا تلحق ؛ ورأت عبر الفناء وجه أبيها الوقور يطل من نافذة من النوافذ . لقد كان يرقب هذا الشاب أيضا وقد امتلأت عيناه بأمارات الإشفاق ، وكان هذا الإشفاق هو الشىء الذى لا تحتمله ، فاستدارت وهرعت إلى غرفتها وأغلقت الباب ، ترى ما الذى تفعله بهذا الرجل الذى تزوجته ؟ لم يكن له مقام فى هذا البيت ، وودت لو ذهبا إلى شنغهاى ، ولكن ماذا عساه

أن يفعل فى شنغهاى ؟ وفكرت فى أولاد عمها ، أولئك الشبان الناشطين الظرفاء الذين يعملون فى بعض المكاتب نهاراً ويرقصون فى نادٍ من النوادى ليلاً ، ورأت أنهم أحرياء بأن ينفروا من هذا الرجل الضخم الجاف غير المهذب ، ولو أنها حاولت أن تعلّمه الرقص لقال : « ما هذا الهراء ؟ إننى لست طفلا » ، وما كانت لتتصور أنه خليق بأن يتبعها إلى مسرح فى دعة ولطف وأن يجلس بجوارها فى سيارة . كلا ، إنه لن يرجى منه خير أبداً فى شنغهاى !

وانسلت إلى سريرها وراحت تبكى خلف ستائره ، لأنها كانت تحبه على أية حال ، ولأنها كانت تعلم أنها لا تستطيع أن تجعله سعيداً ، ثم نهضت آخر الأمر وتنهدت ومسحت وجهها وسوّت شعرها . ورأت أن تحاول معه مرة أخرى ، ومضت تبحث عنه ولكنه كان قد رحل ، فقد وجدت الفناء الذى كان فيه خالياً إلاّ من قط جثم تحت قفص لطائر علّقه أحدهم على شجرة من الغاب الهندى ، وكان ذلك بعد الظهيرة فى يوم من أيام الصيف التى يسكن فيها الهواء . وأصاخت السمع ، ولكنها لم تسمع صوتاً اللهم إلاّ لغط المدينة يترامى من وراء السور خافتاً رفيقاً .

وقالت بينها وبين نفسها لأول وهلة : « لقد ذهب إلى فناء من الأفنية الأخرى » ، وسارت فى هدوء من فناء إلى فناء ولكنها

لم تجده فى أى منها ، ثم بحثت عنه فى المنزل فلم تجده فيه ، وكان أبوها نائماً فى المكتبة وقد غطى وجهه بمروحته . أما أمها فكانت فى غرفتها ، وحتى أوركيد لم تعثر لها على أثر ، فقد كانت تلك الساعة هى الساعة التى ينام فيها الجميع حتى الخدم . ومضت إلى الباب ، وكان البواب العجوز يجلس مغفياً على أريكته الخشبية وقد ألقى برأسه إلى الوراء مسنداً إياها على الجدار وفغر فاه .

وصاحت به فى حدة : «هل خرج . . هل خرج زوجى من الباب ؟»

فغمغم مستيقظاً : «كلا ، كلا» ، وتمتم وهو يبلع ريقه : «لا . . لا»

وصاحت : «لو أن جيشاً دخل من الباب لما أحسست به» . ثم تطلعت إلى الباب فوجدت المزلاج مردوداً ، ونظرت إلى التراب الذى يعلو العتبة فألفته مليئاً بآثار أقدام ، أجل آثار حذاء كبير عريض النعل ، من ذلك الطراز الذى يرتديه قطاع الطرق ، ذى النعل المبطن الذى يتعلق بالصخور والطرق الوعرة ، ترى هل جاءوا فى طلبه وهل عاد إليهم ؟ وشعرت فى الحال بأن المنزل قد أصبح خاوياً على عروشه .

وصاحت تهدئ من جزع قلبها : «سألحق به» ، وهرعت

إلى غرفتها وبدلت ملابسها ولبست حـذاءها الأمريكى المتين وأخذت حقيبة يدها ؛ لسوف تمضى إلى الجبل رأساً ساعية وراءه .

وانسلت من المنزل الهادىء ، وفتحت الباب الأمامى فى رفق ، وكان البواب العجوز قد استغرق فى النوم مرة أخرى ، وخرجت إلى الشارع وراحت تساوم الحمالين فى عجلة .

وقالوا لها : « نحن فى منتصف الصيف والشمس قائظة ، فلتزيدينا من نفقات الشاى »

ووعدتهم قائلة : « أجل ، سأضاعف لـكم نفقات الشاى ، بل سأعطيكم كل ما تطلبون »

فلما أصبحت آمنة خلف ستائر المحفة راحت تطلق لأفـكارها العنان : لسوف يعيشان على قمة الجبل ، وستسمح له بأن يحيا الحياة التى تروق له . . ستسمح له بأى شىء ، أى شىء يضفى عليه السعادة !

وبلغت سفوح التلال وتوقفت ساعة ، ثم سألت الزارع المتجهم العابس : « متى مر زوجى ؟ »

وهز رأسه قائلا : « لم يمر أحد من هنا اليوم » ، وكأنما لم يرها الرجل من قبل قط ، إذ لم يبد فى نظراته ما يدل على أنه عرفها .

وصاحت تقول : « بل مر . . مر ! »

وأومأ بذقنه صوب الجياد المعقولة ، وقال فى هدوء : « هاك

جواده ، وكان ما قاله صحيحا ، ذلك أن جواده كان قائما هنالك ، جواد مغولى أسود ألف أن يركبه دائما ، إذن فهو لم يمر . وتحيّرت فى أمرها ، فقد كان الحصن يعلوها بكثير ، وكانت أشعة الشمس تنحدر آنئذ فلم تستطع أن تتبين أسواره الرمادية إلا بشق النفس ، وامتد من تحتها البحر الأزرق والمدينة ودارها .

وأمرته قائلة : « أسرج لى جواداً »

وأنشأ الرجل يقول دون أن يحرك ساكنا : « إنه لم . . . »

فقالت : أطعنى ، فإننى زوجته وأنت تعلم هذا » .

وكان الليل قد حل عندما بلغت أبواب الحصن ، وغلّقت الأبواب ولكنها راحت تقرعها ، لقد جاءت وحدها عارفة الطريق التى تسلك عازفة عن أن يصحبها ذلك الرجل المتجهم العابس ، وفتح الباب وظهر الخادم العجوز ، وأطل من الباب عليها .

فسألته قائلة : « هل سيدك بالدار ؟ »

فقال : « ليس فى الدار إلا سيدى العجوز وهو نائم »

لم يكن موجوداً ، ترى ماذا ألمّ به ؟ وأين يمكنها أن تجده الآن ؟ وانحنى رأسها إعياء وتعبا .

ثم قالت : لألجنّ الدار ولأنام »

وفتح الباب وأدخلها ، وترجلت عن جوادها واجتازت

الأفنية ، ولم تر أحداً حتى بلغت أقصى فناء داخلى ، فشاهدت المرأة العجوز تأكل طاسا من عصيدة الأرز ، ورفعت العجوز رأسها إليها وازدردت ما أصابت من طعام ثم انتصبت واقفة .

وتمتمت : « أأنت ياسيدتى ؟ » ، وأشاحت بوجهها .

فقالت موللى : « أجل » ، وومض فى ذهنها خاطر ، إن هؤلاء القوم ، أجل إن ذلك الرجل العجوز وتلك المرأة الشمطاء يعرفان أين هو ، وستستخلص الحقيقة منهما ؛ فإن لم تجده غدت حياتها هباء تنتقل من فراغ إلى فراغ . وكان الحصن يقوم من حولها ، وقد خلا من كل شىء إلا من رياح الليل ، ومضت إلى غرفتها القديمة وفتحت درج مكتبها ، ها هو ! ها هو ذا مسدسها القديم الذى كانت قد نسيته ، وتبعتها العجوز إلى داخل الغرفة وفكاها يصطكان قليلا وهى تمضغ بقايا خضر مملحة كانت ممزوجة بالأرز .

وأنشأت تقول : « هل تريدين . . . »

ولكن موللى مضت مسرعة إلى الباب ووقفت مسندة ظهرها إليه .

وقالت فى حزم : « والآن خبرينى أين هو ؟ »

وصوبت المسدس إلى وجه العجوز وانتظرت .

ودمدمت العجوز : « كنت موشكة أن أخبرك » ، وتصبب جبينها عرقا .

فقالت مولى : « خبرينى الآن »

وهمست العجوز : « لقد اختطفوه خطأ »

« أى خطأ ؟ »

« لقد كانوا يريدونك أنت »

« من هم هؤلاء ؟ »

« الرجال »

« لماذا ؟ »

« لأنك فيما قالوا رددتهم عن حقهم فى القتال ، فباعوك »

« باعونى ؟ »

« أجل ، باعوك للذئب الأزرق ، وانتووا أن يختطفوك من دارك »

« متى ؟ »

« اليوم فى وقت النوم،وقد دبروا أن يدخل رجلان ويقولا ... »

« من هما ؟ »

« لقد دُبر الأمر بحيث يتوليان قيادة رجال الذئب الأزرق »

« ثم ماذا ؟ »

« كان غيرهما ينتظرون خارج الدار فإذا اقتضت الحال اندفعوا إلى الداخل لاحقين بهما »

« لم يطرق أذنى صوت أحد »

وخفت همس العجوز وهى تقول : « كلا ، لقد استدرجوا النمر إلى باب دارك حتى يكون دخولهم أسهل وأيسر ، فقد قالوا له إن أباه . . . »

« ولـكنه فر »

« لقد اختطفه رجال الذئب الأزرق »

« ورجاله هو ؟ »

« لقد استبد بهم الخوف عندما رأوا النمر يختطف بدلا منك فأطلقوا لسيقانهم الريح »

« ألم يقولوا شيئاً ؟ »

« قالوا إنما بعناكم المرأة، ولم نبعكم النمر »

« ثم ماذا ؟ »

« وأجاب رجال الذئب الأزرق : لقدصدر إلينا الأمر بأن نجىء بالرجل ، ثم ولوا الأدبار »

وقالت مولى متمهلة : « ليس من شيمة زوجى أن يدع أحداً يقيّـده » ، لقد كان الأمر ممـا يصعب تصديقه !

« آه ياسيدتى ، لقد أمسك به خمسة رجال أشداء »

« ولم يرهم أحد ؟ »

« لقد كان ذلك فى الساعة التى يهجع فيها الناس ، وكان ثمة عربة تنتظرهم وثلاثه رجال خلف الستائر لربط وثاقه »

« ومن دبّر هذه المؤامرة ؟ »

« رجاله هو اثنان منهما . . . »

« أرسلى فى طلبهما . . كلا انتظرى .. سأعود إلى دارى »

« ياسيدتى أترحلين ليلا ؟ »

« أجل ، الآن . . فإن جواده معى ، وهو جواد ثابت الخطى »

ثم وضعت المسدس فى صدرها وامتطت ظهر الجواد مرة أخرى دون أن تصيب شيئاً من الطعام ، ولم يكن محيص من أن تصدق العجوز .

وكان الفجر قد بزغ أو كاد حين بلغت دارها ، وقد قطعت الطريق كله على ظهر الجواد ، وأدخلها البواب وهو يحملق فى وجهها ، ولم تنطق بكلمة بل مضت رأساً إلى غرفة أبيها ، وصاح الرجل عندما رآها : « مالى ! ماذا دهاك ؟ »

فقاطعته قائلة : « أبت ، أبت، أعطنى إتاوة النمر فإنى فى حاجة إليها ، ولا مناص من أن آخذها »

وشعرت برأسها قد أخذ يدور ، فقد انقضت مدة طويلة لم تصب فيها شيئا من الطعام أو النوم وترنحت ثم سقطت مغشياً عليها .

ولم تدر ما قضته من وقت وهى نائمة ، إلا أنها ما إن استيقظت حتى ومض فى ذهنها كل ما دبرته من خط ، واستوت جالسة . كانت فى حاجة إلى قدر كبير من المال يكفى لتجنيد جيش ، أجل سوف تجند جيشاً وتشن حربا على الذئب الأزرق ، وليكونن هذا الجيش هو جيش النمر نفسه ، تجمع رجاله كلهم على نحو ما وتشترى لهم البنادق . لقد روى التاريخ أن فتاة صينية قادت جيوش أبيها لأنه قد بلغ من العمر عتيا وأحرزت بهم النصر ، وفتح الباب فجأة ودخل أبوها وفى يده برقية ، وكان وجهه ممتقعا .

وقال وقد شحب لونه : « لقد هلكنا »

فصاحت : « ما الخبر ؟ آه ! لقد ألمت به ملمة ! »

فقال : « لست أدرى ماذا تعنين ، ولكن البلاد قد هلكت .. فقد بلغ اليابانيون شنغهاى ، ويقول عمك ... »

واستبق عقلها الكلمات ؛ اليابانيون . . إذن فقد كانت آخر الأرواح الخبيثة التى عرفتها فى طفولتها شيئا حقيقيا ! كان كل شىء حولها متناقضا ، ولا يستبعد أن يحدث أى شىء ، اليابانيون ...

وصاح : أبوها قائلا : « سيكتسحون الساحل بقنابلهم، وسنقتل جميعا ! » ثم راح يولول : « آه ، إننا لسنا مستعدين ، وما من أحد قد اتخذ أهبته ، ليس لدينا جيوش مدربة ، ولا قواد »

فقالت : « لو كان هنا لفعل شيئا . وى ، إن له جيشا على تمام الأهبة »

وكان كل منهما ينظر إلى الآخر

وسألها أبوها : « أين هو ؟ »

فقالت مبهورة الأنفاس : « أعرف مكانه ، الذئب الأزرق . . لقد اختطفوه ، كنت أريد المال : حتى . . . »

فهتف : « سيوفَّر لك المال ، قد كان مقدراً أن يؤدى لهم منذ أيام ولكن لم يأت أحد فى طلبه »

وقالت فى تهور : « طائرة ، طائرة صغيرة تستطيع أن تهبط فى بقعة صغيرة على جبل من الجبال ، بل فناء ، وطيّار »

فقال : « سأبرق إلى عمك فى شنغهاى ليرسل طائرة إلينا »

وقالت : « يجب أن تكون الطائرة كبيرة تتسع له فى عودته »

وأومأ برأسه ثم خرج ، وجلست لحظة ورأسها يدور كأنه الدوامة ، وقالت بينها وبين نفسها : « إنها لبلاد أصابها الجنون ،

وقد اختلط حابلها بنابلها .. الذئب الأزرق واليابانيون وهو وأنا .

وكانت قد استقلت مرة طائرة فى أمريكا ، لتعرف كيف يكون الطيران . طارت هى ومارى لين إلى واشنطن فى عطلة من العطلات لترى كيف يزهر الكرز اليابانى ، ووقفت تحت الزهور الرقيقة ، تثرثر والنسيم يهب من حين إلى حين حاملا أريج الزهور ، فنسيت ما قاله لها أبوها من أنها يجب أن تكره اليابانيين دائما . إن الناس الذين يزودون العالم بزهر الكرز لا يمكن أن يكونوا أعداء ، ولكن القنابل كانت تتساقط على شنغهاى كأنها أوراق الزهر تنساب من السماء .

إن الانحشار فى غرفة القيادة من طائرة صغيرة لم يكن من الممكن أن يقارن بحال بذلك النعيم يحسه المرء فى طائرة كبيرة للركاب زودت بجميع وسائل الراحة ، بل إن الأرض لم تكن تبدو منها كما تبدو من الطائرة الكبيرة ، فقد كانت الأرض تبدو منها دانية جداً ، واضحة جداً ، وكان الطيار شابا صينيا من شانتونغ ، وقد اضطر إلى الحديث بالإنكليزية لاختلاف لهجة كل منهما عن الآخر .

وكان أبوها قد قال لها وعلى وجهه أمارات القلق : « قولى له أن يكون حذراً » .

ولكنها قالت للطيار : « إن أبى لم ير طائرة قط ، ولذلك يستبد به القلق »

فأجاب الشاب : « لا حاجة به إلى القلق ، فإنى أقضى نصف وقتى فى الهواء »

وسألته : « فى التدريب ؟ »

فأجاب : « بل فى قتال اليابانيين ، فإننا نسقط من طائراتهم قدر ما نستطيع »

وبدأ المحرك يهدر ، وراحت الطائرة تشق عنان السماء ، وخلفا وراءهما المدينة ولاح البحر كأنه فقاعة زرقاء كبيرة ، وكانت تريد أن تقول فى لهجة تنم عن الفخر : « ليأتين زوجى بجيشه ليحمل عليهم » ، ولكنها ما إن فتحت فمها حتى انتزعت الريح الكلمات من فيها . لقد كانوا يصعدون فى الجو تصعيداً عموديا ، فتشبثت بجانبى مقعدها . كان القوم جميعا يقولون إن الرحلة إلى جبل الذئب الأزرق تستغرق ثلاثة أيام على ظهور الجياد وعلى الأقدام .

وكان الشاب قد قال حين شرعوا فى رحلتهم : « أكثر من ثلاث ساعات بقليل ؛ فإننى أريد العودة إلى شنغهاى الليلة ، والمال الذى أعطيته لى يكفى لشراء حمل من القنابل »

وقال أبوها : « سأضاعف المبلغ » .

وشرعا يشقان أجواز الفضاء متجهين إلى الشرق ، وكان الفجر قد استحال نهاراً ، وانطلقا يندفعان صوب الشمس ، تمر بهم السحب مسرعة طائرة ، وأصبحت الأرض من تحتهم بقعة خضراء ، النقط اللامعة فيهـــا برك ، وشعاعة الضوء قناة . وهنالك انبلج الصبح ، وكانت هى ماضية إلى حبيبها على أجنحـــة الصبح ، وكان الرجال والنساء فى القرى من تحتها بدأوا حياتهم القديمة قدم الأزل ، النساء يطهين على مواقد من الطين أبلت الزمن ، والرجال يسرجون جاموس الماء إلى محاريث من الخشب أفنت الجديدين ، ولن تنقضى إلا فترة وجيزة حتى تهبط فى حصن قديم ، ولم تكن تعرف ماذا تجد فى ذلك الحصن اللهم إلا أنه سيكون هناك . أجل سيكون هناك بلا ريب ، فما هم بمستطيعين أن يقتلوه ، ولم يطف بخاطرها أنهم قد يفعلون ، ومع ذلك فقد كانوا بعد أعداءه ، ونسيت هى هذا . ولو أنه لقى حتفه لجمعت جيوشه ومحتهم من الأرض محواً ، ولسوف تشترى قاذفة قنابل وتلقى عليهم القنابل كأنها أوراق الزهر تتساقط على الأرض .

وصاحت قائلة : « أسرع ! » ، ولكن الريح انتزعت الكلمة من فيها مرة أخرى .

وكان الطيار يدور ببطء ، محلقا فوق الجبال قريبا منها غاية القرب ينقب فى أرجائها . لقد كانت جبالا جرداء ليس فيها

إلا حفرة ضئيلة . ورأى الشاب بين قمتى جبل واديا قليل الغور ، تقوم فيه دور منخفضة شيدت من صخور الجبل ، يكتنفها سور ، ولا شك أن هذه كانت منازل الذئب الأزرق ؛ فما كانت العين لترى سواها على القرب ، ثم إن الطيار كان قد مضى إلى مكتب المأمور يسأل عن موضع الجبل بالضبط ، فأعطوه خريطة ، ذلك أن كل إنسان كان يعلم أين يقيم اللصوص ؛ فقد كان الأمر يقتضى تحذير التجار إذا هم سلكوا الممر الجبلى ، وراح يسرع هابطا إلى أسفل ، وكفت الريح عن الهدير فاستطاعت موللى أن تصرخ هاتفة به :

« لتنتظرن ودع المحرك دائراً ! كن مستعداً للطيران فى اللحظة التى نصل فيها ! فقد نأتى راكضين طلباً للنجاة بروحينا »

وأومأ برأسه ، وكانت تتجمع من تحتهم أشباح صغيرة خرجت من الأكواخ الحجرية ، وكانت مستطيعة أن ترى وجوههم تتطلع إليهما وأذرعتهم مرفوعة ، وهبطت الطائرة فجأة فتفرقوا .

وقالت له : « إنهم خائفون ، فإن عينهم لم تقع على طائرة قط ، ولا تنس أن تحتفظ بالمحرك مستعداً ! »

وأومأ برأسه ، وشعرت بالطائرة تضرب الأرض مرة ومرتين ثم تستوى على أديمها وهى تهتز ، وكان الرجال يطلون من الأبواب

ويقبلون عليها فى شىء من الخوف ، وقفزت موللى إلى الأرض فى خفة ونشاط وواجهتهم ، وبدت الجرأة فى صوتها وهى تسألهم ، « أين سيدكم ؟ لقد جئت للقائه » ، وكان قد صح عزمها على ألا تذكر شيئا عن النمر لئلا يأخذوها أسيرة ، كلا ! فلتدعهم يعجبون من تكون .

ولم يجبها أحد ، وراح كل منهم ينظر إلى صاحبه ، ولو كانت لم تر رجالا على شاكلتهم من قبل لأدركها الخوف منهم ، ولكنها كانت تعرفهم . لقد كانوا هم الرجال الهمج الغلاظ القلوب المتمردين أنفسهم يسيرون فى ركاب أى سيد من سادة الحروب .

ومضت تقول فى هدوء : « أولى بكم أن تخرجوا عن الصمت ، فإنى أحمل أنباء ذات شأن » ، ثم التفتت إلى الطائرة وأردفت قائلة : « إنكم ترون أنى قد هرعت إليه فى سفينة تطير فى الهواء »

وسألها رجل فى فضول : « أهذه هى ؟ ظننت حين رأيتها أنها نسر »

وقال آخر : « لقد سمعنا عنها ولكننا لم نرها » . لقد كانوا كالأطفال الكبار يريدون أن يلمسوا هذا الشىء الغريب ولكنهم يخشون أن يفعلوا ، وقد نسوا ما سألتهم إياه .

وقالت لهم : « خذونى إلى سيدكم ، ولكم أن تنظروا إلى الطائرة فى أثناء غيابى »

وتبادلوا النظرات وضحك واحد منهم فى خجل .

ثم قال : « الحق يا سيدتى أنه ليس لنا سيد ، فالذئب الأزرق امرأة »

« امرأة ؟ » وراحت تتطلع من وجه إلى آخر غير مصدقة .

وقال رجل آخر : « لقد أوصتنا زوجته بألا نقول شيئاً ، وأخبرتنا بأنها مستطيعة أن تقودنا بالمهارة التى يقودنا بها أى رجل » .

وأمّنوا على قوله بإيماءة من رءوسهم : « أجل ، لقد فعلت هذا أيضاً »

وقالت موللى : « خذونى إليها ! »

امرأة ! لقد كانت تتوق إلى سؤالهم أين هو وماذا فعلوا به ، فمن يدرى لعله قد لقى حتفه ، أو هو على الأقل موثق الأغلال أسير فى كوخ من هذه الأكواخ ، وسيكون أمر خلاصه أشق إذا كانت امرأة . . .

وقال رجل منهم آخر الأمر : « سأقودك إليها » ، وتبعته ، ثم دست يدها فى جيبها واحتوت راحتها المسدس .

وتساءلت أى طراز من النساء تكون هذه المرأة التى بلغ من جرأتها أن حلت محل سيد من سادة الحروب ؟ لم يكن من طراز هذه المرأة إلا القليل ، وقد رويت عنهم الروايات بين الناس ،

وألفت أوركيد أن تقص عليها هذه القصص ، إلا أنها كانت قصصاً خرافية ، أما هذه المرأة فكانت امرأة حقيقية .

وقال الرجل : « إليك ! فها هو ذا بابها ، ادخلي إن شئت فلن أخبرها بقدومك ، فهي حادة الطبع ولو عرفت أنني أنا الذي قدتك إليها لقتلتني »

وانصرف ، وبقيت هي وحيدة أمام باب موصد ، ووقفت لحظة ثم وضعت أذنها في لطف على خشب الباب ، وأنصتت فسمعت لغط أصوات . كلا ، بل صوتين اثنين أحدهما صوت امرأة ، وكانت مستطيعة أن تسمعه واضحاً جلياً بعض الشيء ، أما الصوت الآخر فكان صوت رجل تعرفه . أجل ، لقد كان ذلك الصوت هو صوته ! ودفعت الباب فجأة بكلتا يديها فانفتح على مصراعيه ، فوقع نظرها على النمر ، وكان ثمة امرأة تجلس على كرسي كبير منقوش ، ويقف هو بجوارها يطل عليها ، فلما انفتح الباب كان صوت المرأة يرن بوضوح في أذنيها .

ثم وقع نظر المرأة عليها ، ورأى النمر ما ارتسم على وجهها ، فالتفت إلى مولي وسقطت يده إلى جانبه .

وقال : « أنت ! »

فأجابت في هدوء : « أجل » . وتقدم نحوها خطوة ولكنها

لم تتحرك ، وقالت : « كنت أظن أنى سأجدك موثق الأغلال » ، وحدجته بنظرات تنم عن الاتهام .

فأجابها : « لقد جيء بي إلى هنا مقيدا »

فقالت : « إنك حر طليق الآن » ، وسمعت صوتها وهي تقول هذا !

وقال : لقد خلصتنى هذه المرأة ، وما زال كعباى يؤلمانى من شد السيور عليهما » ، ثم ضحك وأردف : « لقد كان بعض الذنب ذنبي ، فقد قاتلتهم »

« ومن تكون هي ؟ » ، وأومأت مولى بذقنها صوب المرأة إيماءة تكاد تكون غير ملحوظة .

وضحك مرة أخرى ، وقال : « هاك أمراً عجيباً ، ذلك أن الذئب الأزرق لا وجود له . لقد كانت هي التي تقود جيوشه طوال هذه الشهور ، وكنت أقاتل امرأة ! »

ولكن مولى لم تضحك ، بل سألته : « ماذا كانت تقول عندما دخلت ؟ »

والتفت إلى المرأة قائلا : « ماذا كنت تقولين ؟ »

وهنالك نظرت مولى إلى المرأة ، لقد كانت فلاحة سمراء اللون قاسية النظرات ، لم تزل بعد فى شرخ الشباب ، إلا أنها كانت ضخمة الجسم أشبه بالرجال ، وقد ارتدت سترة قديمة مزركشة

فى لون البرقوق ، وكانت بشرتها سمراء مشربة بالحمرة ، وشفتاها مكتنزتين إلا أنهما جافيتان ، ونظرت إلى النمر كأنما لم يكن لمولى وجود ، وقالت بالصوت نفسه الذى كانت تتكلم به عندما دخلت مولى الغرفة : « لو أننا ، أنا وأنت ، ضممنا جيوشنا وأراضينا بعضها إلى بعض ، بل لو انضم كل منا إلى الآخر . فمن ذا الذى يستطيع أن يقهرنا ؟ إننا نستطيع قلب الحكومة كما فعل غيرنا . ونستطيع أن نرتد بالبلاد إلى عهد الإمبراطورية فتكون أنت الإمبراطور ، ويكون أولادنا أمراء »

وصاحت مولى : « لم أسمع بمثل هذا الحديث قط ! » ، وهرعت إلى النمر وأخذت ذراعه بكلتا يديها وتعلقت به : « لا أحسبك تصدق هذه المرأة ! »

ولكنه لم يتحرك ، فقد كان ينظر فى وجه المرأة الأسمر الوسيم ، وأسقطت مولى ذراعه فجأة وخطت خطوة صوب المرأة .

وراحت تسألها : « هل تشنين الحرب علىّ ؟ »

فأجابتها المرأة قائلة : « عودى إلى شنغهاى ، فإنها المدينة التى تصلح لأمثالك ، فماذا تعرفين أنت من شئون الحرب ؟ »

ولم يتكلم النمر ، بل راح ينظر إلى المرأة ، ولم تحتمل مولى التردد الذى لاح فى نظراته ، ولم يتجه إليها أو يبتسم ، بل ظلت

نظراته توحى بالتأمل . فقد كان يعمل الفكر فيما يريد أن يفعل .

وصاحت : « هل نسيتنى ؟ »

فأجاب : « لقد ولدت لأقاتل ، لا لأجلس فى المدن لا أريم »

وكان صوته خشناً ، وأشاح بوجهه عنها ، ثم مضى ووقف بجوار النافذة .

وسألته : « هل تختارها بدلا منى ؟ » وقد ساورها الغضب إذ بدأ صوتها يغشاه هذا الضعف .

فقال : « إننى لا أختار امرأة ، بل أختار حياة »

وهتفت موللى قائلة : « ولكنها تطلب منك أن ترتد إلى الماضى »

وقالت المرأة مفاخرة : « إن لدى رجالى بنادق أيضاً ، وسيوفا ورماحا »

وضحكت موللى والغيظ يحتدم فى صدرها : « وما جدواها ؟ وى ، إن الحرب الآن تنطلق من السماء ! فالمدينة تدمر فى بضع ساعات . . على يد عدد قليل من الرجال ! »

وصاحت المرأة : « إنما هو سحرك الأسود ، ولكننى مستطيعة أن أقتلك قبل أن . . . »

فقالت موللى : « ليس هو سحرى أيتها الغبية ، بل هو سحر

العالم الجديد ولا سبيل لأحد أن يدفعه فليس بمجديك عدد من تقتلين هنا على قمة هذا الجبل » . والتفتت إلى النمر قائلة : « إنها لا تعرف شيئا وهى أسيرة هذه الجبال ! »

وسألتها المرأة : « وما الذى يحملنى على تصديقك ؟ »

بيد أن موللى لم تحفل بها ، فقد مضت إلى زوجها وأخذت يده بين يديها وراحت تضمها إلى صدرها وكأنما كانت تضم حجراً إلى قلبها ولكنها ظلت تضمها إليها .

وقالت : « تعال معى »

ولكنه لم يحر جوابا ، ومالت المرأة فى مقعدها ، وأنشأت تقول له : جيشك وجيشى . . . »

وأسقطت موللى يده ، فلقد كانت الحرب حقا تدور بينها وبين هذه المرأة .

وسألته : « هل تختارها ، وهى فلاحة لا تعرف كيف تكتب اسمها ؟ أهذه التى تريد أن تكون أم ولدك ؟ »

وكانت قد بدأت الحديث فى هدوء وشجاعة ، وإذا بدمها ينطلق فائراً فجأة وراح ينبض نبضا قويا فى جسمها كله ، وانقضت على النمر وأمسكته من كتفيه وأخذت تهزه ، لقد كان وزنه ضعف وزنها ولكنها كانت تهزه هزاً . وصاحت به : « إنى لأمقتك !

إنك لن تعرف امرأة تلد لك أولادا سواى ! »

ومضى ينظر فى عينيها ، وانسابت ابتسامة بطيئة متسللة من أعماق نفسه .

وقال يسألها : « أتعودين إلى الحصن إذا سمحت لك بأن تلدى لى أولادى ؟ »

وهزت رأسها قائلة : « لا أستطيع أن أعدك بشىء » ، وكانت المرأة تنظر إليها فى ألم واهتمام ، ومضت موللى تردد فى عناد : «لا أستطيع أن أعدك بشىء ، أى شىء على الإطلاق . إلا بولد ! »

وبدأت تلوح على مقلتى عينيه السوداوين ابتسامة رأتها تنساب كالضوء يشرق به وجهه ، وشعرت بأنها تحبه وتكرهه فى وقت معا .

وقالت المرأة فجأة : « لن أسمح لكما بالرحيل . . لا أنت ولا هو » .

فأجابت موللى : « لا تستطيعين أن تمنعينا ، فقد جئت بقوة السحر »

فقالت المرأة : « أى سحر ؟ »

فأجابت موللى فى خبث ، « على أجنحة الريح » ، وقد صح عزمها على أن تستغل جهل المرأة .

فصاحت المرأة : « إننى لا أصدق شيئاً مما تقولين »

فهتفت موللى تقول : « لقد كنت على ساحل البحر صباح اليوم وهاهى ذى الظهيرة لم تحل بعد ، وما إن ينتصف الوقت بين الظهيرة والغروب حتى أكون قد عدت إلى ساحل البحر مرة أخرى . انظرى خارج الباب ! » ومضت مسرعة إلى الباب وفتحته فبدا الفناء . وكانت الطائرة رابضة على الأرض يزدحم حولها رجال علاهم الفضول ، وما رآها الطيار الشاب حتى أدار محرك الطائرة فانبعث منها هدير ، وقفزت المرأة من مقعدها وقد لاح الرعب فى عينيها .

وصاحت موللى بالنمر قائلة : « تعال ! » ، ولكنه تردد ، فانطلقت تصيح بكل قوتها : « قلت لك تعال ! فإن اليابانيين يهاجمون شنغهاى ! »

وحملق فيها لحظة ، ثم قفز صوب الباب ، ودفع الرجال يميناً ويساراً يفرق صفوفهم كأنه ريح عاتية ، وهى فى أعقابه ، وتشبث بالطائرة وصاح يقول : « كيف أركبها ؟ »

على أن المرأة كانت تشيعهما بصيحاتها هاتفة . « أمسكوهما ! أمسكوهما ! » . ورأى الرجال ذلك الذى كان على وشك أن يحدث فاندفعوا ليمسكوه ، وناضلهم ولكن اثنتى عشرة يداً كانت تمسك بساقيه وهو يتسلق الطائرة إلى مقعده ، وشعرت بهم يمسكونها

هى أيضاً ، وفى تلك اللحظة وضعت يدها فى صدرها طلباً للمسدس وصاحت به : « هاك ! » وتناوله منها ورفعه فوق رؤوسهم ودوت الطلقات فى الجو الجبلى الهادئ وجفل الرجال لحظة . وفى تلك اللحظة انحنى ورفعها من تحت إبطيها إلى المقعد معه ، وانطلقت الطائرة تتحرك وتدرج مجتازة الفناء العريض ، وارتفعت فوق الوجوه الذاهلة ، والأيدى الممدودة المتقبضة ، واجتازت السور ثم أخذت تشق عنان السماء ووضعت موللى يديها على فمه ، وصاح فى أذنها قائلا : « يجب أن نقوى الحصن »

فصاحت ترد عليه : « إنما هم على أبواب شنغهاى لم يتجاوزوها »

وصاح هو : « ليستولن على شنغهاى . ما أشق أهلها ! ولكن صبراً . لتكونن الحرب الحقيقية داخل البلاد فى الجبال . ولنكونن هناك للقائهم . ونحن متأهبون . لن نستسلم أبدا ، لقد انتظرت هذه اللحظة طول حياتى »

لقد كانوا يجتازون الآن الجبال التى قامت كأنها سور عظيم يحمى داخل البلاد ، ومضت موللى تطل عليها وعلى الوديان وتمد بصرها صوب البحر ، وراح صوته هو يهدر فى أذنها مرة أخرى :

« لأستخدمن رجالا كهذا الرجل ، وأشترى قاذفات قنابل »

ولم يكن قد ركب طائرة من قبل فى حياته ، ولكنه كان يجلس مطمئنا كأنما ألف أن يركب الطائرة كل يوم، وكان يدبر أمراً،فقد كانت مستطيعة أن ترى جبينه المقطب ، وصاح بصوت النفير : « بل لأسلمن نفسى إلى الحكومة . فإننا يجب أن نوحد قوتنا الآن »

وضحكت مولى وهزت أصابعها فى الهواء كأنما تكتب على آلة كاتبة موهومة .

وصاح يقول : « ماذا ؟ »

فهتفت : « هذا هو الوقت الملائم لجميع الصالحين » ، ولكنه هز رأسه ، ذلك أنه لم يستطع سماع صوتها،فقد كان خافتاغايةالخفوت . ولم تحاول أن تجيبه ، فقد كان حسبها أنه أصبح لها ، وكان بينهم وبين الأرض أميال ، وبدت الجبال كأنها سلسلة عقدت عقداً وامتدت فوق أديم الأرض .

وسمعت هدير النمر يطن فى أذنها : « لم لم تخبرينى فى الحال بأن اليابانيين قد جاءوا ؟ لقد كان ذلك كفيلا بتوفير الوقت »

وأخذت يده ومضت تخط بأصبعها فى راحته كلاما بحروف صينية «كنت أريدك أن تختارنى بلا عون من اليابانيين » ، ورفع

رأسه وضحك ، وسمعت أصداء ضحكته العالية ترددها الريح ، وصاح يقول :

« لقد اخترتك على باب دارى فى اللحظة الأولى التى وقع فيها نظرى عليك » .

وطوت يده وضمتها إلى صدرها مرة أخرى ، كانت يداً دافئة مليئة بالقوة . وراحت يده تضغط على صدرها ، والتفت الطيّار الشاب ليقول لهما شيئا ثم أشاح بوجهه سريعا ، ولكن النمر لم يحفل بالأمر .

وكان يهدر قائلا : « حرب ! هذا هو ما كانت تصبو إليه نفسى حقا » .

كان رجلا عجيبا لا يصدق أحد ما انطوى عليه إهابه ، ولو أنها حاولت أن تحدث مارى لين عنه لما استطاعت أن تصفه لها ، لقد كانت قصته جميعا شيئا لا يصدقه العقل ولا يقره واقع ، وهيهات أن تحدث فى أمريكا أو فى أى مكان آخر ، إلا هنا . لقد كانوا يطيرون فى أجواز السماء ، وقد سبقهم أعداؤهم فى الزمان والمكان ، ولكن الجبال كانت تمتد من تحتهم وقد امتلأت برجال عتاة جفاة ، هم رجال النمر ، يحرسون الأبواب الداخلية القديمة ، فاطمأن قلبها ولم يعد يساوره خوف ولا خشية .

وجه بوذا

لم يكن تيموثى ستاين يستطيع أن يفسر لأى إنسان سبب إقامته فى معبد قديم خارج مدينة تالى من أعمال يونان فى جنوبى شرق الصين . وكان الرجل يقيم فى هذا المعبد لعشر سنين خلت ، أى منذ بلغ الخامسة والعشرين . وما كان أيسر على من لا يستطيعون معرفته أن يتخذوا من قيامه بالتبشير سبيلا إلى معرفة شيء من حقيقته ! فإن انتماء امرئ إلى طائفة صغيرة تسمى البعثة الرسولية للحياة والشفاء كفيل بأن يُستخلص منه شيء . ولكن ما إن يسمح تيموثى لأحد بأن يتعرف به — وكان يفعل هذا على كره منه بعد انقضاء كل هذه السنوات الطوال — حتى يبرز ذلك السؤال الذى كان يخشاه ، ويبدأ بأساليب شتى ؛ فالإنكليزى يقول له « أى صديقى العزيز ، لا أحب أن أكون فضوليا ولكن ... » ، والفرنسى يقول « لا شك أن الحياة التى تحياها مثيرة ممتعة ولكن إذا سمحت لى بأن أسألك » ، أما الأمريكى فيقول « إننى أكره الفضول ولكن ... » ، على أن خاتمة السؤال كانت واحدة مهما اختلفت بدايته ، والحق أنه كان يدور حول السبب الذى يدعو

تيموثى ستاين . وريث ملايين ستاين، إلى الإقامة فى معبد قديم فى تالى.

وكان تيم يجيب عن السؤال حسب ما يكون مزاجه فى اليوم الذى يوجه إليـــه فيه ، فقد يشير من شرفة المعبد مومئا إلى البحيرة وجبالها التى يطوقها الجليد ، وكان سائله يعرب عن إنكاره لقوله حسب ما تملى عليه جنسيته ؛ فما من ريب أن البحيرات تقوم فى أمريكا وفى سويسرة ، بل وفى كل مكان ، فإذا ذكر سائليه بصلته بالبعثة الرسولية اختلف إنكارهم من ابتسامة تراود الإنكليزى إلى قهقهة عالية تنطلق من فم الأمريكى. ومن ذا الذى يستطيع أن يأخذ قصة لبعثة الرسولية مأخذ الجد وهو يرى فى القاعة الكبرى للمعبد ، التى جعل منها تيم غرفة لجلوسه ، تمثالا كبيراً من الذهب لبوذا يبلغ حجمه خمسة أمثال حجم الإنسان ؟ .

وعلل تيموثى الأمر بقوله : « لقد اشترط على رئيس المعبد العجوز شرطا واحداً ليؤجره لى ، هو ألا أنقل بوذا الكبير من مكانه وإلا حلت النكبات بتالى، فقلت له إذا كانت الحال كما تقول فلن أنقله من مكانه » .

أما مالم يستطع تيم تعليله بطبيعة الحال فهو ذلك الشعور الذى حدا به إلى أن يجعل زخارف الغرفة تحيط ببوذا الوسيم بحيث كان كل ما يقال أو يفعل فى الغرفة يبدو كأنما يحدث فى حضرة

بوذا القوى الغامض ؛ ذلك أن بوذا لم يكن ظريفاً وإن كان الوجه الذهبي الضخم ناعماً تنطق أساريره بالود ، وقد أسند يداً ضخمة إلى ركبته المطوية باسطاً إياها إلى أعلى ورفع اليد الأخرى كأنما يستعتب فى هدوء . إن بوذا كان أقوى من أن يكون ظريفاً ، وكان الأشخاص التافهون الذين يدخلون هذه الغرفة ينتابهم الضيق إن عاجلا أو آجلا ثم يختفون من حياة تيم دون أن يكلف نفسه مشقة التخلص منهم ، أما أولئك الذين كانوا يستطيعون البقاء فى ظل ذلك الوجه الذهبي القوى فقد تبين له أنهم أهل لأن يظلوا أصدقاءه ، على أنه أدرك أن من العسير عليه تعليل هذا .

وكذلك كان من العسير عليه أن يعلل تلك الترانيم البوذية التى كانت تنساب فى غرفته فى باكورة الصباح وعند غروب الشمس ، وكان تيم لا ينفك يقول صادقاً إنه لا شأن له بهذه الترانيم . وعندما تسلق لأول مرة التل الذى يغشاه الغاب الهندى ويقوم عليه المعبد ورأى من تحته البحيرة الزرقاء والأسقف السوداء لمنازل المدينة ثم رفع عينيه ووقف وجهاً لوجه أمام الجبال التى يتوّجها الجليد ، بادر فعرض من فوره على رئيس المعبد العجوز الذى يقف بجواره إيجاراً يجعله هو والكهنة الثلاثة العجائز فى غنى طول حياتهم ، ذلك أن أهواء الناس كانت متقلبة فى تعلقهم بالمعابد فى تالى ؛ فقد كانت النساء فى ذلك الوقت بالذات يختلفن إلى معبد كبير جديد

فى المدينة يقوم عليه كهنة شبان من ذوى الطلعة الوسيمة ولا يقتضى الحال فيه الواحدة منهن إلى دفع شىء من المال لتحمل صاعدة سفح الجبل ، على كرسى خرع من الغاب ربط فى عمودين بحبال بالية ، وكن يبررن ذلك بأن بوذا الذهبي الكبير قد تقدمت به السن وأصبح يهمل إجابة صلواتهن ، ومن ثم فإنهن يقصدن معبداً آخر من قبيل التغيير .

وكان رئيس المعبد مقدراً للجميل ، فقبل فى الحال عرض الأمريكى الشاب ، ولكنه اشترط عليه ألا ينقل بوذا الكبير من الطرف الشرقى للمعبد الرئيسى وأن يحتفظ هو وإخوانه الكهنة لأنفسهم بالفناء الصغير الأقصى ؛ إذ لم يكن لهم فى هذا العالم مأوى آخر يأوون إليه ، ذلك أنهم أنكروا أسرهم منذ زمن طويل ، وما من شك أنها قد نسيتهم ، ثم إنهم كانوا قد لجأوا إلى حمى هذا المعبد ، وأصبحوا بذلك فى حرج — وهم عبدة الآلهة الأقدمين — من أن يعودوا إلى الناس وأن يحاكموا على ما اقترفوا من جرائم القتل وبعض الجرائم الأخرى .

ووافق تيم على كل شىء ، وعيناه لا تبرحان البحيرة . على أن أسوأ اللحظات التى مرت به كانت هى اللحظة التى جاء فيها رئيس البعثة الرسولية من تينيسى للتفتيش عليه .

وقال الرجل الصالح : « إنك لا تستطيع العيش مع صنم في عقر دارك »

فقال تيم صادقا كل الصدق : « إنى لأجده يقوى إيمانى »

فهتف الرجل الصالح : « وهؤلاء الكهنة الوثنيون ؟ »

فأجابه تيم : « إنهم يحترمون عقيدتى »

وكان تيم لا يتقاضى مرتباً من البعثة فأمسك الأب الموقر جوزيف برام ولم يزد ، ولقد كان خليقا أن يسأله : « لم التحقت ببعثة من بعثات المبشرين من مبدأ الأمر إذا كنت قد انتويت الإقامة فى معبد وثنى ؟ » ، ولكن الأب برام كان رجلا جاداً غاية الجد فلم يخطر له أن يسأله هذا السؤال ، وانصرف وهو يقول بينه وبين نفسه إن الله له فى خلقه شئون وإن هذا الشاب الواسع الثراء كان من أغرب من وقعت عليه عينه من الناس !

على أن تيم كان قد ألقى على نفسه هذا السؤال عدة مرات : إذا كان قد شاء الإقامة حيث يستطيع مشاهدة بحيرة تالى فما باله لم يأت إلى هنا فقط ليقيم ، طالما أنه لم يكن ينفق إلا من حر ماله؟ وكان الجواب عن هذا السؤال غامضا ومع ذلك فقد اهتدى إليه. لقد كان ماركو پولو هو أول من أغراه بالقدوم إلى تالى ، ذلك أنه جاء فى نهاية الصفحة التى يصف فيها ماركو پولو مدينة عظيمة ،

فى الفصل التاسع والخمسين من الكتاب الثانى ، حاشية تقول إن هذه المدينة هى تالى وإن البحيرة القائمة هنالك ذات جمال رائع أخاذ . وكان تيم فى الثامنةعشرة فىالسنة التى قرأ فيها هذا الكتاب ، وكان الابن الوحيد لأم غاية فى الرقة حتى إن المنية أدركتها وهو فى الثانية عشرة ، ولأب غاية فى القوة حتى بدا أنه سوف يعيش إلى ما شاء الله ، وقد سلم فريد ستاين دون أن يخامره شك بأن ابنه سيواصل تجارة الذخائر .

وكان آخر ما يريد تيم أن يفعله هو أن يتولى صناعة أى شىء ، ولكنه تحاشى أن يقول هذا ، لأنه كان شغوفاً بأبيه بطريقته الخاصة ، على أنه وجد لنفسه مهرباً آخر .

وحدث من بعد فى السنة نفسها أن سمع مبشراً أشيب الشعر قادما من الصين يتحدث فى الكنيسة مساء يوم من أيام الآحاد . وكان الرجل يحمل ألواح فانوس سحرى ، ولكن تلك الألواح لم تكن جيدة كل الجودة فلم يثر الرجل اهتمام أحد قدر ما أثار اهتمامه هو ، وإنما كان ذلك بسبب ماركو پولو ، ولم يقل الرجل آنئذ شيئا آخر يثير اهتمامه .

« إننا نؤمن بتطبيب الناس والدأب على فعل الخير فى هدوء » .
وقد ألقى المبشر حديثه هذا بطريقة ذكرت تيم بأمه ، ثم اعتلى

تيم المنصة من بعد وتحدث إلى الحاضرين ، وإن كان زملاؤه قد أمسكوا عن ذلك ، ثم حدثه الشيخ قليلا عن الصين فتذكر مرة أخرى أن تالى تقوم هنالك . وخطر لتيم فجأة أنه لو قال إنه يريد أن يكون مبشراً لحق على أبيه أن يدرك السبب الذى يحمله على السفر إلى الصين للإقامة فيها ، ذلك أن أباه كان شيخا من شيوخ الكنيسة ، ولم يدرك أبوه الموقف تماما كما كان يرجو ، ولكن تيم ظل مستمسكا برأيه فى سكون لا يريم . وراح أبوه يفثأ عناده فى سورات من الغضب ، ومن ثم قضى تيموثى عشر سنوات حيث كان يود أن يقيم ، ولم يعكر صفوه إلا نوبات من الشعور كانت تنتابه وتزين له أن يبدأ حياة التبشير يمضى فيها إلى ما شاء الله .

وفيما عدا ذلك مضت السنوات العشر على نحو رضى طابت له نفسه ، ولم يحدث فى ثمان منها ما يجعل إحداها تختلف عن الأخرى ، وهذا ما كان يريده تماما . فقد قضى هذه السنوات فى قراءة كثير من الكتب وفى تجميل منزله ، والوقوف من حين إلى حين على أحوال تالى وشئون أهلها ، وحار أهل تالى هم أيضا حيرة شديدة فى أمر إقامته بمعبد الغاب ، واكتفوا بأن أطلقوا عليه اسم « الكاهن الأبيض » .

وانتهى السلام الذى نعم به خلال تلك السنوات الثمانى فجأة

ذات ليلة فى أواخر يولية سنة ١٩٣٧ ، وكان تيم يقضى هذه الأمسية ، كما قضى أمسيات كثيرة بصحبة رئيس المعبد العجوز ، الذى كان قد علمه أن يقرأ الصينية ويكتبها . كانا يتناقشان فى الفلك ، فقد استوقف نظرهما عدد عظيم من النجوم الكبيرة المتلألئة تتهاوى من ثريات السماء أمام أعينهما .

وكان رئيس المعبد يقول وهما يراقبان هذه العناصر من عناصر الطبيعة : « إن النجوم المتهاوية نذير بتغير الأحوال ، فإن التاريخ يحدثنا بأنه ما من نكبة حلّت بالصين إلا وأنذرت بها نجوم كبيرة متلألئة تتهاوى » . لقد كان رئيس المعبد فلكيا أيضا .

وفى تلك اللحظة جاء أحد الكهنة إلى الباب المستدير للشرفة التى كانا يجلسان فيها .

وسأله رئيس المعبد : « ما وراءك ؟ »

فأجاب الكاهن فى اضطراب : « لقد جاء مأمور تالى صاعداً الجبل فى عجلة من أمره »

وسأله رئيس المعبد : « وى ! فى هذه الساعة وبعد كل هذه السنين ؟ »

فأجاب الكاهن : « إنه يريد أن يصلى لبوذا الكبير ، فقد جاءت أنباء سيئة من القصبة الشمالية »

وسأل رئيس المعبد تيم فى أدب : « أيضايقك هذا ؟ »

فأجاب تيم دون أن يأتى بحركة : « كلا ألبتة »

وبقى حيث هو يلفه الظلام الرفيق الحانى ، واندفع المأمور إلى الشرفة تتطاير ملابسه من حوله وحاشيته يترا كضون خلفه ، فغاب عنه ذلك الرجل الأمريكى نفسه الذى كان جالسا على الكرسى القش قرب حافة الشرفة التى بدت كأنها معلقة بين السماء والأرض ، ومضى لتوه إلى المعبد وأمر بالشموع الحمراء التى جاء بها معه أن توقد أمام بوذا الكبير ، وأن يحرق البخور أيضا ، وتوضع الوسادة الحريرية على الأرض حتى تهون من وقع رأسه على الأرض ؛ فقد كان ينتظر أن يجد هنالك البلاط المألوف الذى يغطى أديم المعابد ، وتوقف فى صلاته ليعلق على ما رآه من سمك طنفسة تيم العجيب ونعومتها الفذة ، ثم مضى يصلى مجاهراً بصوته ، وقد فهم تيموثى صلاته ، ذلك أنه كان قد أتقن الصينية إذ ذاك .

« أى بوذا المبارك ، أخرج الأقزام اليابانيين من القصبة الشمالية ، فإذا عز إخراجهم فدعها لهم ، وإذا جاءوا إلى شنغهاى فأخرجهم أى بوذا ، فإذا عز إخراجهم فدعها لهم ، ولكن لا تدعهم يأتون إلى تالى أى بوذا ! وإنى لأعدك إذا لم يأتوا إلى هنا بأن أجعل هذا المعبد أغنى وأشهر معبد فى العالم ، ولأحملن قومى

على أن يعبدوا بوذا الذهبي العظيم ، ولئن سمحت لليابانيين بأن يظفروا منا ولو بقلامة ظفر ، لأسوين المعبد بالأرض وأحيلنك أى بوذا إلى تراب أصفر ! »

وما إن انتهى المأمور من صلاته حتى انتصب واقفا ، وأبدى أن ركبتيه لم تتعفرا كما كان يحدث لهما دائما بعد صلاته فى المعابد ، ثم ولى .

وكانت هذه هى المرة الأولى التى سمع فيها تيم بغزو اليابانيين للصين ، وسمع بذلك للمرة الثانية من أبيه فى فيلادلفيا .

فقد كتب إليه أبوه يقول : « إن اليابانيين هم أحسن عملائنا فى الوقت الحاضر ، وقد بلغنى أن القتال سوف يقع فى شمالى الصين خاصة ، فخير لك أن تبقى حيث أنت » .

ولم يكن أمامه شىء يستطيع أن يفعله لليابان أو لأبيه ، وقضى تيم وقتا طويلا يفكر فيهما جميعا ، ووقتا أطول يفكر فى تلك الملايين التى سوف يرثها يوما زيادة على ما له لأن عدداً كبيراً من الصينيين سوف تقتلهم ذخائر ستاين ، ولكن لم تكن له حيلة فى هذا أيضا ، وإن كان الأمر قد انتهى به شيئا فشيئا إلى التفكير فيه ليل نهار ، وأكثر وأكثر . وكان وهو يفكر يجلس فى غرفة جلوسه التى تطل على بوذا الكبير ، ولم يكن خادمه قد أزال

شموع المأمور الحمر أو تخلص من البخور ، ذلك أنه لم يكن قد حدثه بشأنها ، فبقيت حيث هى . ولم يكن فى ذلك بأس أيضاً ، فقد أخذ عدد من أهل تالى يتذكرون الآن بوذا الكبير ، بعد أن ظل سنوات طويلة لا يخطر لهم ببال . فمضوا يتسلقون سفح التل الذى يظلله الغاب ليجثوا هنالك فى غرفة جلوس تيم ، وكان العامة لايزالون يختلفون إلى المعابد الأحدث عهداً من هذا المعبد . ولكن تيم ألف أن يحمل نفسه على مغادرة غرفته بضع دقائق على حين يأخذ سادة محترمون يرتدون ثياباً عتيقة الزى من الأطلس المطرز وسيدات علا رؤوسهن المشيب وقيدت أقدامهن يدخلون غرفته متجاهلينه كل التجاهل ، ثم يوقدون الشموع الحمر أمام بوذا ويصلون دائماً ابتغاء شىء واحد .

« خلصنا ياإله السموات من أعدائنا اليابانيين »

وسمع تيم هذه الصلوات ولاحظ تشابهها ، فخلص من ذلك أن اليابانيين ولاشك بسبيل الفوز فى الحرب . وكان البريد يبطىء دائماً فى وصوله إلى تالى ، حتى أصبح الآن لا يعول عليه ألبتة ، وكان إذا وقع نظره على جريدة وجد أنها تحمل تاريخاً متاخراً جداً يجعلها غير خليقة بأن تقرأ ، وكان هذا الأمر من قبل نعمة من نعم تالى ، ولكنه أصبح الآن من أسباب المضايقة . وراح يتمنى جاداً لو استطاع أن يفعل شيئاً حيال هؤلاء اليابانيين ، وقضى وقتاً

طويلا فى كرسيه المريح فى ظل عينى بوذا الذهبيتين محاولا التفكير فى عمل يستطيع أن يقوم به ، ولكنه لم يهتد إلى شىء .

ودخل عليه رئيس المعبد ذات ليلة وهو جالس جلسته هذه ، وتبادلا التحية المألوفة وأحضر وانغ الخادم الشاى ، ثم قال رئيس المعبد فى هدوء ، كأنما لم يأت إلا بأنباء عادية :

« أوسمعت بأنه سيتوفر لنا طريق جديد يخترق تالى ؟ »

فقال تيم : « كلا » ، ذلك أنه لم يطرأ على مشارف تالى شىء جديد منذ خمسة قرون .

فمضى رئيس المعبد يقول : « سيطهر الطريق القديم لتجارة الحرير الذى يؤدى إلى الهند ويستخدم مرة أخرى ، وهو الطريق الذى كان يستخدمه أجدادنا فى تجارتهم مع اليونان وفارس ومصر ، بعد أن ظل مغموراً فى زوايا النسيان قروناً ، وستحل الآن سيارات النقل محل الجمال التى كانت تجتازه يوماً محملة بالحرير »

وقال تيم : « ولكنها لن تحمل الحرير »

فأمن رئيس المعبد على ذلك بقوله . « أجل ، لن تحمل الحرير »

وكانت اليابان فى ذلك الوقت قد أخذت تستولى على موانى الصين ، ميناء فى أثر ميناء ، وتسد المنافذ على الصين كأنما تضع سدادة على زجاجة .

وقال تيم : « ويطاح إذن بقاع الزجاجة »

فقال رئيس المعبد مؤمنا : « لا بأس من أن تصفه بهذا الوصف. إن شيئاً ، أوقل إن الباب الخلفي سوف يفتح أو إن جسراً سيمد أو إن ثقبا سيحفر في السور الكبير »

وقال تيم مفكراً : « آه ! »

ثم جلس صامتا مستغرقا في تأملاته وقتا طويلا حتى أدرك رئيس المعبد أن تيم يود لو رحل فانصرف ، وتبعه تيم حتى حافة الشرفة وهو يرجوه أن يبقى وابتسم رئيس المعبد وانحنى له .

وقال : « لا شك أنك كنت واحداً منا في حياة سبقت هذه الحياة ، وإنما جعلك بوذا تتجسد مرة أخرى في الصورة التي أنت عليها الآن لتؤدي غرضا خاصا يشاؤه هو »

ومع ذلك فإن أفكار تيم لم تهده إلى شيء وقتئذ ، وبدأ الطريق الجديد في الظهور وراء أسوار تالي على هيئة شق من الأرض البكر يتوسط حقولا عنيت بها أجيال من أيدي البشر وكستها ببساط أخضر ، وأثار ذلك خياله ولكنه لم يوح إليه بشيء .

وعاد متأخراً عصر يوم من نزهة خرج فيها لمشاهدة الطريق الجديد ، وتوقف على عتبة المعبد القديم إذ سمع صوتاً فتياً قوياً ينطلق بصلاة من طراز جديد .

« أى بوذا ! امنحنى عشرة آلاف بندقية ! أجل عشرة آلاف بندقية أمريكية ليست من الطراز العتيق المقبض ، بل من البنادق القصيرة القوية التى تنطلق منها النيران بسرعة ! »

وتملكت الدهشة تيم ، ماذا يستطيع حتى بوذا نفسه أن يفهم من هذا ؟ ونظر خلال الباب العريض فرأى أمام التمثال شاباً صينياً يرتدى السترة الزرقاء القصيرة والسروال اللذين يرتديهما الفلاحون وكان عجيباً فى طوله وقوته . وأدار الشاب رأسه ، ورد على نظرة تيم بنظرة من عينيه السوداوين الجريئتين .

وقال تيم معتذراً : « لا تقطعن صلاتك بسببى »

فأجاب الشاب : « لقد فرغت من الصلاة ، وإذا كنت وأنت كاهن بوذا . . . »

فقال تيم متعجلا : « لست كاهن بوذا ، ولكن لم يسعنى إلا أن أسمع ما ابتهلت به إليه ، من أنت ؟ »

فقال الشاب بغير اكتراث كأنما كان رجلا من سواد الناس: « يسمينى القوم الذئب الأصفر »

وأخفى تيم الفزع الذى أحس به فى قرارة نفسه ، وقال : « لقد سمعت عنك »

فأجاب الشاب دون أن يصطنع التواضع : « ما من أحد إلا

سمع عنى ، فإن لدى عصابة من ألف وخمسمائة مقاتل بارع ولدى خمسة آلاف بندقية غنمناها من جنود الحكومة الذين كنا نوقع بهم الهزيمة من حين إلى حين ، وسنقاتل اليابانيين الآن بدلا من الجنود ولكن يجب أن نحصل على مزيد من البنادق أولا »

صحيح أن كل أهالى تالى كانوا يعرفون الذئب الأصفر ، ولكن قل منهم من رآه رأى العين ، وما كان أحد يعرف من هو . فقد راح يتجول فى الريف يسلب وينهب على رأس عصابة جمعت كل من شاء أن يتبعه .

وسأل تيم فى رقة ولطف : « أليس من العسير على بوذا أن يجد عشرة آلاف بندقية أمريكية ؟ »

فأجاب الشاب بتلك البساطة المعهودة فيه : « إن لبوذا وسائله »

وكان تيم قد دخل الغرفة وهما يتحدثان ، ووقفا تحت بصر التمثال الذهبي الضخم مباشرة ، وكان هذا التمثال خليقاً بأن يجعل أى رجل يقف حياله يبدو قزما إلا هذا الرجل ، ووقف الذئب الأصفر هادئا منتصب القامة جريئا كل الجرأة لا يحفل بشيء ، وتطلع تيم إلى الوجه الذهبي ، ولم يكن يؤمن بالخرافات قط ، ذلك أنه كان يعلم أن بوذا قد صنع من صلصال تالى الأصفر المغطى برقائق الذهب . أما أن التمثال الضخم قد بدا بهذا الجمال الرائع فإنما

يرجع السبب فيه إلى أن الصلصال الأصفر قد وقع فى يد مثال عظيم مجهول بدلا من أن يقع فى يد صانع عادى ينحت الأصنام. ومع ذلك فقد شعر ، والشاب يتحدث وهو منصت إليه ، بشىء يضغط على عقله فى رفق وثبات . لقد كانت فكرة ، وخطرت له هذه الفكرة فجأة وهو ينظر فى عينى بوذا الكبير ، وتكشفت كأنها زهرة اللوتس تتفتح فى الشمس .

وقاومها تيم فى ثبات ، ثم خاطب الوجه الذهبى بالإنكليزية فى صوت مرتفع : « لم أوت القدرة على أن أفعل هذا »

وقال الشاب بالصينية : « ماذا تقول ؟ »

فأجاب تيم فى حذر : « يتعذر إجابة صلاتك ، فكيف يكون الحال إذا لم تستخدم البنادق ضد العدو واستخدمت ضد أهل تالى ؟ »

فضحك الشاب لحظة ثم قال : « إن بوذا يعلم طويتى » ثم انصرف دون أن يزيد حرفا ، وتبعه تيم من قبيل الفضول فقط فرآه يجتاز الأفنية كأنما كان يعرفها جميعا ، ثم تريث فى الفناء الأخير ليحادث شخصاً ، وكان ذلك الشخص هو رئيس المعبد العجوز . وشاهد تيم من خلال الأبواب الرجلين يتصافحان فى ود وألفة ، ووقفا يتحدثان وقد أمسك كل منهما بيد أخيه ، ثم أومأ الشاب برأسه وانصرف .

لقد ألف تيم أن يعيش فى جو من الأسرار . أما هذا الذى رآه ، فإنه على ما دار بينه وبين نفسه ، قد زاد هذه الأسرار غموضاً على غموض . غير أن تيم لم يمض إلى رئيس المعبد العجوز الذى وقف على بعد منه يرقب الذئب الأصفر وهو يقفز بين شجر الغاب المندى مصعداً إلى أعلى الجبل ، وقضى تيم عصر اليوم بطوله مستغرقاً فى التفكير ، وإنما مضى للقاء رئيس الدير فى صومعته عندما حل المساء ، وكان رئيس الدير يستخرج الطوالع .

وسأله تيم فى اقتضاب : « أتستطيع وأنت ممثل بوذا أن تضمن الذئب الأصفر ؟ »

فقال رئيس المعبد . « أضمنه فى موضوع البنادق ؟ »

فأجابه تيم : « بالضبط »

وحدق رئيس المعبد النظر فى بعض الرموز التى كان قد رسمها على الورق بفرشاته الحادة الطرف المصنوعة من شعر البعير .

وقال : « من الجلى لدى القوم هنا أن الذئب الأصفر سيغدو قائداً ذائع الصيت ، وستصفح الحكومة عن كل ما اقترف من آثام »

وسأله تيم : « وأنت ؟ »

فقال رئيس المعبد : « إنى أضمنه » ، ثم أردف : « وكيلا عن بوذا بطبيعة الحال »

وقال تيم متأملا : « إذن لآتين بعصاى وأمضين إلى المدينة فإن الأفاعى تخرج من جحورها بليل »

فأجابه رئيس المعبد قائلا . « افعل »

وتوقف تيم فى رجوعه لحظة متطلعا إلى الوجه الذهبى ، ولم يجد أى تغيير ألم بهذا الوجه فمضى إلى حال سبيله .

وهبط الطريق الجبلى الملتوى المرصوف بالحجارة ، وكان ضوء القمر ساطعا متلألئا فلم يحس بحاجة إلى مصباح ، وبلغ سور المدينة ، إلا أن الباب كان مغلقا فجذب حبلا وانفتحت كوة صغيرة أطل منها الحارس .

وقال : « آه ! الكاهن الأبيض » ، ثم جذب المزلاج الخشبى الكبير ، وفتح الباب بحيث يسمح بولوج جسم تيم الرشيق .

ونفحه تيم بقطعة من النقود ثم اجتاز شارع المدينة الضيق الهادئ إلى مكتب البرق الصغير وأرسل برقية إلى أبيه :

« إذا استطعت الحصول على عقد من صديق فهل تبيع بالسعر نفسه الذى بعت به للأعداء ؟ تيم »

وأيقظ الكاتب الذى كان نائما على المنضدة ، وقرأ الرجل القلة من الكلمات بصوت مرتفع دون أن يفهم كلمة واحدة منها ، ذلك أنه كان يفخر بلغته الإنجليزية التى تعلمها فى المدرسة الثانوية .

وقال تيم : « أصبت »

وتلقى رد أبيه بعد يومين :

« لم لا ؟ نقداً . لك حبى . أبوك »

وأبرق إليه أبوه بعد أسبوعين يقول : « قابل براونل فى لاشيو وأرسل الثمن »

وكان تيم قد نسى كيف يعقد الأمريكيون الصفقات ، وجاءه خادم مبهور الأنفاس يحمل البرقية وهو يزرع بعض الأقحوان فى الشرفة ويفكر فى الذئب الأصفر ، ودس البرقية فى جيبه وزرع الأقحوان بسرعة المندفع المتهور ، ذلك أنه خليق بأن يحتاج إليها بعد ، ثم هرع إلى مكتب البرق .

وأبرق إلى أبيه يقول : « إننى مسئول شخصياً عن الدفع نقداً »

ومضى هو ووانغ فى اليوم التالى مجتازين الطريق الجديد ، وكان هذا الطريق يسير فى ريف البلاد كأنه أثر تخلف من عاصفة ، مجانباً تالى ببضعة أميال فقط . ولم يكن الناس قد شهدوا مثل هذا الطريق قط ، وكان يزداد فراسخ — أو هكذا يبدو — كل بضعة أيام ، وقد كان هناك بالفعل آلاف من المخلوقات الصغيرة اكتست بلون الثرى تعمل فى هذا الطريق كأنها العث ، كانوا رجالا ونساء مهلهلى الثياب يعملون من غير استعانة بآلات ، ولم تكن فؤوسهم

وسلالهم الصغيرة المثبتة فى قضبان الغاب إلا لعباً ، ولكنهم كانوا يشقون الطريق أمامهم على نحو ما باطراد وسرعة ، وتبين تيم بجلاء وهو راكب السيارة القديمة التى اشتراها من دكان حداد فى تالى أن الطريق قد تم بالفعل أو كاد ،وغدا ممهداً لمرور سيارات النقل ، وإن كان خطراً ؛ إذ أنه كان طريقاً جديداً ، لم يختبر بعد ، ثم إنه ينشق بين الصخور فوق قنن الجبال ثم يلتف ويلتوى فى منحنيات مروعة مؤدياً إلى الوديان ، ومع ذلك فقد كان اجتيازه ممكناً ؛ إذ استغرق أربعة أيام فقط . وكان وانغ يجلس فى المقعد الخلفى ومعه صندوق الطعام المصنوع من الصفيح ، وكان تيم يرى فى مرآة السيارة وجه وانغ ، عشرين مرة فى الساعة الواحدة ، وقد ارتسم عليه الرعب وهو يقفز إلى أعلى .

وكان يناديه بعد كل مطب : «جاءت سليمة .. أليس كذلك ؟»

وكان وانغ يجيب دائماً فى صوت رفيع رابط الجأش : «سليمة»

إلا أنهما اضطرا قبل أن يبلغا بورما إلى ترك السيارة ، فقد توقف الطريق فجأة كأنما كانت هذه نهايته ، وامتد أمامهما مستنقع كبير لم يستطع تيم أن يراه وإن كان قد تسلق السيارة ووقف على سطحها . وكانت المخلوقات الصغيرة لا تزال تعمل فى المستنقع ولكنها بدت الآن شبه عارية أضنتها الحرارة ، بل إنه رأى وهو

يرقب المشهد واحداً يسقط هنا وآخر يسقط هناك ، ولم ترتفع لهم من بعد قامة ، وهبط من أعلى السيارة ووقف على قشرة من الأرض السوداء كانت تهتز تحت قدميه ، وأقبل نحوه فى بطء شخص صينى فى زى رسمى يبدو عليه المرض ، فقد كانت عيناه الغائرتان تتوهجان بالحمى تحت خوذته الموحلة .

وسأله تيم : « أوأستطيع المرور ؟ »

فأجابه قائلا : « أجل ولكن بغير سيارة ، فإن الطريق لم يعبد بعد ، ولكنك تستطيع اجتياز عشرين ميلا على قدميك ، ثم يبدأ الطريق مرة أخرى »

« أوأستطيع اجتياز الطريق على قدمى فى يسر ؟ »

« أجل ، ولكن لا تدع عينك تغفل ، فهذه بلاد النمور ، بلاد شويلى ، وإذا توقف إنسان دهمه المرض ، أما إذا أخذته سنة من الكرى قتله النوم »

وعاد تيم إلى سيارته وقال : « هلمّ يا وانغ ، فلا مناص من أن نترك السيارة ونسير قليلا »

وترجل وانغ من السيارة ، وربط صندوق الطعام إلى ظهره بسيره الجلدى الأزرق الطويل ، وجر تيم السيارة إلى ضفة المستنقع وأغلقها ومضيا فى سبيلهما ، وكان ثمة طريق للمارة لا تكاد تراه

العين يؤدى إلى الدغل فيما وراء المستنقع .

وتشبثت بجسمه الحرارة المتأججة المتراقصة كأنها الغراء ، ورأى ، أو خال أنه رأى ، الأفاعى تتدلى من الأشجار ، وتزحف تحت قدميه ، وتتلوى حول الصخور . ولو لم يجد هذا العدد الكبير من الأفاعى لألفى نفسه مكرهاً على النوم حتى لو تذكر أن النوم معناه الموت ، وكان يتذكر وانغ بين الحين والحين فيلتفت خلفه .

« أبخير أنت ياوانغ ؟ »

فيجيبه وانغ بصوته الرفيع : « بخير » ، وعيناه جاحظتان والعرق الغزير يتصبب من وجهه .

وكان الهواء من حولها راكداً راسخاً ، وقد أطبق عليهما رطباً لا يريم ، ولم يجد بداً من أن يشق طريقه كأنما كان يجتاز جدولا من الماء ، واستغرق الرجلان فى اجتياز العشرين ميلا إحدى عشرة ساعة ، وبلغا الضفة الأخرى وراحا يساومان سائق سيارة نقل عائدا إلى لاشيو ، ثم دلفا إلى السيارة وناما على البطيخ الأخضر ، وظلا يتقلبان ساعات فى طريق وعر خشن ، وما إن بلغا لاشيو حتى اقتضى الأمر أن يهزّا هزاً حتى يستيقظا .

وقال له براونل فى فندق لاشيو الصغير « ... الملاريا السوداء » ، وكان براونل رئيساً لموظفى أبيه فى سنغافورة ، وقد جاء بالشحنة

إلى لاشيو وهو يتساءل هل فقد رئيسه فى الولايات المتحدة عقله؟ أجل لقد كان هذا شأنه وهو ينتظر تيم الشاب مطيعاً للأمر الصادر إليه. وكان تيم الشاب، كما يعلم الجميع، مجنونا بلا شك؛ فقد ظل حبيس معبد صيني سنوات، ولم يزده اعتزال الناس فى المعبد إلا جنوناً فى نظر الناس.

وقال براونل لتيم: «إنك لمجدود إذ أمكنك اجتياز المستنقع، فإن بعوضة صغيرة جداً لا تدركها العين خليقة بأن تعضك بضع عضات، وما إن تنقضى برهة وجيزة، قد لا تزيد على يوم أو يومين، حتى توردك موارد التهلكة»

فأجاب تيم: «أحقاً تقول؟»، وكان يفكر فى ذلك المستنقع الذى تعمل فيه تلك المخلوقات الفاترة الهمة التى كانت تتساقط هنا وهناك ملاقية حتفها، وهيهات أن ينتهى الطريق إذا ترك الأمر لهم دون سواهم. وكان بعض هؤلاء المخلوقات خلو اليدين من الفؤوس والمجارف، وقد جمعوا التراب فى سلال بأيديهم العارية، وقال الملاحظ إن الطريق سيتم شقه فى سبعة أيام، وربما تم ذلك فى سبعة أيام بالفعل. لقد كان ما عبد من الطريق حتى الآن معجزة، ولم يكن مفر من معجزة أخرى لإتمامه.

وقال لبراونل: «ستنقضى بضعة أيام على كل حال قبل أن يمهد

فى هذا المستنقع طريق تجتازه سيارات النقل »

فأجابه براونل : « لقد انقضت بضعة أيام بالفعل فيما علمت ممن ينتظرون المرور ، وقد صدر إلىّ الأمر بأن أسلمك الشحنة وأعود أدراجى »

فقال تيم : « حسناً ، وإلىّ بالشحنة إذن »

ووجد نفسه فى الحال صاحب ثروة من البنادق الأمريكية لم يكن بد من أن يدفع ثمنها نقداً إلى ستاين وشركاه بالولايات المتحدة الأمريكية

وقال بينه وبين نفسه وهو يكتب الصك : « أحمد الله على أننى الابن والوريث » ، وكانت هذه المرة الأولى فى حياته التى شعر فيها بالسرور ، وقضى عشرة أيام فى جمع سيارات النقل والسائقين ، وفى صبيحة اليوم الحادى عشر كان متأهبا للرحيل . لقد كان فخوراً بتلك القافلة من سيارات النقل ، ولو أن منظر السائقين كان كقطاع الطرق . وكانت لاشيو تزخر بسيارات النقل القديمة وبالسائقين قطاع الطرق الذين يملكونها ، ذلك أن قيادة سيارة للنقل فى طريق بورما كانت تعود على السائق بثروة فى هذه الأيام ، بل هى تفضل قطع الطرق . وعندما يتم شق الطريق تماما ، إذا قدّر له أن يتم ، فإن رحلتين اثنتين خليقتان بأن تغنيا المرء طول عمره ،

ومن ثم كان الفرح يستخف السائقين .

وصاح تيم : « هل أنتم مستعدون ؟ »

فأجابوا قائلين : « أجل ، مستعدون ! » ، فى حشد من الأصوات المتعددة ، وغادروا لاشيو وهم ينفخون أبواق سياراتهم ويتصايحون.

وراحت هذه القافلة تقعقع من خلف تيم حتى بلغ تيم المستنقع ورأى ما حدث فى تلك الأيام الأحد عشر ، فقد تزحزح المستنقع من مكانه . وأبصر على طول الأميال التى قطعها هو ووانغ مترنحين على أقدامهما بقعة عريضة من الطين الأسود ، بل مستنقعا ليس له قرار ، وأقبل نحوه رجل صغير فى زى أبيض موحل ، وكانت الحمى تضطرم فى عينيه اللتين تظللهما خوذته .

وسأله تيم بالصينية : « كم نبقى هنا حتى نستطيع المرور ؟ »

فأجابه الرجل فى إنكليزية سليمة : « قل سبعة أيام ولكننا نستبدل برجالنا رجالا آخرين كل بضعة أيام إذ أن الموت يدركهم بسرعة كبيرة ، وهم الآن يرفضون المجىء ، لأنهم يعلمون أنهم لو جاءوا للقوا حتفهم »

وقال تيم : « لم تكن أنت هنا عندما اجتزت المستنقع فى طريق قدومى »

فأجابه الرجل قائلا : « لقد حللت محل آخر وسيحل آخر محلى »

وقال تيم : « يبدو ألا مفر من أن ننتظر »

فأجاب الرجل : « كثيرون ينتظرون » ، ومضى إلى موقفه ، وعاد تيم بالقافلة إلى فندق القرية الأخيرة .

كانت الشموع الحمر والبخور لا تزال ماثلة أمام بوذا الكبير ، ولكن التراب كان قد علاها . ولم يكن من المنتظر أن يعود المأمور إلا إذا تبين أن اليابانيين لن يضربوا تالى بقنابلهم ، على أن هذا الأمر لم يكن واضحاً بعد ، فقد كان اليابانيون يلقون قنابلهم على قصبة الولاية التى تقوم غير بعيد من تالى . وسرت الشائعات بأن الذئب الأزرق يقاتلهم ولكن لم يظهر لذلك أثر ، وإنما كان الذئب الأصفر أكثر جرأة من المألوف ، فقد رأى بعضهم العصابة قريبة من تالى قرباً أوجسوا منه خيفة .

وقال المأمور وهو يتأوه : « إنه يعلم ألا مفر لى من الاحتفاظ بجنودى ليكفلوا حمايتى » ، وشعر فى هذه الظروف بأن الأمر لا يستحق منه أن يتجشم مشقة تسلق الجبل مرة أخرى ليذكر بوذا بوعيده ، وكف الجميع عن الذهاب شيئاً فشيئاً ، شاعرين إذا ذاك بأنه لابد مما ليس منه بد ، ومن ثم غشى التراب التمثال .

وكان مفتاح غرفة تيم مع رئيس المعبد العجوز ، ولو أنه كان فى صحة طيبة لذهب بنفسه ينفض التراب عن بوذا ، ولكنه كان

مريضاً وأبى أن يعطى المفتاح لأحد من الكهنة . فقد كان اثنان منهم لصوصا ، احتميا بالمعبد نجاة برأسيهما . لقد شعر ، وهو الذى لم يعد أن يكون هو نفسه قاتلا ، أنه لا يستطيع أن يأتمنهما على مال تيم ، عندما سألاه أن يدخلا على أيسر تقدير غرفته لنفض التراب الذى كان يعلو بوذا الكبير من حين إلى حين .

فقال لهما : « إن بوذا لن يحفل بذلك ، فهو يعلم أن مآلنا جميعاً إلى التراب » ، واحتفظ بالمفتاح فى ثنايا حزامه القذر .

ولكن الأحلام السيئة أقضت مضجع رئيس المعبد العجوز عدة أيام وهو مستلق فى فراشه ، وكان الرجل قد جرى على أن يعالج كل صعوبة تعترضه بتدخين قدر يسير من الأفيون . بيد أن الأحلام كانت فى هذه المرة أقوى من الأفيون ، وألحت عليه الأحلام حتى غادر فراشه وراح يتجول فى أنحاء غرفته واهن الخطى ، وكانت الشمس تسطع مشرقة من خلال ستائر الورق التى تغطى النافذة. حتى خرج إلى الفناء ، ولكنه كان لا يزال بعد ضيق الصدر ، فإن كشف الطالع الذى كان مشغولا به أبى أن ينتهى إلى نهايته المرجوة ، ولم يستطع أن يجتاز به نقطة خطر غامضة ، لم يدرك لها سبباً .

وقال لأحد شيوخ الكهنة ، وكان يجلس فى أشعة الشمس يتصيد القمل من ثوبه : « لأمضين وأصلِّ لبوذا الكبير ، فإن نفسى مضطربة »

فأجاب الكاهن الشارد الفكر : « صلِّ من أجلى » ، ذلك أن ذهنه كان منصرفاً إلى حشرة أفلتت منه .

على أن رئيس المعبد لم يصل من أجل أحد ، بل مضى إلى غرفة جلوس تيم وأشعل الشموع وأحرق البخور أمام بوذا الكبير ، ثم جذب كرسى تيم الأمريكى المصنوع من الجلد وأدناه من المذبح كل الدنو . وجلس فيه يفكر فيما عسى أن يكون سبب ما ألم به من ضيق . وانقضت لحظة وهو جالس ، أخذ ما ألم به من ضيق يتكشّف بعدها ؛ فقد كان تيم فى شدة ، وكان مصير الذئب الأصفر يتوقف على تيم ، وكلما فكر فى الأمر ، ازداد يقينا بأن هذا هو علة اضطرابه . وشعر بالفرح ، فإن من يجد سبب اضطرابه يستطيع أن يجد له علاجا ، وإذن فلا بد أن يجد تيم ، وكان الرجل مقتصداً بطبيعته فأطفأ الشموع وأخمد البخور بإبهامه وسبابته .

وقال لبوذا : « أعنى ! » وشعر بأنه أحسن حالا بكثير ، ثم إن الرحلة كانت خليقة بأن تفيده .

وشرع فى رحلته فى اليوم التالى ، ومعه طاسه الذى يستجدى به وعصاه ، وفى حزامه إيجار الشهر الأخير الذى دفعه تيم ومفتاح غرفة الجلوس . ولو أن المأمور أراد أن يصلى لبوذا لكان ذلك مستحيلا ، على أن الأمر كان مستبعداً ، ذلك أن اليابانيين كانوا

قد عادوا لإلقاء القنابل على كونمنغ وأخذت جيوشهم تتقدم ، وكان من اليسير تفادى القنابل بالزحف فى باطن الأرض ، ولكن كيف يستطيع المرء أن يفلت من الجيوش ؟ وخرج يسعى على قدميه وهو يعرج عرجاً بالغ فيه قليلا ، وما إن بلغ الطريق الجديد حتى توقفت حافلة (سيارة أتوبيس) كما توقع ، فقد كان بذل العون لكاهن يجلب حسن الحظ .

وسألة السائق : « أو أحملك فى سيارتى أيها الكاهن ؟ »

فأجاب ممتنا : « إن بوذا يدبر أمرى » وركب السيارة .

* * *

وقال رئيس المعبد لتيم : « كنت أستطيع بطبيعة الحال أن أرسل إليك روحى فقط ، وهذا أيسر على وأهون ، ولكننى كنت فى حاجة إلى رحلة فما ركبت حافلة قط فى حياتى »

وجلسا تحت نخلة قرب القرية التى تقع خلف أرض النمور تماما ، وهى أرض شويلى . وكان تيم قد ارتد إليها ليسأل هل قدر له أن يقضى بقية عمره فى هذا المكان مع سيارات النقل الخاصة به ، وأمر حداد هذا المكان فى الوقت نفسه بصنع ألفى مجرف لها مقابض من الغاب ، فمضى الرجل ومعاونوه يعملون فيها ليل نهار . وإن هذا لخليق على أقل تقدير بأن يعفى هؤلاء القوم الضعاف الذين

يدهمهم الموت سريعا من أن يمهدوا أميالا من الأرض بأيديهم فقط .

وقال تيم : يسرنى على أية حال أنك قد قدمت . كيف حال الأقحوان ؟ »

فأجاب رئيس المعبد . « لقد شذبت البراعم بنفسى ، وستجدها فى أحسن حال حين تعود »

فقال تيم : « إذا لم أعد فهى ملك خالص لك ، ولا حاجة بى إلى القول ، وقد اجتزت من فورى المستنقع الكبير سيراً على قدمى، إن سيارات النقل الأمريكية لا تستطيع اجتيازه ؛ فهو أشبه فى ذلك بالمحيط ، وإن الناس ليموتون بأسرع مما يستطيعون أن يحفروا قبورهم فى الأرض »

فقال رئيس المعبد : « آه ! إذن فنحن فى حاجة إلى النساء »

وسأله تيم « أية نساء ؟ »

ولكن رئيس المعبد لم يحر جواباً ، فقد كان يفكر ، ومضى فى التفكير حتى غشيته غاشية ، فغامت عيناه وانطوى على نفسه ، وانتظر تيم ؛ فقد كان يعرف تلك الحالة إذ ينطوى رئيس المعبد على نفسه وتلتوى يداه وقدماه وينكمش رأسه بين كتفيه ، ويلتوى جسمه بعضه على بعض ، وقد يبقى رئيس المعبد على هذه الحالة بضع دقائق أو ساعات بطولها . وانتظر تيم نصف ساعة ثم انسل مبتعداً ،

ومضى إلى القرية التى كانت سياراته قد اصطفت فيها أمام فندق كان قد استأجر فيه غرفة قذرة وراح يفحصها . ولم يجد فيما رآه أنه قد فـُقد منها شيء ، ذلك أنه كان قد رسم على الصناديق بمستحلب الكلس أشكالا معقدة من زهر الأقحوان . وصوّرها ، من قبيل السخرية ، على هيئة أقحوان الإمبراطورية المقدسة الذى تتخذه اليابان شعاراً لها . وكان لكل زهرة منها ثلاث عشرة ورقة من أوراق التويجات ، ووجد تيم الرسم سليما ، أى أن الصناديق لم تمسسها يد لص ، ولم يكن أحد يعلم بعد ما تحتويه هذه الصناديق وكذب فى غير تعمد حين سأله الناس عما تحتويه هذه الصناديق فقال لهم « كتباً »

فلما عاد إلى النخلة كان رئيس المعبد قد رحل ، وبحث عنه يومين هنا وهناك ولكنه لم يعثر له على أثر ، وكف عن البحث عنه ؛ فقد كان لا بد له أن يكفى نفسه مؤونة كل شيء من هذا القبيل ليدبر أمر إنقاذ سياراته ، إذ لاح فى الجو حينذاك خطر جديد ، فقد شعر فى عصر ذلك اليوم الحار من أيام شهر سبتمبر بموجة من الذعر تجتاح الريف مسرعة كأنها الوباء الداهم ، ومضت الدكاكين التى على طول الشارع الوحيد فى القرية الصغيرة تغلق أبوابها ، وانطلق الناس يغلقون بيوتهم بيتاً إثر بيت ، وما إن

انتصفت ساعات العصر حتى كان الشارع والأزقة قد أقفرت من المارة ، وأصبح كل إنسان حبيس فنائه المعتم الذى يتقد حرارة وقيظا .

وعاد تيم من قمة تل كان يشرف منه على الطريق الخامد يبدو له من بعيد فأدهشه أن يرى الشوارع خاوية مقفرة . لقد تركها تزخر بقوم كسالى قانعين ، يبيعون قليلا ويشترون كثيراً ، ويمضون فى الحديث والضحك ، أما الآن فلم ير أحداً . ودخل فناء الفندق فوجد صاحبه فى انتظاره .

وقال له : « أولى بك أن ترحل من هذا الفندق التعس ياسيدى »

فسأله تيم متعجبا : « ولم ؟ »

فقال صاحب الفندق بلهجة تنم عن الشقاء : « إن ثمة ضيوفا آخرين قادمين »

وقال تيم فى رقة ولطف : « إننى أقيم هنا منذ زمن طويل » ، وأدرك أنه قد أصبح فجأة لسبب غريب مفاجئ شخصا غير مرغوب فى إقامته بالفندق ، على أنه لم يأنس من نفسه رغبة فى الرحيل .

وقال صاحب الفندق : « فاتنى أن أنبئك بأن غرفتك كان يشغلها قبل قدومك رجل مصاب بالجدرى »

فقال : « إن الجدرى لا يخيفنى »

فأجابه صاحب الفندق : « لقد كان مرضه هو الجذام »

وأمسك وانغ بصندوق الطعام وراح يمسح وجهه مسحا شائها يفصح عما يريد ، ثم أومأ برأسه إلى غرفة تيم مشيراً إلى أنه يريد أن يختلى به ، ودخل تيم الغرفة وفى أعقابه وانغ .

« الحق ياسيدى أن قطاع الطرق قادمون »

فردد تيم : « قطاع الطرق ؟ » لقد كان قطاع الطرق يحلون بطبيعة الحال فى كل مكان ، فما بالهم يأتون إلى هذا المكان وفى هذا الوقت ؟

فأجاب وانغ : « إنهم يحسبون أن فى الصناديق كنزاً »

وأومأ تيم برأسه ، إن هذا مفهوم ولكن سياراته لم تكن مباحة لهؤلاء اللصوص .

وهنالك قال لوانغ : « سأخرج للقائهم فإنى أمريكى ولا يمكن أن يستولوا على ملكى »

وبدأ الشك على وجه وانغ ، وقال : « قد ينصت عامة قطاع الطرق إلى الرجل الأبيض ، ولكن هؤلاء هم (النساء) وهن لا ينصتن إلى أى رجل »

وسأله تيم : « أتعنى أنهن قاطعات طرق ؟ » . وكان من

الأسباب التى حببت له الاستمرار فى البقاء فى الصين أن أحداً لم يكن يعلم ما قد يحدث فى اللحظة التالية . لقد رأى من الصينيات عدداً قليلا جداً حتى لقد كن فى نظره أشبه بأسطورة من الأساطير ، أجل لقد رأى فلاحات ينفلتن هاربات حين يرينه ، أو سيدة بدينة فى سوق تشترى اللحم والخضر ، أو مستجديات كفيفات ترك الجدرى فى وجوههن أثره ، أو فتاة تقف بباب ما يقع نظره عليها حتى تولى الأدبار .

وقال وانغ فى إصرار : « إنما أقصد النساء ! »

وتملكت تيم الرغبة فى الضحك ولكنه ما لبث أن قال : « إن كن نساء فقط فليس الأمر كله إلا هراء ، اذهب وقل لصاحب الفندق إننا فى بلادنا لا نخشى النساء »

ومضى وانغ إلى صاحب الفندق ، ولكنه قال له : « إن سيدى ابن الحاكم الأكبر الذى يجلس بجوار الملك فى أمريكا ، ويعلق فى رقبته خاتما ملكيا ، وهو خاتم سحرى ، فلئن أقبلت النساء خرج إليهن وحده وتحدث إليهن ، فإذا لم ينصتن إليه قضى عليهن »

وسأله صاحب الفندق : « ألديه أيضا بنادق سحرية »

فأجابه وانغ : « إنه يخفى من هاته البنادق بندقيتين تحت قميصه» ، وكان وانغ قد تناقش فى هذا الأمر مع تيم ونصحه بأن يتزود

ببندقية من بنادقه حين يشرعان فى هذه الرحلة التى لا يقدم عليها عاقل.

وكان تيم قد أجابه قائلا : « لا أريد بندقية »

فسأله وانغ : « ولم ياسيدى ؟ »

فأجابه تيم : « لأنى لا أريد يوما أن اضطر إلى قتل إنسان »

وكان وانغ يعلم أن هذا ضرب من الجنون ، وها هو ذا قد كتم هذا الأمر .

وقال صاحب الفندق : « أما وهو يملك بندقيتين والسحر طوع بنانه فإنه يستطيع أن يبقى ، وإن كنت غير مسئول بحال »

ولكنه خرج وأذاع الخبر بين القرويين حتى يهدىء من روعهم ، فقد كانوا يلحون عليه أن يخمد أنفاس تيم فى هدوء ، وأن يرسل إلى النساء من يقول لهن إن الحديث كله كان حديث خرافة ، إذ لم يكن ثمة أمريكى ولا كنز ، وإذا ما لقى تيم حتفه استطعن أن يفتحن الصناديق بأنفسهن .

فقال صاحب الفندق : « يحسن بنا أن ندعه يجرب سحره ، فليس بيننا من يقوى على مجابهة « النساء » .

. . . وتسلل تيم فى تلك الليلة مجتازاً الدغل الذى أضاءه ضوء القمر متجهاً إلى حافة المستنقع ، ثم تريث . وقال بينه وبين نفسه ، وقد افتر ثغره ، إنه لن يجديه نفعاً أن يصطنع الهدوء وهو يتنفس

بصوت مرتفع تنفسا يكشف عن وجوده لأى إنسان بحيث لا يقتضيه فى سبيل الكشف عنه أن يفتح عينيه ليراه ، وكان قد غطى جسمه بخليط من شحم الخنزير وزيت الكافور ، ليقى نفسه لدغات البعوض القاتلة ، وكان عرقه يتصبب من جسمه يجاهد طبقة الشحم التى جعلته يشعر بشعور من وضع فى غطاء من المطاط ، وراح يجلس القرفصاء تحت شجرة ضئيلة بعد أن نقب فى العشب الذى تحتها بمصباحه الكاشف بحثاً عن الأفاعى .

لم يصدق تيم كلمة من هذه القصة كلها ، ولكنه كان قد وعد ، وها هو ذا قد خرج للقاء هؤلاء النساء ، أجل لم يكن مستطيعاً أن يصدق هذا الذى عزوه إليهن ؛ فقد كانت النساء فى نظره مخلوقات فيهن رقة وطفولة ، ولم يكن قد خبر منهن الكثيرات حتى فى أمريكا ، وظل عزبا تحت سمع بوذا وبصره . لقد تملكه الفضول الآن ولكن الخوف لم ينل منه ، وكان كل عدته حذاء طويل الرقبة وعصا يدفع بها الأفاعى عن نفسه .

ولم يكن الليل قد انتصف بعد ، وكانت القرية من خلفه ساكنة سكون القبور ، وقد انكمش قائد كل سيارة من سياراته فى مقعده متظاهراً بالنوم ، وأبى وانغ الذى ظل مخلصاً له فى كل شىء سوى ذلك ، أن يصحبه ، وقال له : « خير للرجل الأبيض

أن يكون وحده مع النساء » ، فلما رحل تيم وضع وانغ المتراس الخشبي فى عرض باب غرفته وجلس على صندوق الطعام ، ولم يكن فى ذلك الصندوق آنئذ إلا القليل من الطعام : بضع علب من الحساء وعلبة من الفول وعلبة من اللبن الجاف وقليل من السكر . إن هذه المقادير من الطعام ما كانت لتغرى كثيراً سائق سيارة النقل نفسه ، ولكن الواجب عنده كان قد جرى فى دمه مجرى العادة .

وشعر تيم ، وهو يجلس القرفصاء فى الدغل فى منتصف تلك الليلة التى شاعت فيها الأصوات الشريرة ، بجلده يقشعر وشعره يقف . ورأى آخر الأمر فى ضوء القمر قوماً يتجمعون فى الطرف الأقصى من المستنقع ، رأى بضعة فى الظلام تتحرك لا تتخللها إلا أضواء تضطرب وتتذبذب ، وظل يرقبها حتى خال أن المستنقع قد امتلأ بالناس ، وقال بينه وبين نفسه : « إنهم قطاع طرق » ، رجالا كانوا أم نساء ، واستبد به الغضب شيئاً فشيئاً .

ومضى فى تفكيره وهو يرقبهم قائلا : « يا للعنة ! إن بنادقى قد رصدت لقتال اليابانيين ، وسأمضى إليهم من فورى وأقول لهم هذا ، وأثير فيهم النخوة بوصفهم من المواطنين »

وانتصب واقفاً وأشعل مصباحه الكشاف ليضىء باستمرار ثم راح يضرب فى الوحل ربع ميل ورآه الجمع المحتشد ، وتبين

ذلك إذ توقفت فجأة كل حركة وانطفأ كل ضوء ، وتكأكأت الجماعة فى كتلة سوداء واحدة ، وشعر بأنهم هناك ينتظرونه ، ولكنه مضى فى سبيله يرفع ساقاً ويتبعها بأخرى منتزعاً إياها من الطين الأسود اللازب .

فلما اقترب من الحشد بحيث يستطيع توجيه الخطاب إليه توقف ، ثم رفع مصباحه الكشاف فسقط ضوؤه على وجه . . وجه قوى وسيم ، لقد كان وجه امرأة ! وأخذ ينقل الضوء من وجه إلى وجه فوجد أن الجميع نساء .

وقال بالإنكليزية فى صوت واضح : « لتدركنى اللعنة ! »

لم يدر همس أو تند حركة من هذا الجمع الذى كان يقف أمامه محتشداً متماسكا فى ضوء القمر ، ساداً الطريق فى وجهه .

وسألهن بالصينية : من أنتن ؟ »

فلم ترد منهن واحدة ، بل وقفن يخيم عليهن السكون .

وعاد بالضوء إلى تلك التى كانت تتصدرهن ، وراح يتفحص وجهها مرة أخرى ، كان وجهاً كالصوان ناعماً ، وكانت العينان الكبيرتان سوداوين كأنهما خرزتان من الخرز اليمانى ، لا تدركان شيئاً أو تدركان كل شىء ، فليس يدرى . ومع ذلك فقد تملكه شعور غريب بأنه رأى هذا الوجه فى مكان آخر ، وسلط ضوءه

على جسمها الضخم . لم تكن المرأة تحمل بندقية ، بل لا تحمل حقاً سلاحاً من أى نوع ، فقد كان فى يدها فأس من فؤوس الفلاحة .

وسألها : « من أين أتيت ؟ » ، وسلط الضوء على عينيها وهو يقول لها هذا ، فلم تلح فيهما بادرة توحى بجواب ، وإنما تبدّى عزم قوى على الانتظار . وراح يرتد عنها فى شىء من الفزع والرعب ، ورأى والضوء يومض على أجسام الأخريات أن كلا منهن تحمل فأساً أو مجرفاً ، فدار على عقبيه وانطلق يخوض فى الطين .

فلما بلغ ظلال الأشجار انتظر ومضى يرقبهن ، فلم تتعقبه منهن واحدة ، ثم رأى بعد لحظة أن هذا الحشد أخذ يتحرك ويسير ، كأنما كن ينتظرن ليتحققن من رحيله ، وشاهدهن يتفرقن فى ضوء القمر ، وعادت الأضواء ترمض بعد حين ، وهنالك أدرك ما كن يفعلن . لقد كن يعملن فى تعبيد الطريق ، ذلك الطريق الذى أودى بحياة الكثيرين من الرجال ، لقد جئن لهذا ، لا لشىء سواه ، ووقف يرقبهن ، وقف يرقب أجسامهن القوية الشبيهة بأجسام الثيران ، وهن يتحركن مسرعات فى ثبات . أجل ، كان هذا هو كل ما جئن من أجله ، وكل ما كن يفعلنه .

وانصرف عنهن آخر الأمر ومضى إلى القرية ، وطرق بعد الفجر بقليل الباب الذى كان وانغ قد أحكم غلقه بوضع عارضة من خلفه .

وسأله وانغ حين رآه : « ألم يقض عليك ؟ »

فأجابه تيم فى اقتضاب : « كلا »

« وقاطعات الطريق يا سيدى ؟ »

فقال تيم بلا تفكير : « لن يأتين إلى هنا » . لقد أراد على نحو ما أن يحتفظ بالسر ، فلقد كان من العسير عليه أن يعلل ما رأى . وانفلت وانغ من تحت ذراعه وهو يستند إلى الباب . وسمعه تيم بعد ذلك بلحظة يتفاخر فى كل مكان من الفندق .

« ألم أقل لكم ؟ إن النساء لن يأتين . فقد ردهن سيدى عن المجىء »

وتركه تيم يتباهى ، ولا عليه ، فقد أبصر معجزة من المعجزات.

أجل أصبح الناس يعدونها معجزة فى هذا الإقليم إذ استحال المستنقع ، الذى كان قد ابتلع أجسام عدد غفير من الرجال ، حزاماً قوياً من الأرض الثابتة فى أيام قلائل . لقد ألقى بالحجارة فى أعماق المستنقع ، وسحقت الصخور والجلاميد وسويت فوق الحجارة ثم ردمت بالأتربة . وكان الرجال يعودون فى صبيحة كل يوم ويتعجبون مما أنجزه الليل ، أو لعلهم كانوا يتساءلون أتراهم أنجزوا بالأمس أكثر مما يعرفون ؟ ولا شك أن الأمر كان ينطوى على معجزة فى ناحية من نواحيه . لقد كان من الخير لهم ألا يتساءلوا ، وأن يقبلوا الأمر على علاته .

وانتهى تعبيد الطريق بعد خمسة أيام وليال أخر ، وساق تيم ، وهو على رأس القافلة ، سيارته فى حرص وحذر وكان أول من مر فى الطريق . ترى هل كان الأمر كله مجرد حلم أو سراب ؟ ولكن الطريق كان ثابتاً فى هذا المستنقع المضطرب المائج . أجل ، كان الطريق مأموناً ، فمضى فى سبيله وبلغ الجانب الآخر ، وجاءت من خلفه مئات من سيارات النقل الأخرى والعربات من كل نوع ، تحمل السلع إلى باب الصين الخلفى .

وأودعت الصناديق المعبد تحت الطلب ، وخرج تيم من غرفة نومه ، وقد استحم وانتعش ، ليلقى عليها نظرة . لم تكن لديه أية فكرة عما يفعل بعد . وشعر فى تلك اللحظة بيد تلمس ذراعه ، فالتفت ورأى رئيس المعبد .

وقال له رئيس المعبد : « لقد سمعت أنك عدت »

فأجاب تيم : « إنما عدت وشيكا »

وسأله رئيس المعبد : « وهل كنت موفقاً ؟ »

فأجاب تيم : « وفقت كل التوفيق ، وأنت إلى أين ذهبت ؟ »

فقال رئيس المعبد فى سذاجة : « أنا ؟ آه ! تذكرت أين تركتك . وى ، لقد عدت إلى ناحية كنت أعرفها وأنا بعد صغير ، حيث

قتلت وأيم الحق رجلا بسبب امرأة ، ولم تكن المرأة زوجتى فقد شاء بوذا غير هذا ، ومع ذلك فقد أرسلنى بوذا إليها فى هذه المرة ثانية ؛ ذلك أن الناس فى تلك الناحية لا يخشون مرض النمور ، ولا يؤتون به ، وبخاصة النساء »

وسأله تيم : « أوقد اكتسبوا المناعة آخر الأمر ؟ لا شك أنهم قد نكبوا به قروناً طويلة ، وأحسب أنك على حق فى تسميتك هذا البعوض بالنمور »

فأجاب رئيس المعبد : « إن بوذا يحمى القوم الذين يعيشون هناك ، وقد تذكرت هذا فمضيت أبحث عنها . . أبحث عن تلك التى كانت فى شبابى لا تخشى الرجل أو النمر » .

وتوقف رئيس المعبد ثم مضى يقول : « إنها امرأة ، وأنا الوحيد فى هذا الكون بأسره الذى أستطيع حملها على الإذعان لمشيئة بوذا » .

وسأله تيم وقد علت بسمة وجهه : « أهى معجزة ؟ » .

فأجاب رئيس المعبد : « إنك لتجد المعجزة فى كل شىء ، وفى هذا أيضاً . لقد قلت لها : إن ابننا فى حاجة إلى أسلحة يقاتل بها العدو ، والأسلحة عند رجل أبيض ، ولكنه ينتظر حتى يمهد الطريق »

فردد تيم القول : « ابنك ؟ »

فأجاب رئيس المعبد فى هدوء : « أى نعم »

فقال تيم بعد لحظات قلائل : « إنى لأحسب أنك تستطيع فى هذه الحالة أن تقول له إن البنادق هنا »

فأجاب رئيس المعبد فى سكون : « ما إن تستيقظ فى صبيحة الغد حتى تكون قد نقلت من هنا »

ووقفا جنباً إلى جنب يتطلعان إلى تالى الجبلة ، تمتد أمامهما من خلال الباب المفتوح . لقد كانت هى هى لم تتغير عما كانت عليه منذ قرون ، اللهم فيما عدا ذلك الطريق الجديد يسير بجوارها أبيض منبسطا ، وكان يلم بالطريق شرر متألق يتحرك فيه غاديا رائحا ، وكان هذا الشرر سيارات ركوب وسيارات نقل من كل نوع ، وراح تيم يرقبها وكل واحدة منها تنجلى فى أشعة الشمس لحظة ثم تمضى فى سبيلها بين الجبال شرقا وغربا .

وقال تيم : « لقد أصبح من اليسير بمكان الآن جلب أى شىء إلى الصين بفضل الطريق الجديد »

فأجاب رئيس المعبد : « لقد أصبح ذلك غاية فى اليسر حتما » ، ثم انصرف بعد أن قال كل ما يريد أن يقول .

فلما انصرف رئيس المعبد وفرغ تيم من تناول غذائه راح يهبط

الجبل فى تثاقل مرة أخرى قاصداً مكتب البرق القذر ، وأيقظ الكاتب الذى كان نائماً على المنضدة .

وقال له « برقية » ، وكتب بضع كلمات على قصاصة من الورق .

وأخذ الكاتب القلة يقرأ نعسان وهو يحك رأسه : « تسلمت البضاعة . ما هو أفضل أسعارك إذا ضوعف الطلب الأخير . عاجل . تيم »

وقال تيم للكاتب « تماما »

ثم عاد يصعد الجبل مرة أخرى ، ووجد وانغ فى ثوب أبيض طويل ينتظره وقد أعد له شيئاً من الشاى وبعض الكعك الصغير المصنوع من السمسم ، وأدرك تيم أن وراء هذا السكون الشامل حركة شديدة ضخمة ولكنه لم يحفل بها .

وقال وهو بادى الانشراح : « سآوى إلى فراشى يا وانغ ، وأستغرق فى النوم حتى الصباح »

فقال وانغ : « أجل يا سيدى » ، ثم أردف وصوته يختلج معبراً عن امتنانه ، على ما ألف الصينيون : « واسمح لى يا سيدى بأن أشكرك »

ووضع يده على المصباح ليخفض ذؤابته ، ورأى تيم الوجه

الذهبي وهو ينعطف إلى باب مخدعه على ضوء الومضة الأخيرة للمصباح ، ولم يكن شك فى أن جفنى التمثال قد ارتفعتا ، ولم يكن شك فى أن العينين الشبيهتين بخرزتين من الخرز اليمانى قد أطالتا فيه النظر ، لا تدركان شيئاً أو تدركان كل شىء ، فليس يدرى .

وقال : « إنها لمعجزة لا أستحق عليها منك الشكر »



الدرس

قالت السيدة ستانلى القليلة الجسم لزوجها : «إنى لأشفق من أن ترحل رولان وهى على هذه الحال، وإنى لأحسب أنها لا تعرف شيئاً على الإطلاق . . إنها لا تصلح للزواج »

وكانت قد أقبلت لتوها من الحديقة وامتلأت ذراعاها بالورود .. تلك الورود الصينية الناضرة التى تزدهر سريعاً فى شهر مايو ، ونظر إليها وابن ستانلى مبتسماً وقد خلب لبه جمالها . صحيح أن زواجه بمولى كان قد انقضى عليه خمس سنوات إلا أن ذلك لم يزده بها قط ألفة وخلطة . كان يراها كل يوم ، وما كان أسعد حظه أن يكون عمله فى البعثة تولى إدارة المدارس لا التجول للتبشير ! ولو قد اقتضاه عمله القيام برحلات طويلة للتبشير ، كما يفعل الدكتور مارتن ، والغياب عن مولى أسابيع بطولها لما استطاع عنها صبراً . وكان يستيقظ فى أثناء الليل أحيانا مبلبل الخاطر ينتفض خشية أن يختاره الله لمثل هذا العمل ، أو أن يحدث حادث يفرق بينه وبين مولى . هب أن طفلا دهمه المرض واقتضت الحال نقله إلى أمريكا عبر المحيط كابن برجس مثلا ، وقد اضطرت السيدة برجس إلى

الغياب فى أمريكا قرابة سنتين ، أو إنه لخليق أن يمد يده ليلمس جسم مولى الصغير الملفوف يستلقى بجواره يغط فى نوم عميق هنىء ثم يشفق من إيقاظها ، ولكنها كانت تستيقظ دائماً على نحو ما ، ويروح هو بطريقة أو بأخرى يحدثها دائماً عن مخاوفه ثم يصبر ليسمعها تضحك ، ضحكتها العذبة القانعة « آه يا واين ، كأن ... إن الله لم يخترك على كل حال لعمل من أعمال التبشير ، أليس كذلك ؟ ولو أننى اضطررت للعودة إلى الوطن لجئت معى ، وإننا خليقان بأن نجد وظيفة أخرى ، أتظن أننى أتركك تعيش هنا وحدك ؟ » ، وكان يستغرق فى النوم قبل أن يدرك من الأمر شيئاً .

وكان واين يتطلع إليها حينذاك فى مكتبه مأخوذاً بها ، فانفرجت أساريرها وأسفرت وجنتاها عن نونتين ، ثم وضعت يدها على خده وتظاهرت بالتجهم : « إنك لم تسمع كلمة واحدة مما كنت أقول ، أجل إنك لا تنصت إلى أبداً »

وأمسك بيدها ورفعها إلى شفتيه ، كانت يداً ثابتة صغيرة خدشتها أشواك الورد ، « ذلك أننى لا أستطيع أن أحول نظرى عنك ، ماذا عسى أن يصيبنى وحبى لك يزداد أكثر وأكثر على مدى الأيام ؟ » ، وجذبها إليه وأسند وجهه إلى صدرها ، وكان يشعر تحت خده بخفقان قلبها المنتظم ، وتمتم على إيقاع نبضاتها قائلا : « قلب صادق

قلب صادق . . » وانحنت على رأسه الأسمر تضمه إليها ، ونسى كلاهما الفتاة رولان ، فقد عادت بهما الذكرى إلى صبيحة ذلك اليوم من أيام الصيف منذ خمسة أعوام ، فى فناء الكنيسة الصغير القديم الواقع خلف الكنيسة المشيدة بالطوب الأحمر ، حيث ظل أبوها يعظ سنوات طويلة ، وحيث جاء واين ليحل محله شهراً كان قد تغيب فيه عن الكنيسة فى عطلة . لقد سمحت هى وأمها لأبيها بالمضى فى رحلة إلى فلسطين ، كان يتوق إلى القيام بها طول حياته . يالأحكام القدر التى قضت بأن يكون واين هو البديل فى ذلك الصيف الذى لم ترحل فيه الأسرة مجتمعة ، وذلك قبيل إبحاره إلى الصين للعمل مبشراً هناك ! .

لقد أحب كل منهما الآخر من أول نظرة ، فما إن وقعت عينها على قامته الطويلة الفتية وهو يرقى درج المنبر حتى عرفته وأحبته . أما هو فقد تطلّع إلى جموع المصلين فرآها ولم ير من بعد سواها ، وانقضت على ذلك بضعة أسابيع ، وفى صباح يوم من أيام يوليو انتهت الصلاة ، فمضت تعدو إلى منزل القس سالكة الطريق المختصر الذى يجتاز فناء الكنيسة وجاء هو من خلفها يوسع الخطى لم يخلع بعد وشاحه الكهنوتى ، وقال لها إنه إنما قصد أن يسألها لعلها تحب أن تخرج معه فى نزهة مساء ، فلما استدارت ونظرت إليه فى رحاب الظلال الظليلة لشجر الدردار العتيق ، يخفيهما الليلق القائم على طول

الطريق ، أخذها بين ذراعيه وطوقها ، وانقطع السؤال والجواب ، وكان ثمة تلاق فحسب. وكلما التقيا وقع منهما ذلك الذى وقع ، وعاد إلى ذلك الاتحاد الروحى يجمع قلبيهما على هذا النحو

وطرق أذنيهما صوت ضئيل فافترقا مسرعين ، وكان المبشرون الأكبر منه سنا يقولون دائما : « إن الصينيين لم يألفوا مظاهر الحب تتجلى بين الجنسين » . ولم تلبث السيدة برجس أن انتحت بها جانبا وقالت لها : « حاولى ألا تأخذى بيد صديقك — أعنى السيد ستانلى — أمام الصينيين ياعزيزتى ، فإن هذا العمل . . . أعنى أن الصينيين خليقون بأن يعدوه أمراً ينافى الحشمة » ، ومن ثم حاولت هى ووابن ما وسعهما أن يتعلما الصبر حتى يخلو كل منهما إلى صاحبه ، ولكن يد أحدهما كانت تسعى بالغريزة إلى يد الآخر ، وكانت ذراعه تطوقها مدفوعاً بفطرته الخاصة فقط . وأخذ الزوجان الآن يتطلعان إلى الباب وهما يحسان بالإثم .

وها هى ذى رولان ، الفتاة البلهاء المسكينة ، التى جاءت السيدة وابن لتحدث زوجها عنها ، قد وقفت بالباب مرتدية سترة وسروالا أزرقين نظيفين من القطن وحملت ربطة من الكتب ، لم تستطع قط ان تعى ما فيها ، مصرورة فى منديل مطبوع باللونين الأبيض والأزرق ، وكان أبو الفتاة قد جاء فى طلبها ليعود بها إلى الدار ليزوجها ، وكانت هى على استعداد للرحيل .

وقالت مولى : « ادخلى يارولان » وابتسمت وقلبها يفيض شفقة عليها ، واستجاب وجه الفتاة المستدير الدمث لهذه العاطفة فى الحال ، وبدت عليه أمارات السرور كأنه وجه طفل ، وكانت عيناها السوداوان تشرقان بوميض خافت فوق وجنتيها المكتنزتين الكبيرتين ، وحطت مولى ستانلى الورد ومضت إلى الفتاة وأمسكت يدها المكتنزة .

وقالت لها بالصينية : « إننى لآسفة لاضطرارك إلى الرحيل ، فإن أباك لم يرض ببقائك مدة أخرى . اجلسى يابنيتى ودعينى أحدثك قليلا »

وأطاعت الفتاة فجلست فى سكون ، واختفت الابتسامة من وجهها وجلست تحملق فى هذين الزوجين ، لا تفوتها حركة مما يأتيان .

ونظرت إليها مولى وأسقط فى يدها ، وما كان أكثر ماعانت من قبل هذا السكون المطبق وهى طالبة فى الفصل .

والتفتت إلى زوجها تسأله : « ماذا عسى أن نصنع ياواين ؟ إنها فى السابعة عشرة من عمرها ، وقد أقامت هاهنا مذ جئنا ، ولا أعتقد أنها ستتعلم الشىء الكثير أبدا ، لقد تلقت جميع مواد الدراسة : الكتاب المقدس والحساب والصحة العامة ، وهى تستطيع أن تقرأ بضع مئات من الحروف ، وإنى أحسب أن هذا هو كل زادها من

التعليم ، وحسبي القول إنها لا تصلح للزواج . . هذه الفتاة الطيبة المخلصة اللطيفة البلهاء ! وإنك لتعلم أنها تقدمت للعماد مرتين ولكنها لم تستطع أن تتذكر ما يكفي للإجابة عن أسئلة الدكتور مارتن بالرغم مما بذلته من جهد فى تعليمها ، وإنى لأخشى فى بعض الأحيان أن تكون بعد على وثنيتها »

فأجاب واين : « كلا ، وأنا أقولها عن علم ، فلا خير فى بقائها هنا ، ولو أنها كانت تبشر بأى خير لحاولت إقناع أبيها بأن يسمح لها بإتمام دراستها ، ولكننى لم أجد من نفسى الشجاعة على أن أدخل فى روعه أن فى استطاعتها أن تتم يوماً دراستها . وربما كان من الأفضل أن ترحل وتتزوج »

وصاحت زوجته فى وجهه قائلة : « أى واين ستانلى ! كأن زواج فتاة كهذه وولادتها الكثير من الأطفال ليس بالأمر الخطير ، وما أحراها بأن ترزق من الأطفال الكثير ! »

ونظر كلاهما إلى رولان وتنازعتهما الهواجس ، وتلاقت نظراتها بنظراتهما فلم تلبث أن افتر ثغرها عن ابتسامة مشرقة عريضة غير مدركة حرفاً مما يقولان بالإنكليزية ، واحتارا فى ابتسامتها .

وسألتها مولى فى رفق بالصينية : « أتعرفين من ستتزوجين يارولان ؟ » ، وهزت الفتاة رأسها ، وأجابت فى بساطة : « إنه ابن

رجل من أصحاب الأراضى ، وأبى من أصحاب الأراضى أيضاً ، وهو ابن صاحب أرض فى قرية أخرى »

وبدا أنها قد صرفت عن ذهنها هذا الأمر ومضت ترقبهما فى انتباه ، وتنهدت موللى ستانلى ووضعت الورد على المكتب ومضت إلى الفتاة وجلست فى مقعد يجاور مقعدها وأمسكت يدها مرة أخرى ، ثم قالت لها : « حاولى أن تذكرى بعض ما تعلمت ، اذكرى ما تعلمت من الاحتفاظ بكل شىء نظيفاً ، واذكرى خطورة الذباب والبعوض الشديدة وبخاصة على الأطفال الصغار ، واذكرى ألا تعطى الأطفال الصغار الخيار والبطيخ الفج ليأكلوه ، واذكرى صلواتك ، واذكرى السيد المسيح الكريم الرحيم الذى جاء ليخلص نفوسنا ، اذكرى كل هذه الأمور التى حاولنا أن نلقنك إياها عن النظافة والخير »

وأجابت الفتاة : « سمعاً وطاعة يامعلمتى » ، وكانت تحدق النظر فى خاتم زواج موللى ستانلى ، وراحت تسأل فجأة : « أهو المعلم الآخر الذى أعطاك هذا الخاتم ؟ »

وأسقطت موللى اليد التى كانت ممسكة بها ، ثم التفتت إلى زوجها وقالت « آه يا إلهى ... » .

فأجاب واين فى الحال : « لاتدعى للقلق سبيلا إلى نفسك ياعزيزتى

فإنى لا أحتمل هذه النظرة التى تلوح فى عينيك ، يجب ألا تثقلى كاهلك العزيز بكل مايعانيه سواك . لقد بذلنا لهذه الطفلة أقصى ما نستطيع . وقد حق عليها أن تعود إلى منزلها الآن . تعالى ... » ، ثم انتصب واقفاً على قدميه وتناول الورد ، « هاهى ذى ورودك ياعزيزتى ؛ وامضى لشأنك الآن وعجلى ، وسأشرف أنا على رحيل رولان ، ولكن أين أبوها ؟ أفى بهو المدرسة هو ؟ لأمضين إليه إذن»

« كلا يا واين ، فإنى لا أستطيع أن أنصرف بهذه البساطة ، قل لها ، بل قل له إننا سوف نأتى لزيارتها فى بعض الأحيان على كل حال » ، ثم التفتت إلى الفتاة وبدلت لهجتها بسرعة قائلة : « سوف نأتى لزيارتك فى بعض الأحيان . . لآتين لأرى إن كنت تذكرين كل شىء . . يجب أن تحاولى . . ولا تهملى أمر نفسك فتصبحى كالأخريات اللواتى لم يختلفن إلى مدرسة الإرسالية قط »

وقالت الفتاة : « كلا ، أيتها المعلمة » ، وكانت تحملق فى يد واين التى استقرت على غير وعى منه على كتف موللى ، فرفعها بغتة .

ومضى يتقدمها مجتازاً مرج المدرسة ، وراح يقول لنفسه إن رولان ولا شك فتاة تضيق بها النفس أشد الضيق ولا يرجع هذا إلى شدة غباوتها فحسب ، بل يرجع أيضاً إلى أن المرء لا يستطيع أن يتبين ما يدور فى خلدها ، وما أحراه أن يقول مثلا إنها بلهاء

جامدة الحس ، ومع ذلك فإنها فى هذه اللحظة بالذات التى همت فيها
بأن تتبعه وهو خارج من مكتبه قد انفرجت شفتاها عن ابتسامة
من ابتساماتها العريضة الكبيرة حتى بدت وكأنها تطويه وتطوى
موللى جميعا ، ثم أمسكت يد موللى وتشبثت بها ، وقالت بلهجة
ساذجة خالصة تعبر بها عن امتنانها : « لقد علمتمانى كلاكما . أجل لقد
تضافرتما على تعليمى »

وتذكر الآن كيف كانا فى كثير من الأحوال يلاحظان أنها تحدق
فيهما بطريقتها الهادئة المثابرة ، وكان ذلك مثلا فى تلك المرة
التى جلسا فيها يتناولان العشاء وقد أمسك بيد موللى وهو يأكل
— وكانا يجلسان دائما جنبا إلى جنب — ودخلت رولان تحمل
رسالة من أحد المدرسين . وكانت تتحايل دائما ، على ما اعتقد واين
الآن ، لتحمل هى الرسائل . وكان قد دار بخلده أنهم إنما يعهدون
إليها بنقل الرسائل لأنها فتاة مخلصة كل الإخلاص ، ولكن لعل
السبب فى ذلك أنها هى نفسها كانت تريد المجىء ، وهاهى ذى
تقف محدقة فيهما بنظراتها المشرقة الهادئة تبدو فيها ولاشك أمارات
من ضعف العقل . وتنهد واين ، فقد كان من المحزن أن تنفق
السنون فى تعليم شخص مثلها ، شخص لا يمكن أن يتعلم قط ،
على حين كان هناك كثيرون يقدرون على التعلم ولكن الفرصة
لم تتح لهم . على أنها كانت منتظمة فى سلك الدراسة بالفعل عندما

جاء هو وموللي . وكان أبوها يأتي مرتين في السنة ليدفع المصروفات المدرسية ولذلك بقيت ، ولم يكن كثيرون من الآباء يدفعون مصروفات مدرسية كاملة لبناتهم .

ودخل البهو فوجد الأب ، وكان قروياً عادى المظهر أسمر الوجه يرتدى قميصاً من القطن الأزرق استطال عليه أكثر مما ينبغى أن يستطيل ، واتسع أكثر مما ينبغى أن يتسع ، إلا أنه كان من قماش جيد متين من نسج المنازل ، ولم يكن رجلا فقيراً على ما يلوح من هيئته . وهب الرجل واقفاً فى أدب عندما دخل الرجل الأبيض .

وقال واين وهو يتخذ لنفسه مقعداً : « أرجوك أن تجلس يا سيد يانغ ، وارفع الكلفة » ، وتنحت الفتاة قليلا إلى جانب تنتظر .

وقال الأب وهو يومىء برأسه إليها : « لقد كان بودى أن أترك هذه الفتاة معكم لتصبح مدرسة فى مدرستكم اعترافاً بكل ما بذلتم من جهد فى تعليمها ، ولكنها للأسف قد خطبت مبكراً إلى ابن صديق لا أحب أن أغضبه ، وأسرته تطلب الآن إتمام مراسم الزواج ، ولو لم يكن الأمر كذلك لتركتها لك لتساعدك فى مدرستك » .

فقال واين : « إنى لأشكرك حقاً » ، وراح يتساءل فى ضيق أليس من الأمانة فى الحق أن يصارح أباها بأنهم ما كانوا ليستخدموا رولان قط مدرسة ، لشدة بلاهتها ؟ وهتف فى سره يستغفر الله ،

فإن من العسير أن يلزم المرء الأمانة إذا كان بذلك يجرح شعور شخص آخر ، فقد كان من البين أن السيد يانغ نخور بابنته .
والتفت الرجل الآن إلى السيد واين قائلا : « إنك لتذكر يا سيدى أنها سلخت فى التعليم ثمانى سنوات ، وليس ابن كل رجل يتاح له أن يفوز بمثل هذه الزوجة ، على أنى عاملتها كما لو كانت ستصبح زوجة ابنى وتبقى فى أسرتى ، فإننى أعد صديقى كشخصى » .

فتمتم واين : « إن هذا لفضل منك عظيم » ، وكان خليقاً به على أيسر تقدير ألا يكذب ويقول إنه آسف لاضطرار رولان إلى الرحيل ، وانتظر واين فى صمت وأدب حتى نهض الأب ونفض فتات الكعك فى خفة من حجره ثم قال الرجل : « أجل ، إن من الأمور التى تطيب لها النفس أن يجلس المرء يشرب شايك ويأكل كعكك ولكن لا مناص من أن تقطع دابتى الأميال الطوال من الطرق الريفية قبل أن يجن الليل . ودّعى معلمك يا رولان ، واشكرى له ما أسدى إليك من فضل »

فتمتمت الفتاة : « إنى لأشكرك يا معلمى ، وأشكر لك كل ما تلقيت من علم »

وانحنى له الأب والبنت كلاهما ، وانحنى لهما ، وانتظر بالباب ، فالتفتا إليه وراحا ينحنيان مرة أخرى .

وأخذ يرقبهما وهما يخرجان من الباب المزدوج ، وقال بينه وبين نفسه فى شىء من الحزن : « إنى لأحسب أننا لو قسنا الأمر بأى مقياس لحق علينا أن نقول إننا أضعنا أموال الكنيسة على تلك الفتاة ، وأضعنا وقتنا أنا ومولى أيضاً ! ولست أدرى لم لا يبدو وقتنا من الأهمية بقدر الدولارات التى تتضمنها ميزانية البعثة ؟ ومهما يكن من شىء فإن الأمر كله خسارة فى خسارة ! ثم إن الفتاة لم تنخرط فى سلك أعضاء الكنيسة »

وارتد على عقبيه وقد أحس بشىء من الخيبة ، لقد كان من الصعوبة بمكان أن يتبين ما يستحق العناء فى العمل الذى يقوم به . كان حىّ الضمير ، يفعل كل يوم ما يرى أنه واجبه وما يقتضيه الأمر أن يلقنه لتلاميذه ، ثم إذا هو يدرك فجأة ، كما أدرك هو ومولى اليوم ، أنه ما من فائدة ترجى من ذلك ، وزفر زفرة يشوبها الحزن ، ومع ذلك فقد رحلت رولان .

* * *

كان أهل قرية « السلام المقيم » جميعاً راضين كل الرضا ، فقد فرغوا لتوهم من احتفال عظيم دام ثلاثة أيام ، وتكفل الشيخ ليو بنفقاته جميعاً ، ذلك أنه كان يزوج أكبر أبنائه برولان ابنة صديقه بل أخيه يانغ فى قرية « الديوك المقاتلة » ، وأصاب الجميع من

طعامه ؛ فقد مدت الموائد أولا لأصدقاء السيد ليو من الأعيان ، وانتظر عامة الناس دورهم فى صبر وأدب ، ثم مدت الموائد المرة بعد المرة ، وعليها لحم الخنزير والسمك المشوى بالسكر والنبيذ والخل ، ثم اللحم البقرى ولحم الخنزير مدقوقا ومسلوقا بالكرنب والخضر ، ومصحوباً بشرائط من العجائن المعالجة بالبيض وبالأرز المحلى . والحق أن الموائد لم يكن ينقصها شىء ، وشرب الجميع ما طاب لهم من النبيذ ، وأكلوا أكثر مما تطيق بطونهم بكثير ، وراحت الأمهات فى حذر يصررن فى مناديلهن الكبيرة ذات اللونين الأزرق والأبيض أطايب المأكولات التى لم يستطعن أكلها أو إكراه أطفالهن على أكلها وهن جالسات إلى الموائد . ونفح الخدم بالعطايا وقدِّمت الهدايا وأطلقت الصواريخ فى وابل باذخ . ثم تجلّت العروس وراحت الألسن تتناولها بالحديث . ومع أنها رغم ذلك كله لم يبد فيها ما يفتن الأنظار ، فإن أحداً من المدعوين لم يشأ أن ينتقص من الشيخ ليو أو السيد يانغ .

وكان الفضول قد استبد بالناس لرؤيتها ؛ ذلك أن الجميع كانوا يعلمون أن السيد يانغ كان قد بعث بابنته الكبرى إلى مدرسة أجنبية حيث قضت ثمانى سنوات . وكان من الجائز أن يحدث أى شىء ، فربما بلغ بها الحال أن تغير لون عينيها وشعرها أو ربما علمتها النساء البيض كيف تجعل لون بشرتها أبيض ؛ فقد كان من

المعروف حق المعرفة أن البيض يتقنون فنون السحر . بيد أنه لم يكن فيها شيء يلفت النظر ، وإنما كانت فى الحق عادية بل أقل . كانت فتاة بليدة جسيمة لها وجنتان مستديرتان ممتلئتان غاية الامتلاء وعينان هادئتان صغيرتان . ثم إن قدميها كانتا كبيرتين ، وراحت الزوجات الريفيات تغمز كل منهن الأخرى وتهمس قائلة : « انظرى إلى قدميها ! إن قدميها كبيرتان ! » « أجل ؛ فإن الأجانب لا يسمحون لتلميذاتهن بأن يقيدن أقدامهن » ؛ « أصبت وأيم الحق ! لشد ما وفّق الشيخ يانغ إذ عقد خطبتها وهى بعد طفلة . . ولمن ؟ لابن أعز أصدقائه ! » ورمق الشبان العروس بنظراتهم وراحوا يتندرون بأنفها المفلطح وفمها الواسع ومضوا إلى منازلهم وهم مغتبطون أشد الاغتباط لأنهم لم يجدوا ما يحسدون ابن الشيخ ليو عليه . والحق أن الجميع كانوا سعداء لأسباب ؛ منها أن الشيخ ليو لم يكن — فيما يلوح — موفقا كل التوفيق . ومنها أن بعض الآباء الذين كانت بناتهم تلح عليهم لإلحاقهن بمدرسة أجنبية قد انصرفوا إلى منازلهم وقد صح عزمهم على الرفض . وى! أيبعثرون المصاريف المدرسية ثمانى سنوات ثم تتخرج بناتهم فى نهاية الأمر وكأنما لم يبارحن القرية قط ! ولذلك شملت السعادة الجميع ، ومضوا إلى ديارهم فى ضوء القمر مساء اليوم الثالث وهم يتجاذبون أطراف حديث شاعت فيه البهجة وحفل بالاغتياب .

واستوت رولان فى منزل الشيخ ليو ، فى الرواق الخاص بأكبر أبنائه ، على طرف فراش الزوجية العريض الذى تدلت منه صورة الأطفال والرمان والبط الصينى وكل أمارة من أمارات الزواج السعيد ، وراحت تنتظر زوجها . لقد استمتعت بكل شيء ما شاءت لها المتعة . حتى إنها كثيراً ما كانت تنسى أن تغض من بصرها كما كان الواجب يقتضيها أن تفعل . على أن ذلك لم يسبب لها ضيقاً شديداً ، فقد تذكرت ما فيه الكفاية ، على ما قالت بينها وبين نفسها فى ارتياح . وقدموا لها الليلة عشاء طيبا ، وهكذا انقضى من الزفاف أكثر جوانبه مضايقة ، وحل الآن الجانب الذى يخصها هى دون سواها .

وكانت تعلم أن هذا هو الوقت الذى يجب أن تشعر فيه العذارى بالخجل والضيق ، بل الخوف . كانت تعلم هذا لأنها كانت وهى بعد فتاة صغيرة جداً تجلس القرفصاء على عتبتها فى رواق النساء من منزل أبيها تنصت إلى حديثهن ، شأن الفتيات الصغيرات جميعا . وكن جميعا ينعمن بالتحدث كل منهن إلى الأخرى عن هذه الساعة المعهودة التى برز فيها لهن عرسانهن لأول مرة بعد أن كن بهم جاهلات . وراحت تقول بينها وبين نفسها الآن ، وهى تحملق

متفكرة من خلال حجاب الخرز القديم الطراز الذى يتدلى على وجهها . إنه كان من الطبيعى أن يشعرن بالخوف من الزواج ؛ فإن ما رأينه مما يحدث بين الرجال والنساء لم يكن مما ترتاح له النفس . ولكنها قضت ثمانى سنوات فى المدرسة مع الأجانب. وهذا هو الفرق بينها و بينهن ، ولم تعد السنوات الأولى عليها بأية فائدة على الإطلاق ، إذ لم تجد مثلا نفعا كبيراً من قراءة الكتب، ذلك أن الكتب أولا لم يكن فيها شيء من الطرافة ، فقد كانت تتحدث عن الله فاستحال فهمها ، إذ كيف يستطيع البشر أن يدركوا كنه الآلهة ؟ لقد كانت تنصت فى أدب إلى السيدة برجس ، وسرها أن اضطرتها الظروف إلى الرحيل إلى أمريكا ، ذلك أن المعلمة الصغيرة العزيزة السيدة ستانلى كانت قد جاءت . . أجل تلك المعلمة الجميلة المستديرة الوجه القليلة الجسم ، التى كانت عيناها أيضا عسليتين مما يحبب المرء فى النظر إليها . وقد بذلت السيدة ستانلى ما وسعها من جهد لتعليمها حتى إنها كانت تشعر أحيانا أو تكاد بأنه يجب عليها أن تحاول أن تتعلم شيئا ، أو لعلها كانت تنصت إلى ما تقوله السيدة ستانلى ، ولكنها عندما فعلت هذا لاح لها أنه عديم الجدوى .

أجل ، إنها لم تتعلم شيئاً ، حتى لاحظت ذات يوم أن السيد ستانلى قد طوق السيدة ستانلى بذراعيه ، وكان أول ماخطر لها

والفزع يتملكها أن هذين الاثنين شريران يفتقران إلى التهذيب، ولم ينلهما بالرغم من ذلك أى عقاب، ثم رزقا على التلاحق بابنين صغيرين، كلاهما ينعم بصحة جيدة وكلاهما أسود العينين، ومن البين أن الله كان راضياً عنهما. وراحت الفتاة من بعد ترقبهما كثيراً، إذ تتسلل بالليل فى غفلة منهما وتجتاز ساحة المدرسة، ثم تحملق باستمرار من بين ثنايا الستائر فى الغرفة التى يجلسان فيها بعد أن يأوى الطفلان إلى فراشهما، وانتهى بها الأمر وهى ترقبهما أن تعلمت منهما شيئاً، وقد أعملت فكرها فى هذا الذى تعلمته، من ثم لم يعترها الآن أى خوف على الإطلاق، وراحت تنتظر يونغ فى اطمئنان وهى مستوية على طرف الفراش رضية البال، وقد أطبقت يديها فى حجر ثوبها المصنوع من الأطلس الأحمر.

وكان الهدوء يبسط ظله على كل مكان فى الأروقة بعد أيام الاحتفال الصاخبة، وكان الأطفال قد أفرطوا فى الأكل وكفوا عن البكاء ثم استغرقوا فى النوم. وراح الخدم يتثاءبون ويغلقون الأبواب بالمتاريس ويأوون إلى أسرتهم، وإنما كانت خادمتها هى تنتظر حتى يأتى سيدها لتفرد حصيرتها عبر الباب وتستلقى عليها، وخليق بالعريس أن يأتى مجتازاً الأروقة الخاوية الساكنة بعد أن يخلد الجميع إلى الهدوء وينصرف كل إنسان إلى بيته وقد حل بهم

التعب آخر الأمر مما بذلوا من جهد فى مضايقة العريس ومعاكسته، وقد اختلست النظر إليه فرضيت عن ملامحه. كان شابا قويا مستقيما له وجه أسمر مربع لا يسرف فى الابتسام، حييا لا يتندر بالحديث. إن المرأة مستطيعة أن تعيش مع مثل هذا الرجل، ولم تكن رولان خائفة فقد تعلمت الكثير عن الرجل والمرأة.

ثم إذا الباب يصر فجأة دائراً على مفصلاته الخشبية، وها هو ذا ماثل لا يزال يرتدى ثياب زفافه الزرقاء المتألقة، ولم ينطق بكلمة بل لم يبادر بالنظر إليها. لقد ولج الغرفة وجلس بجانب المنضدة وبدأ يقضقض لب البطيخ، وانتصبت هى واقفة وصبت له قدحاً من الشاى، ثم أومأ برأسه وعادت هى إلى مكانها، ولم تكن بطبعها نافدة الصبر وما كان ليستطيع أن يواصل قضقضة لب البطيخ طول الليل. وطرق أذنيها من خارج الباب تثاؤب عال سرعان ما تبعه غطيط مكتوم، لقد استغرقت خادمتها فى النوم ولم يبق مستيقظاً سواهما.

وانتظرت يداعبُ شفتيها طيف ابتسامة، وراحت ترقبه من خلال خرز خمارها، ولكنه لم ينظر إليها. أجل انتظرت وتلاقت عيناهما آخر الأمر وهو يخالسها النظر، وأجابته من فورها

إجابة صريحة ، وانفرجت شفتاها عن ابتسامتها المشرقة ، وراح يطيل فيها النظر ويسعل . ومضت عليه لحظة من لحظات الدهشة احمر وجهه بعدها احمراراً شديداً ثم أسرع بالعودة إلى قضقضة لب البطيخ ، ولاحظت هي فجأة أنه كان خائفا منها .

وسألته : « ما بالك تخاف منى ؟ » ، ورققت صوتها ، ذلك أنها كانت سمعت صوت السيدة ستانلى الصغيرة ينبعث رقيقا .

وأشاح بوجهه عنها وقال آخر الأمر فى صوت خفيض :
« إنى لجاهل أشد الجهل ، فقد التحقت أنت بمدرسة أجنبية أما أنا فبقيت طوال عمرى فى هذه القرية ، ولتسخرن منى » .

وراحت ترقبه . ترى كيف يكون رد السيدة ستانلى لو أن السيد ستانلى قال لها هذا ؟ لقد ألقى السيد ستانلى ذات مرة برأسه على كتف السيدة ولأمر ما طفق يبكى كما يبكى الطفل الصغير ، ولم تضحك السيدة من ذلك ، بل أخذته بين ذراعيها وضمت رأسه ومضت تهمس إليه كما تهمس الأم إلى طفلها المريض ، وسرعان ما هدأ روعه . ولم تكن رولان قد فهمت ما تقوله السيدة ستانلى ولكنها أدركت معنى الأصوات ووعت الطريقة ، ذلك أنها ردت العافية إلى السيد ستانلى وكف عن البكاء .

وأرخت بصرها ناظرة إلى يديها فى رصانة ، وقالت فى صوت

خفيض حزين : « لا أكتمك أنى ظللت جاهلة على الرغم من أنى قضيت مدة طويلة فى تلك المدرسة ، ولا يمكن أن تبلغ من الجهل مبلغى ، وإنى لأعتقد أنك تعرف من الأمور أضعاف أضعاف ما أعرف . لقد بقيت فى المدرسة ثمانى سنوات حبيسة وراء الأسوار ، ولكن عقلى كان أغبى من أن يتعلم شيئاً من الكتب ، ولذلك تجدنى غاية فى الجهل ، ولا بد لى من أن أتعلم منك كل شىء »

وهناك أخذ يحدجها بنظراته ، وقد نسى أنها عروسه وأنه خائف منها ، وشرع يسألها : « ألم تتعلمى القراءة ؟ »

فأجابت : « إنما تعلمت النزر اليسير »

وعاد يسألها : « ألم تختمى قراءة الكتب الأربعة ؟ »

فأجابته قائلة : « لم أقرأ للأسف كتاباً واحداً من الكتب الأربعة »

وسألها متعجبا : « إذن ماذا كنت تفعلين كل هذه المدة ؟ »

فقالت فى انكسار : « كنت أجلس على أرائك فى فصول المدرسة فأجد من يحدثونى ، ولكننى لم أكن أستطيع أن أفهم منهم فقد كنت غبية مذ ولدت . لقد حدثونى عن الآلهة وعن السحر وعن الحشرات الضارة التى تسبب الأمراض لو أكلناها ، ولكن من يأكل الحشرات ؟ نحن على الأقل لا نأكلها ، ولذلك فإننى لم أتعلم شيئاً »

فسألها محتداً : « لا شيء على الإطلاق ؟ »

وأجابته فى حزن . « لا شيء على الإطلاق »

وأخلد إلى الصمت ولكنه راح ينظر إليها فى تبسط كثير ، وكف عن قضقضة لب البطيخ ، واستطاعت أن تتبيّن أمارات الخجل تغشى وجهه وهو يفكر فيما قالته له .

وقالت بعد مدة طويلة : « إنما تعلمت شيئاً واحداً » ، وأخذت تنحنى إلى الأمام وتنظر إليه ، وهو يبادلها النظرات .

وسألها : « وما هو هذا الشيء الواحد ؟ »

فقالت : « لقد كانت هناك امرأة بيضاء هى معلمتى ، وكانت زوجة رجل أبيض ، وكانا غاية فى السعادة فقد رزقا بطفلين قويين سود العيون ، جاء الواحد منهما عقب الآخر ، على الرغم من أن الأطفال الآخرين الذين يرزق بهم البيض تكون لهم جميعاً عيون زرق أو خضر . وقد تعلمت منهما شيئاً »

وسألها : « وما هذا الذى تعلمته منهما ؟ أن يرزقا بابنين سود العيون لتوفيق كبير بلا شك »

وقالت وهى تعمل الفكر وتختار شيئاً واحداً من كل ما تعلمت : « لقد تعلمت أن من التوفيق أن يتحادث الرجل وزوجته بحرية وأن يكون حديثهما دائماً فى أصوات رفيقة رقيقة ، كأنهما صديقان

يتبادلان الحديث في يسر على خلاف ما يفعلان في بيوتنا ، حيث يبدو لنا أن من المخجل أن يتحدثا بهذا الحديث »

« أتعنين أن يتبادلا الحديث في أي مكان ؟ »

« أجل ، هذا ما أعنيه »

وراح يحدق فيها في ثبات : « ثم ماذا ؟ »

« ثم إنه من حسن التوفيق أن يساعد الزوج زوجته إذا كان ثمة أمر يستدعي ذلك كأن يحمل سلة أو صرة حين لا يكون أحد من الخدم حاضراً »

وسألها متعجباً : « وماذا تفعل الزوجة ؟ »

« إنها تبدى أيضاً رغبتها في حمل الأشياء ، وهكذا يحاول كل منهما أن يساعد الآخر »

وسألها : « ومن تكون له الغلبة ؟ »

فأجابت في بساطة : « إنهما يتقاسمان العمل »

وانتظرت قليلا تفكر وتتذكر . . . لقد رأت مرة السيد ستانلى يرفع زوجته فوق بركة من الطين في الطريق ، ويحملها مجتازاً البركة ، ثم أنزلها على الجانب الآخر ، وكان ذلك في عصر يوم حين ظنا أنه لا يراهما أحد ، ولكنه قبل أن ينزلها ضمها إليه بشدة ووضع خده على خدها ثم مضيا في سبيلهما وكل منهما يمسك

بيد الآخر حتى أبصراها ، بيد أنها كانت قد رأتهما قبل ذلك بوقت طويل ، وأرادت أن تقول لها لا تباعدا بين أيديكما . فإنى لأعلم أنه يسركما أن تسيرا هكذا ، ولكنها أمسكت عن الكلام . . . .

وسألها : « وماذا تعلمت غير هذا ؟ »

« إنه من حسن توفيق الرجل وزوجته أن تتشابك أيديهما أحياناً ، إذ ليس فى هذا ما يوجب الخجل »

وسعل وأشاح بوجهه ، ومضت تقول مسرعة : « كثير من الأشياء ليس فيها ما يوجب الخجل وكنا نظنها مخجلة . إنها من دلائل التوفيق بين الرجل وزوجه ، لا أستطيع أن أقولها ؛ فإنها أشياء أولى أن تفعل من أن تقال »

وأرخى بصره ولم يحر جواباً ، وظل على صمته وقتاً طويلا ، ثم قال لها فى صوت يشوبه شىء من الخشونة : « إذن افعليها . . افعلى ما تعلمت »

ونهضت فى بطء ومضت إليه ، ثم جثت على الأرض أمامه كما رأت السيدة ستانلى تفعل مراراً ، ولكنها لم تستطع أن تمضى فيما شرعت فيه ، بالرغم من أنها كانت تعلم جيداً ما يستتبع ذلك ؛ فقد كانت الخطوة التالية أن تسند رأسها إلى ركبتيه وتطوق خصره بذراعيها ، إلا أنها لم تستطع أن تفعل هذا ، كانت هى التى عراها

الخجل الآن ، مع أن الأمر كان يبدو يسيراً غاية اليسر حين كانت تقوم به السيدة ستانلى .

وغمغمت تقول : « لا أستطيع أن أقوم بهذا كله دفعة واحدة ، وأولى بى أن أفعل منه القليل كل يوم ، ولكن لعل ... خذ يدى بين يديك على الأقل »

وجلس ساكناً كل السكون ثم رفع يديها بين يديه ، وسرى بينهما شىء من خلال يديهما ، وراح قلبها ينبض نبضاً شديداً ، ترى أكان قلب السيدة ستانلى ينبض بهذه القوة أيضاً ؟ ماذا دهاها ؟

وسألها : « ثم ماذا تعلمت بعد ؟ »

ولكنها لم تحر جواباً ، بل جذبت يديهما المتشابكة إليها وأسندت عليها رأسها ، لقد كان ينبغى لها أن تسأل السيدة ستانلى عن هذا القلب الذى ينبض نبضا شديداً .

وقال لها : « ارفعى رأسك » ، لشد ما كان صوته رقيقا ، يشبه فى رقته صوت السيدة ستانلى ، « ارفعى رأسك ودعينى أرفع خمارك حتى أرى وجهك »

ورفعت رأسها ، وجذب هو يديه عنها وخلع غطاء رأسها وخمارها ووضعهما على المنضدة ، ثم راح ينظر إليها . ومضى يحدثها بتلك اللهجة الرقيقة نفسها : « وهل تعلمت أن من حسن

توفيق الرجل أن يحب كثيراً المرأة التى اختاروها له ؟ » ، وكان قد أخذ يديها بين يديه مرة أخرى وراح يحدق فيها وهو يبتسم سعيداً ، كما كان يحدق ستانلى فى المرأة التى جثت أمامه . وكان السيد ستانلى قد سأل أيضا المرأة شيئا بتلك اللغة الغريبة التى يتحدثان بها ؛ فأجابته . ترى ماذا كان جوابها عن هذا السؤال الرقيق؟ لا شك أنه كان ثمة جواب ، وكان ينبغى لها أن تتعلم الجواب . ثم خطر لها الجواب فجاة ، أجل خطر لها ولكنه لم ينبثق من عقلها الممعن فى البطء الشديد البلاهة الذى لا يبتدر قط بالحديث ، وإنما انبثق من قلبها الخفاق : « أجل إنى لأعلم أن هذا من حسن التوفيق ، وغاية التوفيق أن تحب المرأة الرجل الذى وهبت له أجزل الحب »

وشعرت بخده يلاصق خدها كما تعلمت تماماً أو يكاد .

ولو أن رولان كانت قادرة على الكتابة لكتبت إلى معلمتها السيدة ستانلى منذ وقت طويل تستوضحها السبب فى تخلفها عن الحضور مع أنها وعدت بأن تأتى لزيارتها ، وقد انقضت الآن خمس سنوات تقريباً على مغادرة رولان المدرسة ، وازداد وزنها ثقلا فى السنوات الخمس ، وأية امرأة لا يزداد وزنها وقد ولدت ثلاثة أبناء ضخام أقوياء ثم ولدت آخر الأمر ابنة جميلة صغيرة ،

بلغ من جمالها أن أباها خالف سنن الطبيعة جميعاً وأحبها فيما يظهر قدر ما يحب أبناءه أنفسهم مرتين .

ولكن لم يكن على ظهر الأرض بطبيعة الحال رجل يمكن أن يقارن بيونغ إين . أجل فإن معاملة السيد ستانلى للسيدة ستانلى لم تكن قط بأفضل من معاملة يونغ إين لرولان ؛ فقد ظلت طوال السنوات الخمس تكشف له شيئاً فشيئاً عما رأت هذين الأبيضين يفعلانه ، تكشف له كيف كان ينظر كل منهما إلى الآخر ، وكيف كانا يتحادثان ، وأوحى إليهما هذا الحديث بما كانت تعنيه النظرات والكلمات . لقد غدت الآن واثقة من أن هذين الزوجين كانا حين يتحادثان بهذا الأسلوب الرقيق القوى يقولان بلغتهما هذا الذى أخذ الآن يفيض من قلبها ومن قلب يونغ إين ، وقالت تحدث نفسها ما أروع أن يفكر المرء فى تشابه القلوب ! أجل عرفت هذا ، إذ سرعان ما دفعتها غريزتها إلى التنقل بحرية مع يونغ إين ، والسير بحرية إلى جواره والاتجاه بحرية إليه ، والانطلاق معه حين يخلو بعضهما إلى بعض . كانت تعلم أن النساء فى الأروقة كثيراً ما ينددن بها . وكانت تعلم أنهن يقلن « إنها الجرأة التى تعلمتها فى المدرسة الأجنبية ، وإنها الحرية المعهودة فى الأساليب الحديثة » ، وكانت تبتسم ، مدركة أن فى أقوالهن شيئاً من الصدق .

وفكرت طويلا فى هدوء بالها ، ولم يخطر ببالها مثلا أن تشارك النسوة الأخريات قلقهن من أن يتخذ أزواجهن عشيقات ، أليست تعرف ما ينطوى عليه قلب يو نغ إين ؟ لقد كان هذا هو الذى تعلمته . . أن تسبر غور قلبه ! وكانا يتحدثان فى ذلك أحياناً وكيف أن حياتهما تختلف عن حياة أولئك الذين يحيطون بهما فيقول يو نغ إين دائماً فى امتنان : « لو أن السيدة والسيد ستانلى جاءا لزيارتنا يوماً فلن يكفينى شىء أبذله فى سبيل الإعراب لهما عن شكرى على ما تعلمت منهما ، ولو أنك لم ترى ما رأيت ولم تسمعى ما سمعت لما ارتقت حياتى إلى حياة أى رجل آخر ، وإنك بموقفك هذا قد أرضيتنى كل الرضا حتى لأحسب أنه لو مات نساء العالم جميعاً لما عرفت بالخبر » . وابتسمت مدركة أنها لم تكن جميلة فى يوم من الأيام ، ناهيك بما أصبحت عليه اليوم إذا قيست بأية امرأة جميلة ، ولكنها لم تكن تخشى منهن واحدة ، وهكذا كان شأنها ؛ فإنها حين ورد فى صبيحة يوم من أيام شهر أغسطس خطاب من المدرسة لم تستطع أن تنتظر حتى يعود يو نغ إين ويقرأه لها إلا بشق الأنفس . لقد كانت قد تخلت عن أى ادعاء بمعرفة القراءة منذ وقت طويل ، إذ تبخرت الحروف التى كانت تعرفها من ذاكرتها كل التبخر ، ولو أن امرأة سألتها بدافع الفضول أحياناً عن حرف وجدته فى قصاصة من الورق لضحكت فى ارتياح

وقالت : « إذا كنت عرفت الحروف يوماً فقد مضى على هذا اليوم وقت طويل . وما أقل حاجتى إلى الحروف فى هذه الأيام » . ولو أن ابنها البكر — وقد بدأ الآن يتعلم — هرع إليها يسألها عن معنى كلمة لقالت له ضاحكة على مألوفها : « لا مفر من أن تظل جاهلا يا بنى إذا كنت تطلب العلم منى ! »

ووضعت الخطاب جانباً وانتظرت حتى سمعت يونغ إين مقبلا ، فمضت إليه وصبرت حتى فضه ووضعت يدها على ذراعه ، وأحست بعد مرور هذه السنوات الخمس أن الأمر يقتضيها أكثر من أى وقت مضى أن تضع يدها على ذراعه ، وكان هو يتجه إليها عندما يشعر بلمستها ، مدركاً واعياً .

وغمغم بالحروف مجاهراً لحظة ثم قال : « إنه خطاب من السيد ستانلى ، فهم يريدون فتح كنيسة هنا فى قريتنا والتبشير بدينهم ، وسيقيمون مدرسة أيضاً ، وهو قادم وفى صحبته السيدة ستانلى »

فقالت فى لطف : « إنهما لا يفترقان بطبيعة الحال »

فقال وهو يطوى الخطاب : « أى نعم » ، وراح يرتب الأمور بسرعة : « لنستضفهما هنا فى منزلنا . فلدينا الغرفة الجنوبية التى تطل على الشرفة القديمة المشيدة من (عود الصليب) حيث أحتفظ بكتبي القليلة فإنى لا أختلف إليها قط ، ألا فلتزوديها بأحسن سرير

لديك وبالأساس المصنوع من خشب الساج الذى أهداه لنا أبى من الجنوب ، ولسوف أدعو بعض المدعوين ، وأدعو أصدقائى جميعاً ، ولست أحفل بأن أدعو المدعوين ليسمعوا التبشير بالدين ، وإنما أتخذ من دعوتهم وسيلة لرد ما فى عنق من دين لهذين الزوجين إن شئت أن أظهر بمظهر الصديق ، وأستطيع بذلك أن أعرب لهما عن شكرى على ما علماك »

فأمنت على كلامه قائلة : « أجـــل ، ونستطيع أن نريهما أولادنا »

فصاح مبتسماً : «ونستطيع أن نلحق ابنتنا بمدرستهم» ، وجلسا معاً فى سرور برىء ، وكل منهما يمسك بيد الآخر يضحكان قليلا ، وما لبث أن قال : « إننا لموفقان فى حياتنا من جميع النواحى »

فردّدت فى حرارة : « من جميع النواحى »

وهكذا رحبت بهذين الزوجين صبيحة يوم من أيام شهر أغسطس فى أواخر الصيف تقريبا ، وظهر الزوجان عند الباب ووقفا معاً وقد بديا أنحف قليلا مما تذكر ، وخطّ الشيب رأسيهما ، وصاحت وقلبها يقفز من صدرها لهفة عليهما : « إنكما لمتعبان ! ادخلا واستريحا وتناولا شيئا من الطعام ، آه يا ألف مرحب بكما »

وانقطع يونغ إين عن عمله حين جاءا وبقى فى الدار ، يهرول

هنا وهناك ، ويحمل بنفسه صوانى الحلوى ويحرص على أن تكون الصحاف مليئة ، ويصب الشاى ويمضى ليتحقق من الألحفة التى طويت على السرير ويرى إن كانت الناموسية قد أسدلت بإحكام ، وقال لها وهو يمر بها : « لا يكفينى كل ما أقوم به لهما »

وهكذا كان ، فقد أقام السيد والسيدة ستانلى عندهما ثلاثة أيام ، وراح يونغ ورولان يقصان عليهما خلال تلك الأيام كل ما كان فى جعبتهما ، وكل تلك السنوات السعيدة التى قضياها معاً ، وكل ما أصابهما من توفيق فى الأبناء الثلاثة والبنت الصغيرة . وكانت رولان قد اعتزمت أن تلبس أولادها أفخر ثيابهم ، ولكن الجو كان حاراً قائظاً فتركتهم وشأنهم ؛ فمن الخير أن يظلوا على راحتهم ، ثم إنهم كانوا غاية فى الجمال ، ينعمون بصحة سابغة تقر عين كل من يراهم بأجسامهم السمراء الصغيرة عارية حتى الخصر . وكانت قد اعتزمت أيضاً ان تنظف المنزل أكثر مما فعلت قليلا ، وأن تنفض التراب من قوائم المنضدة ومن النقوش المذهبة التى كانت تغشى تماثيل آلهة الأسرة ، ولكن أيام الصيف كانت قد ولت سريعاً حتى حضر الضيفان . وما إن جاءا حتى ضاق الوقت عن فعل أى شىء إلا حثهما على الأكل والحديث والتماس الراحة والاستمتاع بالاحتفال الفخم الذى خصاهما به والمصابيح المدلاة للترحيب بهما ورؤية الصواريخ التى اشتراها يونغ إين وأمر الخدم بإطلاقها ترويحا عنهما .

وكان عزمها قد صح على أن تحاول التحدث مع العزيزين السيد والسيدة ستانلى عن حياتها الخاصة وعما هى مدينة به لهما من فضل . أجل لقد صح عزمها على أن تقول لهما على الأقل إنها كانت سعيدة كل السعادة ، ولكن الوقت لم يتسع لشيء من هذا ، فقد كانا مشغولين بالمدرسة الجديدة يرسمان الخطط ويعملان فى جد كما كان دأبهما دائماً .

ولكنهما كانا لا يزالان سعيدين ، وعرفت هى هذا ؛ فقد كانا يتوقفان لشأنهما لينظر كل منهما إلى الآخر نظرات عميقة ، فلما رحلا هكذا سريعاً ، بل سريعاً جداً ، أحست بأنها تحبهما أكثر مما أحبتهما من قبل قط . ووقفت بجوار يونغ إين عند الباب تلوح لهما وتصيح بهما أن يمضيا فى طريقهما ببطء وأن يعودا سريعاً ، ثم صاح يونغ إين بهما : « لسوف تكون ابنتنا أول تلميذة فى مدرستكما ! » وهنالك فاض قلبها لهفة عليهما ومضت تصيح وراءهما : « أجل ، علماها فقد علمتمانى الكثير ! » ، وهذا كل ما اتسع لها الوقت لقوله ، ولكنها لم تكن قلقة فقد كانا خليقين بأن يدركا ما تعنى ، وعادت إلى منزلها مع يونغ إين ، وسعت يده إلى يدها فى هدوء واطمئنان وراحا يجتازان الرواق الخاص بهما راضين كل الرضا .

ومضى مولى ووانج يتخطران هابطين الطريق فى سيارة

البعثة المترنحة من طراز فورد ، ومالت موللى على واين حامدة الله على عودتها إلى الاختلاء به مرة أخرى ، وها هى ذى قد جلست بجوار واين تحس ، كشأنهما دائماً ، بطمأنينة عميقة جياشة تفيض من قلبها . لقد كانا عائدين إلى وطنهما وكانا معاً ، أجل كان عائدين إلى ولديهما ، واقتربت منه أكثر وأكثر فطوقها بذراعه ، وكان يقود السيارة بيد واحدة بمهارة فائقة .

وقال لها فى رقة ولطف : « أى حبيبتى ! لقد كان جميلا منك أن تترك الولدين لتقومى بهذه الرحلة معى ، وما كنت ألومك كما تعلمين لو أنك لم تفعلى »

« لا أطيق البعد عنك ياواين »

« أجـــل ، أعلم ذلك » وأخلد إلى السكون يشيع فيه الود والاطمئنان .

وكان الغسق قد بدأ يغشى الأراضى الصينية متسللا فى ضباب خفيف من البرك والقنوات هابطاً من السماء ينشر ظلالا قاتمة على التلال ، وارتفعت من الأسطح المسقوفة خطوط زرقاء من دخان النيران أشعلت لتجهيز العشاء ، وانطلقت تشق الهواء الساكن لا تلوى على شىء . ألا ما أعجب هذا المنظر ، وما أشد اختلافه عن تلال وطنها الوعرة وعن المدن الأمريكية الحادة

الزاوية ! ومع ذلك فما أقل العجب وما أقل الاختلاف ! لقد كانت هذه البلاد أوطانا هى الأخرى ، وهؤلاء القوم بشراً كذلك ، يقيمون معاً فى رحاب أسرهم ، وأحست بأن وطنها يقوم هنا ، فأينما يسكن واين فثم وطنها ، ولم تلبث أن أحست برضى عميق ، رضى عن كل شىء وعن كل إنسان .

ثم طافت رولان بذهنها فجأة .

فنادت : « واين ! »

وأجابها : « أجل »

« ما رأيك حقاً فى رولان »

وراح يقول لها وهو يغمز بطرف عينه مومئاً لها « حسنا ، ما رأيك أنت حقا »

فأجابت فى حزن : « لقد وجدت حالها على ما خشيت أن تكون تماماً ، فقد فقدت حتى ذلك القليل الذى كانت تعرفه . أدار بخلدك ، ولتصدقنى القول الآن ، أن رولان لم تغادر تلك القرية قط أو رأيت أقل فرق بين بيتها وبيت أى امرأة قروية جاهلة ؟ »

فأعمل واين الفكر ثم قال : « كلا » ، وقاد السيارة ببراعة بين أخدودين عميقين خلفتهما عربة يد .

وراحت مولى تسرح الطرف حزينة فى المناظر الطبيعية الممتدة أمامها والوديان يكسوها الأرز الذى أوشك على النضج بلون أحمر نحاسى ، والتلال يضفى عليها الصيف المولى حلة سمراء ، والقرى يطوقها شجر الصفصاف ، ومضت تقول : « كلا ، لقد كان البيت مغبراً ولم يعن بنظافته كل العناية ، وكان الأطفال يأكلون ما يقع فى أيديهم ، فقد رأيت البنت الصغيرة تأكل خيارة بقشرها وكل ما عليها »

فقال فى اقتضاب : « وكذلك رأيت هذا أنا أيضا »

« أما ررلان فلا تختلف فى شى عن البقرة الودود ، تجلس فقط ثم تبتسم وتبتسم . إنها لا تقرأ ، ويبدو أنها لا تفعل شيئا فى القرية ، فهى لا تعدو أن تكون امرأة عادية بعد أن غابت عن القرية كل تلك السنوات ، ولا أظن أنها تقوم فى بيتها بشىء يختلف عما تقوم به أترابها بالرغم من كل تلك الساعات التى أنفقتها فى محاولة تعليمها »

وسألها وانج فى جد : « أو رأيت تلك الأصنام يا مولى »

فأجابت مولى فى تردد : « أجل »

ومضيا فى طريقهما لحظة يخيم عليهم السكون ، وهما يذكران ذلك الصف من التماثيل المذهبة أضيئت أمامها الشموع يتساقط

ماذاب منها . لقد علما رولان فى كثير من الصبر والأناة أن تقول وتردد : « لن أشرك بك آلهة أخرى » ، وقد ألفت موللى أن تسألها :«ماهى الآلهه يارولان؟» ، فكانت تبتسم معتذرة وتقول: « أى معلمتى ، خبرينى فإنى لا أعلم »

« إنها الأصنام يارولان »

« أجل يامعلمتى ، فهذا ما ظننت »

« يجب ألاّ تعبديها يارولان »

« أجل يامعلمتى »

ثم جاء ذات مرة الدكتور مارتن وسألها فى حصة الدين من يكون الله فأجابت : « إن الله صنم ياسيدى ». يالرولان من غبية مسكينة ! ولم يكن أحد يدرى كيف يمكن أن تتعلم شيئاً ...

وعادت بها الذكرى إلى تلك الأيام الثلاثة المزدحمة .. أيام حفلت بطعام مسرف وضوضاء مسرفة وأطفال كثيرين وجيران من أهل الفضول يدخلون ويخرجون لمشاهدة الوافدين الجدد . على أن رولان فيما يبدو لم تكن تهتم بشىء ، فقـــد كانت تجلس هادئة فى غمرة هذه الفوضى ، تبتسم وتبتسم ، وبدا أن كل من حضر كان مشغوفاً بها ؛ فكثيراً ما كان أطفالها يهرعون إليها ، ويناديها

جيرانها مغتبطين ، ثم يونغ إين ... وخطر لها خاطر مفاجىء وهى تذكر يونغ إين .

فهتفت تنادى واين بغتة رافعة بصرها إليه : « واين ! »

« أجل يا حبيبتى! »

والتفت إليها وهو يبتسم ، لقد كانت ملتصقة به كالقطة الصغيرة وكأنما لم يتقدم بها العمر يوماً واحداً .

« إن ثمة أمراً واحداً يحضرنى عن رولان . . إن زوجها فيما يبدو يحبها حقا »

فأجاب مستأنيا : « أظن أنه يحبها . أى نعم ، ولست أدرى بالضبط لم يحبها . . إنها لا تذكر قطعا شيئا مما لقنّاه لها ! »



المارد العجوز

كانت السيدة وانغ العجوز تعلم بطبيعة الحال أن ثمة حرباً تدور ، فقد كان الجميع يعرفون منذ وقت طويل أن هناك حرباً ناشبة وأن اليابانيين يقتلون الصينيين ، ومع ذلك فلم يكن الأمر يؤخذ مأخذ الواقع ولا يعدو أن يكون من الشائعات ما دام آل وانغ سالمين لم يقتل منهم أحد ، بل إن قرية « الأميال الثلاثة لآل وانغ » التي تمتد على ضفاف النهر الأصغر المنبسطة — وهي قرية عشيرة السيدة وانغ العجوز — لم تشهد يابانياً واحداً ، وإنما جرى بينهم الحديث عن اليابانيين ، حين جرى ، على الوجه التالي :

كان الوقت مساء في باكورة الصيف وقد ارتقت السيدة وانغ بعد أن تناولت عشاءها درج السد كدأبها كل يوم ، لترى إلى أي مدى ارتفع النهر ؛ فقد كانت تخشى النهر أكثر مما تخشى اليابانيين ، لأنها كانت تعلم ما عسى أن يحدث . وراح القرويون يتبعونها مرتقين الدرج واحداً إثر واحد ، ثم مضوا يحملقون في تلك المياه الصفراء الخبيثة تتلوى في جريانها كأنها جملة من الأفاعي تعض ضفاف السد العالي .

وقالت السيدة وانغ : « لم أر النهر عالياً قط فى هذا الوقت المبكر كشأنه اليوم » وجلست على مقعد من الخيزران كان حفيدها الخنزير الصغير قد جاءها به ، ثم بصق فى الماء .

وقال الخنزير الصغير فى غير مبالاة : « إن هذا النهر المارد العجوز لأسوأ من اليابانيين »

وقالت السيدة وانغ فى عجلة : « ياللك من أحمق ! ليسمعنك إله النهر .. تحدث عن شىء آخر »

وهكذا مضوا يتحدثون عن اليابانيين .. فقد سأل وانغ الخباز مثلا ، وهو ابن ابن أخى السيدة وانغ كيف يعرفون اليابانيين حين يرونهم ؟

وهنالك قالت السيدة وانغ فى حزم : « لتعرفنهم ، لقد رأيت مرة أجنبياً ، كان أطول من طنف منزلى . شعره فى لون الطين وعيناه فى لون عينى السمكة ، إن كل من لا يشبهنا فهو يابانى »

وكان الجميع ينصتون إليها ؛ فقد كانت أكبر نساء القرية سناً ، وكان كل ما تقوله يحسم أمراً .

ثم تكلم الخنزير الصغير بلهجته المحيرة ، قال : « إنك لا تستطيعين أن تبصريهم ياجدتى ، فإنهم يختبئون فى السماء فى طائرات »

ولم تجب السيدة وانغ فى الحال ، فقد كانت خليقة بأن تجيب

فى حزم : « لن أصدق بوجود طائرة حتى أراها » على أن ثمة أشياء كثيرة حقيقية لم تكن تصدقها ، فالإمبراطورة مثلا لم تصدق هى أنها توفيت مع أنها كانت قد توفيت حقاً ، وكذلك لم تصدق أن ثمة جمهورية كانت قائمة ، لأنها لم تكن تعرف ما هى الجمهورية ، ولم تعرف حتى الآن ما هى ، ولكنهم ظلوا يرددون وقتاً طويلا أن ثمة جمهورية قائمة . وهكذا اكتفت الآن بأن تحملق بهدوء فيما حول السد حيث جلس الجميع يحيطون بها . لقد كان الجو رطيباً لطيفاً غاية اللطف ، وشعرت بأنه ما من شىء يستحق الاهتمام إذا لم ترتفع مياه النهر فتغرق الأرض .

وقالت فى لهجة جازمة : « إننى لا أؤمن باليابانيين »

وضحكوا لقولها قليلا ، ولكن لم ينبس أحدهم ببنت شفة ، وأشعل أحدهم غليونها ، وكان من أشعله زوجة الخنزير الصغير صاحبة الحظوة عندها ، وراحت المرأة العجوز تدخن .

ونادى بعضهم يقول : « غنّ أيها الخنزير الصغير ! »

وهكذا شرع الخنزير الصغير يغنى أغنية قديمة فى صوت عال مرتجف ، وراحت السيدة وانغ العجوز تنصت ، ونسيت اليابانيين وكان المساء جميلا ، والسماء صافية ساكنة فانعكس شجر الصفصاف الذى يتدلى على السد فوق صفحة الماء العكر نفسها . وكان الهدوء يغشى كل شىء ، وقد تناثرت المنازل الثلاثون التى تتألف منها القرية

دونهم ، ولم يكن ثمة شيء يمكن أن يفسد هذا الهدوء ، فإن اليابانيين على كل حال ليسوا إلا بشراً .

وقالت فى صوت رقيق للخنزير الصغير عندما فرغ من إنشاده : « إننى أشك فى تلك الطائرات »

ولكنه لم يجبها بل مضى يغنى أغنية أخرى .

لقد قضت المرأة العجوز أمسيات الصيف على هذه الحال فوق السد سنة بعد سنة ، وكانت المرة الأولى وهى بعد عروس فى السابعة عشرة من عمرها ، فقد صاح بها زوجها أن تخرج من المنزل وترتقى السد ، فجاءت يعروها الخجل تلوى يديها المشتبكتين واندست بين النساء ، على حين ضج الرجال بالضحك وأخذوا يرمونها بالنكات ومع ذلك فقد راقت لهم ، وقالوا لزوجها : « قطعة جميلة من اللحم فى طاسك » ، فأجابهم منتقصاً من قدرها : « إن قدميها كبيرتان بعض الشىء » ولكنها كانت مستطيعة أن ترى أمارات السرور بادية عليه ، ومن ثم أخذ الخجل ينجاب عنها شيئاً فشيئاً .

لقد كان المسكين قد غرق فى غمرة فيضان ، وهو بعد فى شرخ الشباب ، وقد قضت سنوات تعمل على تخليصه من المطهر البوذى بالصلاة ، وانتابها السأم من ذلك آخر الأمر ، فقد كان يقع على كاهلها عبء الطفل والأرض جميعا ، وقال لها الكاهن ذات يوم

متلطفا : « عشرة أخرى من الفضة فيخلص كله من المطهر ».

فسألته : « وماذا بقى منه فى المطهر بعد ؟ »

فأجابها الكاهن مشجعا : « لم تبق إلا يده اليمنى »

وهنالك نفد صبرها ، عشرة ريالات ! إن هذا المبلغ لخليق بأن يكفل لها الغذاء فى الشتاء . ثم إن الأمر كان يقتضيها أن تستأجر بعض العمال لتسهم بنصيبها فى إصلاح السد أيضا حتى يمكن تجنب حدوث فيضانات جديدة .

فقالت للكاهن فى حزم : «إذا كان لم يبق منه فى المطهر إلا يد واحدة فإنه مستطيع أن ينتشل نفسه ! »

وكثيراً ما راحت تسائل نفسها أوقد استطاع هذا الفتى الأبله المسكين أن يفعل ؟ ثم إنها كثيراً ما كانت تفكر فى أثناء الليل مغتمة : أتراه لا يزال باقيا هناك ينتظر أن تفعل من أجله شيئا ، فقد كان رجلا من هذا الطراز حقا . حسناً لعلها تستطيع يوما بعد أن تضع زوجة الخنزير الصغير مولودها بسلام ويتوفر لها فائض من مال ، أن تعود إليه لتخلصه من المطهر ، ذلك أن الأمر لم يكن حقا يقتضى العجلة .

وقالت زوجة الخنزير الصغير فى صوت رقيق : « لتعودن إلى الدار ياجدتى فقد بدأ الضباب يرتفع الآن من النهر مع مغيب الشمس»

فأمنت السيدة وانغ العجوز على قولها : « أجل ، فإنى لأحسب أن الأمر يقتضينى أن أقفل راجعة إلى الدار » ، وحدجت النهر بنظراتها لحظة . . ذلك النهر الذى يزخر بالخير والشر جميعا ، لقد كان يروى الحقول إذا ما كبح جماحه وشد لجامه ، فإذا أطلق له العنان بوصة واحدة شق طريقه ودمر كل ما يصادفه كأنه تنين هادر . وهكذا اجتاح الفيضان زوجها ؛ فقد كان مهملا فى ذلك الجزء الخاص به من السد . لقد كان يقول دائما إنه سيصلحه وإنه سيكدس المزيد من التراب فوقه ، ثم ارتفع النهر ذات ليلة وكسر السد . كان زوجها قد خرج من المنزل ، وتسلقت هى والطفل سطح المنزل فأنقذت نفسها وأنقذت الطفل ، وغرق هو . لقد ردّوا النهر منذ ذلك الحين على أعقابه خلف سدوده ، ولزم حده هذه المرة . وكانت تذرع كل يوم بنفسها السد الذى كانت القرية مسئولة عنه وتتفحصه ، وكان الرجال يضحكون ويقولون : « خليق بالجدة أن تخبرنا لو أصاب السدود أى خلل »

ولم يخطر ببال واحد منهم قط أن ينقل القرية بعيداً عن النهر ، فقد أقام آل وانغ بجواره أجيالا ، بل إن بعضهم كان يفلت دائماً من الفيضان ويعود إلى نضال النهر نضالا أعنف مما كان يفعل من قبل قط .

ثم كف الخنزير الصغير فجأة عن الغناء، وصاح قائلا : « إن القمر

يعتلى السماء وليس هذا بشير خير ، فإن الطائرات تحلق فى الليالى المقمرة »

فهتفت السيدة وانغ العجوز قائلة : « أين تعلمت كل هذا عن الطائرات ؟ » ثم أردفت : « إن ما تقول يقلق راحتى » . وكانت لهجتها من الشدة بحيث لم ينبس أحد ببنت شفة ، واستندت فى غمرة هذا السكون على ذراع زوجة الخنزير الصغير وأخذت تهبط فى بطء الدرجات المصنوعة من الطين التى تؤدى إلى القرية ممسكة غليونها الطويل فى يدها الأخرى تتوكأ عليه ، وسار خلفها القرويون واحداً واحداً ليأووا إلى فراشهم ، ولم يكن أحد يتحرك قبل أن تتحرك ولا يلبث أحد طويلا بعد أن تذهب !

ثم أوت إلى فراشها آخر الأمر ، واندست خلف ستائر الناموسية القطنية الزرقاء بعد أن أحكمت تثبيتها زوجة الخنزير الصغير ، واستغرقت فى نوم هادىء ، وكانت قد استقلت برهة مستيقظة تفكر فى اليابانيين وتعجب من سعيهم إلى القتال ، فلا يطلب الحرب إلا من غلظت قلوبهم أشد الغلظة ، ورأت بعين خيالها قوماً ضخام الجثة غلاظ القلوب . وراحت تقول بينها وبين نفسها لو أنهم جاءوا لوجب على المرء أن يصانعهم ويدعوهم إلى شرب الشاى وأن يشرح لهم بالعقل والمنطق ، ولكن لماذا يأتون إلى قرية زراعية آمنة ..؟

ومن ثم لم تكن متأهبة قط إلى سماع زوجة الخنزير الصغير

تصرخ قائلة إن اليابانيين قد أقبلوا ، فاستوت جالسة فى فراشها تتمتم ، « أقداح الشاى .. الشاى ! »

وصاحت زوجة الخنزير الصغير : « الوقت ضيق ياجدتى ! إنهم هنا . . هنا ! »

وهتفت السيدة وانغ العجوز ، وقد استيقظت قائلة : « أين ؟ »

فولولت زوجة الخنزير الصغير قائلة : « فى السماء ! »

وما إن قالت هذا حتى هرعوا جميعاً إلى الخارج ، وكانت تباشير الفجر قد لاحت صافية شفافة ، وراحوا يتطلعون إلى السماء ، وكانت ثمة أشباح كبيرة كالطير تحلق كأنها الأوز البرى فى الخريف .

وصاحت السيدة وانغ العجوز : « ولكن ما هذه ؟ »

ثم اندفع شىء كالبيضة الفضية منحطاً لا يلوى على شىء فى حقل بالطرف الأقصى من القرية ، وثار تل من التراب فركضوا جميعاً ليشهدوه . ووجدوا حفرة عرضها ثلاثون قدماً ، كبيرة كأنها البركة ، وعقدت الدهشة ألسنتهم ، وقبل أن يقول أحدهم شيئاً أخذ البيض يتساقط واحدة إثر أخرى ، وانطلق الجميع يركضون ويركضون ...

انطلقوا جميعاً فيما عدا السيدة وانغ ؛ ذلك أنها حين أخذت زوجة الخنزير الصغير بيدها لتمضى بها جذبت السيدة العجوز يدها وجلست مستندة إلى ضفة السد .

وقالت : « لا أستطيع أن أركض ، فإنى لم أركض منذ سبعين عاما قبل أن تقيد قدماى ، اذهبى أنت ، أين الخنزير الصغير ؟ » وتلفتت حولها . وكان الخنزير الصغير قد مضى، فقالت : « إنه كجده ، أول الهاربين دائما »

ولكن زوجة الخنزير الصغير أبت أن تتركها ، أبت ذلك حتى ذكرتها السيدة وانغ أن الواجب يقتضيها أن تذهب .

فقد قالت : « لو لقى الخنزير الصغير حتفه لوجب أن يولد ابنه حيا » ، وبدأ التردد على الفتاة بالرغم من هذا ، فراحت تضربها فى رقة ولطف بغليونها وتقول : « اذهبى .. اذهبى ! »

وهكذا مضت زوجة الخنزير الصغير مع الأخريات على كره منها ، ذلك أنهم لم يعودوا الآن يستطيعون أن يسمعوا بعضهم بعضا أو يكادوا بسبب هدير الطائرات المنقضّة .

وكان هذا الحادث قد مضى عليه بضع دقائق فقط ، ومع ذلك أصبحت القرية أطلالا والسقوف المصنوعة من القش والروافد الخشبية نارا . وكان الجميع قد رحلوا ، وصاحوا بالسيدة وانغ العجوز وهم ماضون فى طريقهم أن تأتى معهم فأجابتهم فى لطف ورقة « إننى قادمة . . إننى قادمة ! »

ولكنها لم ترحل ، بل جلست وحيدة تترقب ذلك الذى غدا مشهداً غريباً عجيباً . إذ ما لبثت أن أقبلت طائرات أخرى ، لا تدرى من أين أقبلت ، وانطلقت تهاجم الطائرات الأولى ، واعتلت الشمس السماء فوق حقول القمح الناضج ، ومضت الطائرات فى هذا الجو الصينى الرائق تدور وتنقض وتبصق كل منها على الأخرى ، وقالت بينها وبين نفسها ما إن ينتهى هذا حتى تعود إلى القرية وترى إن كان قد بقى شىء . ووجدت هنا وهناك جداراً قائماً يسند سقفاً ، على أنها لم تكن مستطيعة أن ترى منزلها من المكان الذى كانت فيه . ولكن الحروب لم تكن غريبة عليها ، فقد حدث مرة أن نهب قطاع الطرق قريتها ، وأحرقت المنازل فى تلك المرة أيضاً ، وها هو ذا الأمر قد حدث مرة أخرى . إن المرء يستطيع أن يرى المنازل وهى تحترق كثيراً ، ولكن الفرصة لا تسنح له لرؤية هذه المعركة الجوية السريعة تتألق تألق الفضة ، لم تكن تدرك من الأمر شيئاً . أجل لم تكن تدرك كنه هذه الأشياء ، ولا كيف تبقى فى السماء ، فاكتفت بالجلوس ترقبها ، وأخذ الجوع يعضها بنابه .

وقالت بصوت مرتفع : « وددت أن أرى واحدة منها عن كثب » ، وفى تلك اللحظة هبطت إحداها مسفة فجأة كأنما استجابت لرجائها وراحت تدور وتتلوى كأنما أصيبت بجرح ثم سقطت فى حقل كان الخنزير الصغير قد حرثه بالأمس فقط ليزرعه فولاً من نوع

الصويا . وما انقضت لحظة حتى خلت السماء مرة أخرى ولم يبق سواها هى وهذا الشىء الجريح الذى استلقى على الأرض .

ورفعت نفسها فى عناية عن الأرض ، ولم يكن ثمة ما يخيفها وقد بلغت هذه السن . وقالت تحدث نفسها ألا ضير فى أن تذهب وترى هذا الشىء ، ومضت تشق طريقها مستأنية مجتازة الحقول مستندة إلى غليونها المصنوع من الغاب ، وظهر كلبان أو ثلاثة من كلاب القرية فى ذلك السكون الذى غشى المكان فجأة ومضت تزحف بجوارها مذعورة ، وما إن اقتربت الكلاب من الطائرة الهاوية حتى أخذت تنبح نباحاً شديداً فضربتها عندئذ بغليونها ونهرتها قائلة : « هدوءا .. وحسبي ما عانيت من ضجيج وقر أذنى! »

وقرعت الطائرة بخفة .

وقالت تحدث الكلاب : « إنها مصنوعة من المعدن » وأردفت : « ولا شك أنه هو الفضة » ولو قد أذيبت لأثروا منها جميعاً .

ودارت حولها تتفحصها بدقة ، ترى ما الذى كان يجعلها تطير ؟ إنها تبدو الآن خامدة خمـــود الموت ، فلم يكن فيها شىء يتحرك أو يحدث صوتاً فى داخلها ، ثم تحولت إلى الجانب الذى كانت تقرعه فرأت شاباً ماثلا فيه وقد بدا كالكوم فى المقعد الصغير ، وهمهمت الكلاب وعادت تضربها مرة أخرى فارتدت على أعقابها .

وسألت فى أدب : « أو لقيت حتفك ؟ »

وتحرك الشاب قليلا عند سماع صوتها : ولكنه لم ينبس ببنت شفة ، واقتربت منه ونظرت فى الحفرة التى كان يجلس فيها فوجدت جنبه ينزف دماً .

وهتفت تقول : « جريح ! » وأخذت معصمه فى يدها ، كان دافئاً ولكنه كان جامداً لا يتحرك فلما تركته سقط إلى جانب الحفرة ، وحملقت فيه . كان أسود الشعر داكن البشرة كالصينيين ولكنه لم يكن مع ذلك يبدو صينيا .

فقالت بينها وبين نفسها : « لا شك أنه من أهل الجنوب » ، فليكن ، فإن أهم ما فى الأمر أنه كان على قيد الحياة .

وقالت : « يحسن بك أن تخرج ، ولأضعن ضمادة من العشب على جنبك »

وتمتم الشاب بشىء فى تثاقل وكلال .

وسألته : « ماذا تقول ؟ » ولكنه لم يردد ما قال .

وسكتت لحظة ثم قالت فى حزم : « إننى مازلت فى عنفوان قوتى » ، ومن ثم مدت إليه يدها وأمسكت به من الخصر وأخرجته مستأنية ، وهى تلهث كثيرا ، وكان لحسن الحظ شابا قلة ، خفيفا غاية الخفة ، فلما أرقدته على الأرض لاح وكأنه عثر على ساقيه ، ووقف عليهما يترنح وتشبث بها .

وقالت : « إذا استطعت الآن أن تسير إلى منزلى ، فلأرين إن كان لا يزال قائماً »

ثم قال شيئاً واضحا كل الوضوح ، واستمعت إليه ولكنها لم تستطع أن تفهم كلمة مما يقول ، وابتعدت عنه وراحت تتفرس فيه .

وسألته : « ماذا تقول؟ »

فأشار إلى الكلاب ، وكانت تقف مهمهمة وقد وقف الشعر فوق أعناقها ، ثم تكلم مرة أخرى وتداعى وهو يتكلم ، وانقضت الكلاب عليه حتى اضطرت إلى إبعادها عنه إذ ضربتها بيدها .

وصاحت تقول : « اذهبى ، من ذا الذى أمرك بقتله ؟ »

فلما ارتدت الكلاب على أعقابها ، حملته على نحو ما فوق ظهرها ، ومضت به تكاد تحمله ، أو تكاد تجذبه أو قل تجره إلى القرية المدمرة ، وأرقدته فى الشارع وذهبت تبحث عن منزلها ، وأخذت الكلاب معها .

وكان منزلها قد امحى من الوجود محواً ، على أنها تعرفت على مكانه فى يسر ، فقد كان ينبغى أن يكون هنا أمام باب العين التى تحجز ماء السد . لقد كانت هى نفسها ترقب هذا الباب دائما ، ومن

عجب أنه لم يلحق به أذى كما أن السد نفسه لم يصب بضرر . لقد كان من اليسير أن يقام المنزل مرة أخرى ، ولكنه كان قد زال الآن من الوجود .

ومن ثم عادت إلى الشاب ، فوجدته جالساً حيث تركته مستنداً إلى السد ، يلهث وقد امتقع وجهه حتى حاكى وجوه الأموات ، وكان قد فتح سترته وأخرج كيساً صغيرا راح يخرج منه قطعاً صغيرة من القماش وزجاجة تحتوى على سائل ما ، ثم عاد إلى الكلام ، ولم تفهم من كلامه شيئاً هذه المرة أيضاً . وأشار إليها بعض إشارات فهمت منها أنه يريد ماء ، فتناولت قدراً مكسورة من القدور الكثيرة التى كانت مبعثرة فى الشارع وارتقت درج السد وملأتها بماء النهر وحملتها إليه وغسلت جرحه . ومزقت قطع القماش التى صنعها من لفافات الأربطة ، وكان يعرف كيف يضع القماش فوق الجرح الفاغر ، وأشار إليها بعض إشارات واهتدت بها ، وكان لا ينفك يحاول أن يقول لها شيئاً ولكنها لم تستطع أن تفهم منه شيئاً .

وقالت : « لاشك أنك من الجنوب يا سيدى » . فقد كان من الواضح أنه تلقى قسطاً من التعليم ، وكان يبدو غاية فى المهارة : « لقد سمعت لغتك وهى تختلف عن لغتنا » ، وضحكت قليلا لتهدىء من روعه ، ولكنه اكتفى بأن حملق فيها بوجه تعلوه سحابة من حزن

وعينين خامدتين ، فقالت فى مرح : « لو استطعت أن أجد شيئا تأكله لكان ذلك جميلا »

ولم يجب ، بل استلقى حقاً وراح يلهث ويلهث محملقاً فى الفضاء كأنها لم تتكلم .

ومضت تقول : « سيصلح الطعام من شأنك » وأردفت : « ومن شأنى أنا أيضاً » ، فقد كانت تحس بالجوع يعضها بنابه عضا .

وخطر لها أنها قد تجد شيئا من الخبز فى مخبز وانغ ، ولئن كان التراب قد غشيه من الملاط الذى تساقط عليه فإنه يكون خبزاً على كل حال . فلتذهب إذن وتستطلع الأمر ، ولكنها قبل أن تمضى نقلت الجندى قليلا حتى يرقد فى طرف ظل تلقيه شجرة صفصاف على ضفة السد ، ثم ذهبت إلى المخبز وكانت الكلاب قد ولت .

كان المخبز كأى شىء آخر أطلالا ، ولم تجد فيه أحدا ، ولم تر أول الأمر شيئاً إلا كتلة من جدران اللبن منقضة ، ولكنها تذكرت أن الفرن داخل الباب تماماً . وكان إطار الباب لا يزال منتصباً يسند طرفاً من السقف ، ووقفت داخل هذا الإطار ودست يدها تحت السقف المتهدم من الداخل ، ولمست الغطاء الخشبى للدست الحديد ، لعلها تجد تحت هذا الغطاء خبزاً ساخنا ،

ودست ذراعها فى رقة وعناية تحت الغطاء ، واستغرق هذا منها وقتاً طويلا ، وثارت بالرغم من ذلك سحب من الجير والتراب كادت تخنقهـا ، ومع ذلك فقد كانت محقة فيما ذهبت إليه ؛ فقد أنفذت يدها تحت الغطاء وأحست بصفحة أرغفة الخبز الـكبيرة الساخنة ناعمة ملساء ، وأخرجت من الفرن أربعة أرغفة واحداً فى أثر واحد .

وقالت مغتبطة غير موجهة الخطاب لأحد بالذات : « من العســـير قتل عجوز مثلى » ، وشرعت تأكل رغيفاً وهى تعود أدراجها ، آه لو توفر لهـا قليل من الثوم وقدح من الشاى ! ولـكن المرء لا يستطيع أن يحصل على كل شىء فى هذه الظروف .

وفى تلك اللحظة طرقت أذنيها بعض الأصوات ، فلما وقع نظرها على الجندى رأت من حوله حشداً من الجنود الآخرين . إن الأرض قد انشقت عنهم ، وكانوا يتفرسون فى الجندى الجريح وكانت عيناه قد انغلقتا إذ ذاك .

وصاحوا بها : « من أين لك هذا اليابانى أيتها الأم العجوز ؟ »

فسألتهم مقبلة نحوهم : « أى يابانى ؟ »

فصاحوا : « هذا »

فهتفت وقد استبدت بها الدهشة : « أيابانى هو ؟ ولـكنه يبدو مثلنا ؛ فإن عينيه سوداوان وبشرته ... »

وصاح بها واحد منهم : « إنه ليابانى ! »

فأجابت فى هدوء : « لقد سقط من السماء »

وصاح آخر : « أعطنى هذا الخبز ! »

فقالت : « خذه جميعاً ، ما عدا هذا الرغيف فاتركه له »

وصاح الجندى : « قرد يابانى يأكل الخبز الطيب ؟ »

فأجابت السيدة وانغ العجوز : « إنى لأحسب أنه جائع هو أيضا » وبدأت تكره هؤلاء الرجال ، ولكنها كانت تكره الجنود دائما على كل حال !

وقالت : « وددت أن ترحلوا ، ماذا تفعلون هنا ؟ لقد كانت قريتنا دائما هادئة مطمئنة »

وقال واحد منهم ، وقد افتر ثغره عن ابتسامة وانية : « لعمرى إنها تبدو الآن هادئة كل الهدوء ، بل هى ساكنة سكون القبور ، أتعلمين من فعل بها هذا أيتها الأم ؟ إنهم اليابانيون ! »

فأمنت على كلامه قائلة : « أظن هذا » ثم سألت : « ولكن ما بالهم يفعلون ؟ هذا ما لا أفهمه »

« ما بالهم ؟ لأنهم يريدون أرضنا ، وهذا هو السبب ! »

فرددت قوله : « أرضنا ! وى ، إنهم لا يستطيعون أن يستولوا على أرضنا ! »

فصاحوا : « لن يستولوا عليها أبدا ! »

ولكنهم ظلوا طوال الوقت الذى قضوه فى الحديث وأكل الخبز الذى اقتسموه بينهم يرقبون الأفق الشرقى .

وراحت السيدة وانغ العجوز تسألهم : « لم تواصلون النظر صوب الشرق ؟ »

فقال الرجل الذى أخذ منها الخبز : « اليابانيون قادمون من هناك »

فسألته متعجبة : « أتفرون منهم ؟ »

فقال معتذراً : « لسنا إلا نفراً قليلا ، وقد تركونا انحرس إحدى القرى ، وهى قرية ياوآن فى ولاية ... »

فقاطعته السيدة وانغ العجوز قائلة إننى لأعرف تلك القرية ، ولا حاجة بك إلى أن تحدثنى عنها فقد أقمت فيها وأنا بعد فتاة صغيرة ، كيف حال ياو العجوز صاحب مشرب الشاى القائم فى الشارع الرئيسى ؟ إنه أخى »

فأجاب الرجل : « لقد مات كل من فيها ، إذ استولى اليابانيون عليها ؛ فقد غشيها جيش كبير مسلح بالدبابات والأسلحة الأجنبية فماذا كنا نستطيع حيالهم ؟ ! »

وأمنت على كلامه بقولها : « لم تكن أمامكم وسيلة إلا الهرب بطبيعة الحال » ومع ذلك فقد شعرت بالدوار ينتابها والمرض يدب فى أوصالها . إذن فقد مات هذا الأخ الوحيد الذى خلفته وراءها ! وغدت هى آخر من بقى على قيد الحياة من أسرة أبيها .

ولكن الجنود كانوا قد أخذوا يهيمون على وجوههم مرة أخرى تاركينها وحدها .

وكانوا يقولون : « إنهم لقادمون أولئك الأقزام السود الصغار وأولى بنا أن نرحل »

ومع ذلك فقد توانى واحد منهم لحظة ، ذلك الذى كان قد أخذ منها الخبز ، ليلقى نظرة على الشاب الجريح الذى كان قد رقد مغمض العينين لا يأتى بحركة ما .

وسأل : « أهو ميت ؟ » ، وقبل أن تجيبه السيدة وانغ كان قد استل سكيناً صغيرة من حزامه وقال : « سواء أكان حياً أم ميتاً فلأطعننه طعنة أو اثنتين بهذه »

ولكن السيدة وانغ العجوز دفعت ذراعه بعيداً .

وقالت فى لهجة آمرة : « كلا وأمسك ، فإن كان ميتاً فلا جدوى من إرساله إلى المطهر وقد تمزق إرباً إرباً ، فإنى بوذية صالحة أنا نفسى »

وضحك الرجل ثم قال : « إنه قد فارق الحياة على كل حال » ورأى رفاقه قد سبقوه وأصبحوا منه على مرحلة فركض لاحقا بهم .

إذن فهو يابانى ! وراحت السيدة وانغ العجوز ، وقد أصبحت وحيدة مع هذا الشاب الهامد الحركة ، ترمقه بنظرات فاحصة . وكان فى استطاعتها أن ترى الآن إذ ألفته مغمض العينين أنه فى ريق الشباب ، وبدت يده المسترخية وهو فاقد الشعور كأنها يد صبى لا تزال فى طور النمو ولم تستقر بعد فى صورتها الكاملة ، وتحسست معصمه ولكنها لم تستطع أن تتبين نبضه ، وحنت عليه وقربت من شفتيه نصف رغيفها الذى لم تأكله .

وقالت فى صوت غاية فى الارتفاع والوضوح : « كل ! إنه خبز ! »

ولكنه لم يجب ، وكان من الواضح أنه فارق الحياة ، ولا شك أنه كان قد قضى عندما مضت تأتى بالخبز من الفرن .

ولم تجد ما تفعله إلا أن تأتى على الخبز بنفسها ، فلما فرغت من ذلك أخذت تتساءل ، ألم يكن الأمر يقتضيها أن تلحق بالخنزير الصغير وزوجته والقرويين جميعاً ؟ وكانت الشمس تعتلى كبد السماء وقد أخذ الجو يزداد حرارة . أولى بها أن ترحل إن كانت قد انتوت الرحيل ، ولكن عليها أن تتسلق السد أولا لتتبين الوجهة

التى تتجهها . لقد اتجهوا غرباً فى خط مستقيم ، وكان ثمة سهل عظيم على مرمى البصر غرباً ، لقد كانت مستطيعة أن ترى جمهرة كبيرة من الناس على بعد أميال منها . ومهما يكن من شىء فإن فى مقدورها أن ترى القرية المجاورة ، وقد يكونون جميعاً هناك .

ومن ثم مضت تتسلق السد فى بطء والحرارة الشديدة تأخذ بخناقها ، ولكن كان يهب على قمة السد نسيم عليل أنعشها ، وراعها أن تجد النهر قريباً جداً من قمة السد ، وى . . لقد ارتفعت المياه فى الساعة الأخيرة !

وقالت فى شدة : « يالك من مارد عجوز ! » وليسمع إله النهر هذا إن شاء : لقد كان شريراً ، شريراً حقاً ، يهدد القرية بالفيضان فى هذا الوقت الذى تواجه فيه تلك المحنة الأخرى .

وحنت على النهر وغسلت خديها ومعصميها ، وكان الماء بارداً جداً كأنما هطلت أمطار جديدة فى مكان ما ، ثم انتصبت واقفة وراحت تسرح الطرف فيما حولها . لم يكن فى الغرب شىء اللّهم إلا الجنود يجدّون فى السير على بعد بعيد منها ، ومن ورائهم القرية المجاورة تبدو باهتة شاحبة ، وتقوم على مرتفع ممتد من الأرض . لقد كان أولى بها أن تيمّم شطر تلك القرية ، إذ لا شك أن الخنزير الصغير وزوجته ينتظرانها فيها .

وبينما كانت تتهيأ للهبوط وتمضى فى رحلتها رأت شيئاً فى الأفق الشرقى ، ولم يكن ذلك الشىء أول الأمر إلا سحابة ضخمة من الغبار ، وما إن همّت بالاتجاه صوبها حتى انقلبت فى مثل لمح البصر إلى نقط سوداء كثيرة وبقع لامعة لا حصر لها ، ثم تبينت ما هى ، لقد كانت حشداً من الرجال .. بل جيشاً ، وعرفت فى الحال أى جيش هذا .

وقالت تحدث نفسها : « هؤلاء هم اليابانيون » أجل فقد كانت تحلق فوقهم تلك الطائرات الفضية ذات الأزيز ، تحوم كأنما تبحث عن شخص .

ودمدمت : « لست أدرى عمن تبحثين ، اللهم إلا إذا كنت تبحثين عنى وعن الخنزير الصغير وعن زوجته ، فلم يبق من أحد على قيد الحياة سوانا ، وقد سبق لك أن قتلت پاو أخى »

وكانت قدنسيت أو كادت أن پاو لقى حتفه، وعادت إليها الذكرى الآن تحزّ فى قلبها حزّاً ، لقد كان له حانوت جد جميل . . لا تراه إلا نظيفاً ، تشرب فيه الشاى الطيب وتصيب به أحسن اللقيمات المحشوة باللحم ، أسعاره واحدة لا تتغير ولا تتبدل أبداً . لقد كان پاو رجلا طيباً ، ترى ما الذى حل بزوجته وأطفاله السبعة ؟ لا شك أنهم قتلوا جميعاً أيضا ، وهؤلاء اليابانيون يبحثون الآن

عنها ، وخطر لها أن اليابانيين قد يشاهدونها فى يسر ، وهى على السد ، ومن ثم راحت تهبط مسرعة .

ولم تخطر لها فكرة باب السد إلا وهى فى منتصف الطريق هابطة السد ، يا لهذا النهر القديم ! لقد كان نقمة عليهم من قديم الأزل ، لم لا يعوضهم الآن شيئا قليلا مما اجترحه فى حقهم من إثم وشر ! لقد كان يبيت لهم الشر مرة أخرى ويحاول التسلل من فوق ضفتيه ، لم لا ! وترددت لحظة . لقد كان من المؤلم بطبيعة الحال أن يكتسح الفيضان هذا الشاب اليابانى الذى قضى ؛ فقد كان شابا وسيما أنقذته هى من طعنات ذلك الجندى . لقد كان صنيعها هذا لا يعدل إنقاذ حياته حقا ولكنه قريب من ذلك . ولو قد كان على قيد الحياة لأنقذت حياته . ثم مضت إليه وظلت تجره حتى جاءت به قرب قمة الضفة ، ثم عادت وهبطت السد .

لقد كانت تعلم حق العلم كيف تفتح باب السد ، وكان كل طفل يعرف كيف يفتح عين القنطرة لرى المحاصيل ، ولكنها كانت تعرف كيف تفتح الباب كله على مصراعيه ، ترى هل تستطيع أن تفتحه بسرعة بحيث تبتعد عن طريق المياه ؟

وتمتمت قائلة : « ما أنا إلا امرأة عجوز وحيدة » ثم ترددت لحظة أخرى . أليس من المحزن ألا تستطيع رؤية شكل الطفل

الذى سوف ترزق به زوجة الخنزير الصغير ، ولكن المرء لا يستطيع أن يرى كل شيء ، وقد رأت هى الكثير فى هذه الحياة ، ومهما يكن من شيء فإن ما يستطيع المرء أن يراه له نهاية .

ونظرت مرة أخرى إلى الشرق ، ها هم أولاء اليابانيون قادمون يعبرون السهل ، وقد بدوا خطاً أسود طويلا واضحاً تتخلله آلاف من النقط اللامعة ، ولو أنها فتحت هذا الباب لاندفعت المياه الغلابة هادرة نحوهم تتدفق فى السهول محدثة بحيرة كبيرة ، وربما أغرقتهم ، وهيهات أن يستطيعوا حقا الاقتراب أكثر وأكثر منها ومن الخنزير الصغير وزوجته اللذين كانا فى انتظارها ، ولسوف يتساءل الخنزير الصغير وزوجته عما حل بها ، ولكن لن يخطر لهما ببال هذا العمل الذى تقوم به ، ولسوف تنشيء قصة طريفة ، وإنه ليسرها أن ترويها لهم .

والتفتت فى حزم صوب الباب . إنى لأرى بعض الناس يقاتلون بالطائرات ، وبعضهم يقاتل بالبنادق ، ولكنك تستطيع أن تقاتل بنهر أيضا لو كان نهراً خبيثا كهذا النهر . وانتزعت وتداً خشبيا ضخما كان زلقا بما علاه من الطحلب الأخضر الغض ، فاندفع مجرى الماء فى فورة عاتية ، وقدرت أنها إذا انتزعت وتداً آخر تهاوت الأوتاد الباقية من تلقاء نفسها ، وشرعت تجذب هذا

الوتد وشعرت به ينزلق قليلا من موضعه .

وقالت بينها وبين نفسها : « قد أستطيع أن أخلص نفسى من المطهر بفعلتى هذه ، وربما سمحوا لى فخرجت منه بزوجى العجوز أيضا ، فما قيمة يد أمام هذا كله ! ثم إننا ... »

وانزلق الوتد فجأة ، فانفتح الباب على مصراعيه وانقض عليها النهر انقضاضاً ، وأخذ بمخانقها ولم يتسع لها الوقت إلا لتلهث مخاطبة النهر قائلة : « أقبل أيها المارد العجوز ! »

وشعرت به عندئذ يمسك بها ويرفعها إلى السماء ، لقد كان النهر يطريها من تحتها ومن فوقها وراح يقلبها مغتبطا هنا وهناك ، ثم ضمّها إلى صدره وطواها ومضى مندفعا صوب العدو .



الرحيل إلى الوطن

أنتم . . أنتم .. من تكونون أنتم؟ صرّت ماتيلد بأسنانها مطلقة هذه الكلمات ، وكانت قد فتحت باب غرفة النوم بوصة أو بوصتين ، وراحت تحدق فى الغرفة الكبرى من الشقة الصغيرة التى أقامت فيها هى وتشنغ خلال السنوات الثلاث التى انقضت مذ قدومها من فرنسا إلى هذه المدينة القائمة على ساحل الصين .

وها هو ذا قد جلس — أعنى تشنغ زوجها — وشعره الأسود يتألق فى ضوء المصباح الكهربائى القوى المكشوف المتدلى فوق المائدة ، وجسمه الرشيق الخالص من الشوائب قد تجلت تقاسيمه بأجلى بيان فى الملابس الغريبة الزرقاء الداكنة التى يرتديها . وراحت يداه الشاحبتان تتنقلان بسرعة بين قطع الخيزران التى يلعبون بها الميسر ، وجلس بجواره أخوه الأصغر ، وكان طالبا فى الجامعة الحكومية فلا مناص من أن يقيم معهما بحكم أنه طالب . وكان الفتى بليداً تحتقره ماتيلد ، واشتد احتقارها له الآن أكثر من أى وقت مضى إذ رأته يجلس كسولا مسترخياً فى ثوبه الحريرى المغضّن ،

وما من شيء كان يكتسى به إلا وبدا مغضناً حتى قبل أن يرتديه ، هكذا كان ! وكانت تتدلى فوق جبينه دائماً خصلة طويلة ملساء من الشعر الأسود تسترسل حتى تبلغ عينيه ، وكان يمثل فى الغرفة أيضاً هذان الآخران ، بل ذلكما الرجلان اللذان يقيمان فى تلك الشقة القائمة فى الطبقة العليا ، أجل ذلكما الاثنان اللذان لم يكونا فيما يبدو يقومان بأى عمل على الإطلاق ، فماذا كان شأنهما هذان الاثنان ؟ لقد جلس هؤلاء الرجال الأربعة هنا يقامرون ! وكانت ماتيلد قد استلقت فى الفراش تنتظر زوجها ، وهى تتقلب فى هذا السرير النحاسى العريض الذى أبى تشنغ إلا أن يحيطه بالستائر الثقيلة تتدلى على جوانبه تمشياً مع الطراز الصينى . لقد كانت مستيقظة يزداد غضبها كل ساعة ، وهى تنصت إلى لعب الميسر ، حتى حلت اللحظة التى بدأ فيها صوت قطع اللعب وهو يمزج بعضها ببعض يصلصل مرة أخرى .

وكان الصوت قد توقف منذ لحظة ، وراحت ماتيلد فى ذلك السكون تكظم غيظها . ألا فليأت الآن ، فإنها حرية بألا تقول له شيئاً أمام الآخرين ! أجل لسوف تكون عادلة ، هادئة . أجل سوف تكون فى هذه المرة بالذات فى مثل هدوئه ، فليأت ، فإنها سوف تنتظر حتى يرقد بجوارها . ياللسموات ! من ذا الذى يلومها إذا تحدثت إلى زوجها حين يخلو كل منهما بالآخر ليلا ؟ ألم تسمع أمها تحدث أباها بالليل أيضاً ؟ لقد كان أبوها من أصلح من

نبتوا فى أرض ليون ، بل من أصلح أهل فرنسا على الإطلاق ، لم يقرب الميسر فى حياته قط ، وكان كل ما يسمح لنفسه به أن يحتسى قليلا من الخمر مع رفاقه !

أجل ! لسوف تبدأ حديثها معه فى لهجة رقيقة ولكنها حازمة معتدلة كما تفعل الزوجات الصالحات حينما يلمن أزواجهن بعض اللوم على غلطة ارتكبوها . لسوف تقول له ما قالته من قبل ، إلا أنها لن تعمد إلى الغضب هذه المرة .

« لقد احتملت لعب الميسر طويلا ياتشنغ ، وإنك لتعلم أن الأمر كما يلى : إنك تقامر طوال الليل فإذا أصبح الصباح كنت فى حال لا تسمح بالذهاب إلى مكتبك ، فماذا تكون النتيجة المحتومة إذن ؟ لتفقدن وظيفتك . . وماذا نأكل وقتئذ ؟ »

ولا شك أنه سوف يجيبها كشأنه دائماً بلهجته الهادئة :
« ولكن ما من أحد يأتى إلى المكتب فى الموعد ، فلم أكون أنا أول من يأتى ؟ ثم إن رئيسى صديق لأبى ، ولن يقطع صداقته به ويفصلنى ، ثم إنك لا تستطيعين فيما يظهر أن تدركى أبداً ياعزيزتى ما تيلد أن لعب الميسر ليس معصية ، وأنا لا أستطيع أن أتنكر لأصدقائى ، وخاصة إذا كانوا يأتون إلى منزلى للترويح عنى . إن المرء لا يمكن أن يتنكر لأصدقائه ، لا يتنكر لهم فى بلد متحضر

ياماتيلد ، ثم إننى حين ألعب الميسر لا أخسر ، بل إننى لأكسب فى أكثر الأحيان »

ولسوف يقول هذا كله بلغته الفرنسية المدرسية المنتقاة ، ولا ينظر إليها وهو يتحدث بل ينظر الى يديه .. يديه الجميلتين اللتين فى لون العنبر الشاحب ! لقد كان يتكلم الفرنسية بطلاقة ، وكان فى الحق طالباً فى ليون عندما التقيا لأول مرة وتحابا ، فقد جاء إلى مخبز الفطائر الذى يملكه أبوها ليشترى الكعك الصغير الذى يتناوله مع النبيذ ، وكان يتقن الكلام بالفرنسية حقا إتقانا لم تر معه أن تجشم نفسها مؤونة تعلم الصينية ، وكانت هى فى واقع الأمر تكره اللغة الصينية ، ذلك أنها كانت إذا سمعت الصينيين يحدّث بعضهم بعضا تضم ذراعيها إلى صدرها وتقول فى ازدراء ، بل فى صوت مرتفع أحيانا إن طاب لها ذلك — فإنها لم تكن تخشى أحدا وخاصة هؤلاء الصينيين — أجل كانت تقول :

« يالها من لغة ! إن الشيطان نفسه لا يرضى أن يتحدث بها ! »

ومن ثمّ راحت تنصت متوترة الأعصاب فى فراشها ، وقد ألقت برأسها الأشقر إلى الوراء وعيناها الرماديتان تدققان النظر فى الستائر المزركشة بالورد الأحمر ، وأطبقت يديها الصغيرتين الغليظتين فى نسيج عباءتها الناعم ، وانفجر الرجال ضاحكين وسمعت

صوت زوجها الخفيض الناعم ، وعلت أصواتهم بالضحك مرة أخرى . ترى ماذا قال ؟ لقد كان هذا هو السبب الوحيد الذى كانت تتمنى أن تتعلم الصينية من أجله ، حتى تستطيع أن تفهم أحاديثه تلك الخافتة تتلوها دائما هذه الضحكات . وكانت حين تسأله من بعد عما قال يجيب بطريقته الناعمة التى تنطوى على شيء من عدم المبالاة ، وهى الطريقة التى كان يصطنعها كلما تحدث إليها :

« لست بمستطيعة أن تفهمى أى ماتيلد ، فإنها تورية ، وقد كنت حرية بأن تدرسى أدبنا حتى تفهميها »

فتصيح فيه قائلة : « ولكننى لست غبية يا تشنغ ، وإنى لأستطيع أن أفهم إذا أنبأتنى . إنك لا تجشم نفسك أبداً مشقة أن تشرح أى شىء لى »

وكان يبتسم عندئذ ، يبتسم فى أكثر الأحوال ، فإذا كان معتدل المزاج أخذ يدها وجذبها إليه وهمس ملاطفاً : « أيتها الأجنبية الصغيرة الجميلة . . أيتها البيضاء الصغيرة الجميلة »

أتراهم بدأوا مرة أخرى ؟ لقد طرق صوته أذنيها مرة أخرى ، ثم أعقبته الضحكة المعهودة ، وعلاها خشخشة قطع اللعب ، وكانت ماتيلد قد قفزت من سريرها واسترسلت عباءتها الحريرية على جسمها المكتنز الصغير ، وتشعث شعرها القصير ، ودفعت وجهها

الأبيض الصغير فى شق الباب وأطلقت صفيرها المستنكر من خلاله إليهم .

ولكن اللعب لم يتوقف ، فقد رفع زوجها وجهه ثم ابتسم وهز كتفيه الرشيقتين الواضحى التقاسيم هزاً خفيفاً ، وأحنى الأخ الأصغر الشاحب اللون رأسه أكثر مما كان يفعل كأنما يريد أن يشاهد اللعب . أما الرجلان الآخران فلم يرفعا رأسيهما ولم تبدر منهما بادرة ، ولكن عينيها النافذتين رأت تغييراً يلم بوجهيهما ، حسناً ! لسوف ترى إذن ، أتحفل برأيهم أم تراهم يرثون لحال زوجها ! ولسوف يرون أيعتريها الخوف منهم ! كلا ، إنها ليست خائفة بالرغم من أنها كانت المرأة البيضاء الوحيدة فى هذا المنزل أو فى هذا الشارع بل فى هــــذا الحى بأسره من المدينة الصينية ! يا لهؤلاء الصينيين ، هؤلاء .. هؤلاء الرعاع ، ولو أنها أحست بالخوف منهم فلن تبدى لهم ذلك قط ، أجل لن تبدو أنها خائفة وأنها مضاعة بينهم ! كلا لن تفعل ذلك .. فإن لها من حدة طبعها سلاحاً ومن سلاطة لسانها زاداً ، وهى مستطيعة أن تجعلهم يفهمونها جيداً وإن كانت لا تعرف لغتهم الشيطانية ! كلا .. لن تحفل بما يبلغه صوتها من ارتفاع ، بالرغم من أن تشنغ كان يكره أن تصيح ؛ فقد كان يقول دائماً وهو يحفل قليلا من الجلبة والصياح : « لا تصرخ إلا النساء المتبذلات » ولكن يجب على المرء أن يلقى

فى قلوبهم الخوف دائماً ، فقد كانت تلك الوسيلة الوحيدة التى تكفل لها الأمن والسلامة !

وصاحت فى صوت مرتفع : « باه ! » واندفعت فجأة إلى الغرفة وأصبحت أمامهم وجهاً لوجه ، ثم صرخت فيهم ، وشعرها يتساقط على عينيها ، وطفقت ترتعد قابضة على قميصها تدارى صدرها المكتنز الصغير ، وتدفقت الكلمات من فيها منسابة بلهجة طبقتها الحوشية : « آها أيها الصينيون ! أظننتم أننى خائفة ؟ إنى لأسألكم أليس هذا بيتى ؟ أجل أؤكد لكم أنه بيتى ! إنه لبيتى ، ولن أقبلكم فيه أيها الصينيون الكلاب ! اخرجوا . . اخرجوا ! ترى أأظل مستيقظة ليلة بعد ليلة لأنكم تريدون أن تقامروا هنا على مائدتى ؟ قامروا ولكن ليس فى بيتى ! إننى أحرم عليكم ذلك ! لن أسمح لكم بأن تقامروا هنا مرة أخرى ! »

وانقضت عليهم مرة أخرى ، واكتسحت ما على المائدة بيديها الممدودتين القويتين فأخذت قطع اللعب المصنوعة من الخيزران تقعقع على الأرض ، وجلس الرجال لا يبدون حراكاً ، ولكن زوجها صاح فى صوت خفيض يشوبه الخجل : « ماتيلد ! »

ولكنها لم تحفل به ، وتطايرت عباءتها فكشفت عن قميص نومها الرقيق ، ولكنها لم تبال بشىء ، وركلت القطع الملقاة على الأرض بقدميها العاريتين .

وهتف زوجها قائلا : « شيئا من الرفق يا ماتيلد ! إلا أنه لم ينهض من مكانه ولم ينظر إليها . كان يجلس وقد تشابكت يداه تشابكا قوياً على المائدة ، وراح ينظر إلى يديه . وأخذ أخوه يرد الشعر عن جبينه فى قلق ، وجرى بلسانه فوق شفتيه المكتنزتين الشاحبتين ؛ لم يكن يغشى المكان إلا السكون ، أجل ذلك السكون الذى لم تستطع تحمله ، وطرقعت بأصابعها بصوت مرتفع ثم صاحت مرة أخرى :

« ها .. أتظنون أننى خائفة أنا الفرنسية ؟ »

وأمسكت وعاء الشاى الصينى بكلتا يديها وألقت به على الأرض فتهشم ، وثنت بأقداح الشاى واحداً إثر واحد ، ثم وقفت تلهث وهى تحملق فى هذا الوجه ثم هذا من تلك الوجوه الصفراء الساكنة ، ثم استقرت عيناها آخر الأمر على زوجها ولكنه لم يكن ينظر إليها ، بل جلس يتفرس فى يديه اللتين كانتا متشابكتين تشابكا قوياً على المائدة أمامه . كان وجهه رصيناً ، وقد أطبق شفتيه الرفيعتين فى إحكام وقوة .

وهنالك نهض الضيفان فجأة وهما يتمتمان ببضع كلمات إلى مضيفهما ، وتجاهلا المرأة كأنما كانت طفلة شكسة ، وراحا يخطوان فى حذر فوق سيل الشاى المنسكب على الأرض خشية أن يلوث

أحذيتهما المخملية السوداء وثيابهما الداكنة المصنوعة من الأطلس ، ومضيا إلى الباب فنهض مضيفهما مسرعاً ولحق بهما ، وابتسم فى شىء من الحزن وقد اربد وجهه ، وراحت عيناه تلتمسان منهما تفهم الموقف ، كأنما كان يسعى إليهما ويقول : « هكذا النساء فى معظم الأحيان ، والنساء الأجنبيات . . . »

وحتى ماتيلد أدركت ، وهى ترقبه ، أنه لو تكلم لما قال إلا هذا ، ولعلها لو لم تكن موجودة لما قال إلا هذا ، وتأجج الغضب فى صدرها ملتهباً يؤلم ويجرح .

ولكنها أغفلت زوجها فجأة ، فقد فتحت الباب ووجدت شخصين خارجه . كان أحدهما تلك المرأة التى تسكن الشقة المجاورة ، أجل تلك المرأة التى تنتسب إلى شنغهاى ، كانت دائماً تتلبث هناك فيما يظهر عندما يفتح بابهم ، ولا تدخل شقتها قط إذا كان تشنغ فى البيت . أجل ، لقد كان هذان الاثنان يتحدثان — تشنغ وهذه المرأة — ولم تستطع ماتيلد أن تفهم حديثهما ولم يكن هو يفصح لها قط عما دار بينهما ، فإذا سألته وكانت تسأله دائماً أجابها :

« لا شىء .. لم تكن تتحدث بشىء ، أجل لم تكن تتحدث بشىء يستحق منى أن أردده »

وها هى ذى المرأة تقف الآن ، وشعرها الأسود الناعم يلمع فى ضوء مصباح البهو السافر المتألق ، وقد طلت وجهها المستطيل الناعم بعناية كأنما ... أجل ، لقد كانت امرأة خبيثة ولا شك ! وكان فى صحبتها الآن شاب ،وقد وقفت ملتفة بعباءتها المخملية السوداء المسترسلة . كان شابا شاحب اللون طويل الشعر ، وراح الاثنان يمدان بصرهما إلى الغرفة محملقين فى آنية الشاى المكسورة والأقداح التى تناثر حطامها على الأرض ، وابتسم الاثنان قليلا ، ودمدمت المرأة تسأل سؤالا ، وحاجباها المطليان يرتفعان .

وكانت ماتيلد ترقب زوجها ، وهز الرجل كتفيه فى خفة وحرك أحد حاجبيه ، وشرع يجيب وقد التوت شفتاه مفترقتين عن ابتسامة مريرة ، ولكن ماتيلد لم تحتمل هذا ، لم تحتمل فى هذه اللحظة أن يتحدث الاثنان معاً باللغة التى لم تتعلمها قط ، فاندفعت إلى الأمام وصفقت الباب بقوة فأغلق دونها وتلك المرأة ثم التفتت تواجه زوجها .

وقالت تحدث نفسها إنها لم تكن تخشاه ، ووقفت تلهث قليلاً وهى تنظر إليه . إنها لم تكن تخشاه ، ومع ذلك فقد كانت دائما ترقبه لترى ما عساه أن يصنع حين تحتد كما احتدت الليلة ، وبدا لها أنه لا بد معاقبها على نحو ما

ولكنه تجاهلها مرة أخرى . والتفت متحاشيا نظراتها وأحنى قامته بطريقته السريعة الرشيقة ، وأخذ يجمع قطع الصينى المحطمة ويشد قبضته عليها وهو يجمعها بعضها فوق بعض ، ومع ذلك فقد بدا أنه لا يلمسها ، ثم فتح نافذة وألقى بها فى الظلام . وكانت ماتيلد مستطيعة أن تستمع صوتا خافتا ينبىء عن تهشمها على كوم الآجر المكسور المتخلف من بناء المنزل ، ولم يكن قد نقل من موضعه قط .

ثم التفت إلى أخيه الأصغر ، وكان قد نهض من مقعده ووقف مترددا بجوار المائدة ، وقال له فى هدوء بالغ : « إلىّ بمنشفة »

وعاد الشاب بمنشفة رمادية ، وتناولها منه تشنغ وانحنى فى صمت يمسح الشاى المنسكب على الأرض .

وقال الشاب فجأة فى شىء من العطف وصوته يهمس أو يكاد : « عنك يا أخى »

وراحت ماتيلد ترقبهما فى اهتمام يشوبه السخط وظهرها لا يزال مستندا إلى الباب ، فليمسحا هذا الشاى المنسكب إذن ، أجل ليمسحاه وليشقيا قليلا أيضا . ولكن لم تكد تستقر على هذا حتى اختطفت المنشفة من يدى أخى زوجها ، كلا . . لن تجعل أخا تشنغ يرثى لحال أخيه .

وقالت فى جفاء : « اذهب إلى فراشك » وقال زوجها شيئا للشاب فى صوت خفيض ، ولكنها لم تفهم قوله ، ولا عليها إذا كانت لم تفهم . وراحت تمسح أديم الأرض فى عنف ، فلما نظفت أخذت تجمع قطع الخيزران وتضعها فى مكانها المناسب من الصندوق الخشبى المصقول بيدين مرتعدتين . وساد الغرفة سكون تام ، ورفعت رأسها فجأة فوجدت نفسها وحيده ؛ فلقد انصرف أخو زوجها ، وكانت مستطيعة أن ترى زوجها من خلال الباب يتهيأ للنوم ، فقد خلع سترته وبنيقته ، ورأت ظهره الرشيق المنتصب ، وقفاه الناعم حيث يجتمع الشعر الأسود المتألق ببشرته الصفراء ووجف قلبها واندفعت الدموع إلى عينيها .. دموع يرجع بعضها إلى غضب أخذ ينفثىء ، وبعضها إلى خجل غريب ، ولكن ما بالها تخجل ! إنها لحرية بألا تخجل ، فقد احتملت أكثر مما تستطيع أية امرأة أخرى أن تحتمل ، وحسبها ما احتملت ، ويجب أن تبقيهما على خوف منها ، إذ لم يكن لها صديق ، أجل لم يكن لها صديق فى أى مكان ، وراحت الدموع تنهمر على خديها ، ولكنها كفكفتها فى خفة بكم عباءتها وأغلقت الصندوق ووضعته على رف المدفأة الضيق .

ولما أزاحت ستائر السرير وجدته نائما ، ولكنها لم تكن تستطيع أن تستوثق بحال هل كان نائما حقا ، فقد كان يستطيع

أن يبدو نائما وهو ليس بنائم ، وقد استرخى جسمه الرشيق وانتظمت أنفاسه . وها هى ذى تراه ، نائما على هذا النحو متوسداً الوسادة الصينية الخشنة التى كانت تجاور وسادتها الناعمة . كانت أنفاسه تعلو وتهبط ، وهو يتنهد من خلال شفتيه المنفرجتين بعض الانفراج ، وسقط الضوء على وجهه البض الناعم . . وجه ساكن نقى شاحب . وكان يبدو صغير السن جداً ، صحيح أنه كان يكبرها بخمس سنوات إلا أنه كان يبدو أصغر منها فقد كان جسمها أعرض من جسمه ووجهها أكثر خشونة من وجهه . . كانت تعرف هذا ، ونظرت إلى وجهه الهادىء وقالت بينها وبين نفسها إنها لم تعد تحبه.

وهنالك أخذ هذا السكون نفسه يثير غضبها ، فقد كانت لا تطيق هذا الهدوء المقيم ، ولكنها لم تستطع يوماً أن تعكر صفوه قط ، وهزت كتفيه فى عنف ، واستيقظ كأنما صحا من حلم ، فرآها وابتسم قليلا ، ثم عاد فأغمض عينيه .

وهمست فى شدة وهى تهزه مرة أخرى : «لن تنام ! لقد أبقيتنى مستيقظة طوال هذه الساعات ولن أتركك تنام أيضاً ! أجل لن تنام إلا إذا تفاهمنا ! أتسمعنى يا تشنغ ؟ أقول يجب أن نتفاهم ! »

وهنالك استيقظ كل الاستيقاظ حتى استوثقت أنه لم يكن نائما قط ، لقد كان يخدعها وازداد قلبها قسوة وجفاء ، ولكنه كان يستيقظ دائما على هذه الحال بغتة فى كامل حواسه.

وسألها فى رزانة وقد ضاقت عيناه وراح سوادهما يلمع بين جفونهما : « وهل يمكن أن يفهم كل منا الآخر بحال ؟ »

وسألته عجلة : « ماذا تعنى ؟ »

فأجابها مستأنيا : إنما أعنى . . إنما أعنى أن الرجال والنساء لا يمكن أن يفهم كل منهم الآخر أبداً اللهم إلا فى اللحظة التى تفيض بهما العاطفة فيقترب كل منهما من الآخر . . وما أقصرها من لحظة ! »

ورمقها بنظرة ثم تنهد فجأة وأخذ يفرك وجهه بيده ، يده الرقيقة التى كانت تخجلها دائما بوجه من الوجوه لأنها كانت أصغر من يدها وأكثر أنوثة ، وأجهدت عقلها الصريح على مألوف الطبقة الوسطى التى تنتمى إليها ، لتدرك ماذا يعنى بقوله هذا . ما باله ينظر إليها على هذا النحو ولم يتنهد ! وكان كلما تكلم بهذه اللهجة الناعمة المدركة لم تفهم ما يعنى . آه لو أنه كان يستشيط منها غضبا أحيانا ! آه لو أنه ترك نفسه على سجيتها وغضب منها كما ينبغى للأزواج أن يغضبوا من زوجاتهم ! آه لو أن سورة الغضب قد انطلقت من قلبه صادقة حارة صريحة ! آه لو أن الأمر أدى به ولو إلى ضربها أحيانا . . لو أنه فعل هذا لاستطاعت إذن أن تفهمه! لقد كان الرجال فى الشارع الذى كانت تقيم به فى ليون يضربون

زوجاتهم أحيانا ، ولو أنها تزوجت بيير الضخم الذى يعمل فى محل الفطائر الذى يملكه أبوها لضربها من غير شك إذا هى ألقت بالصحاف على الأرض وهشمتها فى سورة من سورات غضبها . أجل ، لقد كان خليقا بأن يمد ذراعه الكبيرة ويمسك بها ويشدد قبضته عليها ثم يصفعها صفعا قويا إذا هى أخجلته على هذه الصورة أمام أصدقائه . لقد كان هذا هو معنى الزواج برجل ؟

أما هذا . . هذا الزوج ، فلم يكن يغضب أبداً كما يغضب الرجال ، وإنما كان يتحدث برقة ولطف وعلى شفتيه شبه ابتسامة أو يتنهد كما يتنهد هذه المرة ويوليها ظهره ، ولم تكن تستطيع أن تفهمه ولو أن كلماته كانت تبدو واضحة كل الوضوح ، فإذا ثار غضبها آخر الأمر احتمل ذلك منها كأنما حدة طبعها مرض من الأمراض لا حيلة لها فيه ولا علاقة له به .

وصاحت فى صوت مرتفع : « إنك لسافل ! وإنكم جميعا لسفلة يامعشر الصينيين ! تظنون أن النساء لم يخلقن إلا لـ ... إلا لـ ... إلا للحظة التى تحتاجون فيها إليهن ، إنك لا تفكر فىّ أبدا . . أبدا . . بعد أن تنقضى تلك اللحظة! »

وابتسم فى مرارة دون أن ينظر إليها ورفع حاجبيه ، وهمس قائلا : « ما أحسن ما تفهميننى ! »

وتوقفت مرة أخرى وقد تحيرت فى أمرها ، ماذا يعنى الآن، وكيف السبيل إلى جرح شعوره ؟

وجلست على الفراش ودفعت شعرها الخشن إلى الوراء .

وقالت مهمومة ، وهى تحدجه بنظراتها : « لقد خدعتنى ، فقد كذبت علىّ كثيراً فى ليون ، إذ سألتك : كيف الصين بلادك ؟ فأجبتنى قائلا إنها كفرنسا بل أحلى وأجمل ، أجل . . فقد قلت هذا فى تلك الليلة التى خرجت فيها من بيت أبىسرا للقائك ، وجلسنا فى الحديقة خلف شجرة ،ولم يكن عمرى يتجاوز وقتئذ الثامنة عشرة فصدقتك ! لقد جلسنا فى تلك الحديقة الجميلة ورحنا ننظر إلى الشوارع من خلال أشجار الدلب .وكان القوم الطيبون المطمئنون يروحون ويغدون ، وقلت لى : إن بلادى كفرنسا بل هى أجمل وأهلها أطيب نفساً ، إن فى بلادى كل شىء ، فيها معابد وعمائر أنيقة عظيمة ،ولن ينقصك شىء ؛ ولن تحتاجى بحال إلى القيام بأى عمل مرة أخرى ، فهناك خدم يؤدون لك كل ماتطلبين . وإنى لمستطيع أن أعطيك مالا يستطيع بيير أن يعطيك إياه لومضى طيلة عمره يعمل فى ذلك المحل الصغير . . محل أبيك ، ستكونين فى بيتى سيدة عظيمة تعيشين كما يحلو لك ، سيتوفر لك كل شىء ! أجل ياتشنغ لقد قلت لى : سيوفر لك كل شىء! ولكن ... » ومدت يدها

وهزت نفسها هزاً عنيفاً « ألا خبرني ياتشنغ أين هذا الذي هو كل شيء؟ لا شيء هنا . . لا شيء . . لا شيء! هذه الشوارع القذرة الصغيرة ، وهؤلاء السائلون ، وهذه الجماهير القذرة من الناس التي تصيح في وجهي وتضحك وتسميني الشيطانة الأجنبية ... أجل بل قد بصقوا على وجهي أنا ! ثم إنني لا أستطيع أن أشتري لنفسي قبعة أو ثوباً بسيطاً أو حذاء . . فلا محلات هنا بمعنى الكلمة ، وليس ثمة مسرح فلست أستطيع أن أسمي ذلك المكان الذي يعلو فيه الصراخ وتختلف إليه أنت مسرحاً ، ولست أدري ماذا يكون هذا المحل ، ثم هذا المعبد القديم الأوحد الآيل للسقوط ، ترى أي جمال فيه ؟ ثم انظر إلى منزلي ! إني لأخجل من أن أكتب إلى أمي بأن المنزل الذي أقيم فيه قوامه أربع خزائن صغيرة . أما المطبخ فحفرة صغيرة قذرة يتصاعد منها الدخان ! لقد قلت إنه سيتوفر لي دون شك خدم ، خدم كثيرون ، فأين هم ؟ بالله خبرني أتظن هذه خادماً ، هذه القروية الشمطاء البلهاء التي لا تريد أن تتعلم مني شيئاً ، ولا تعرف كيف تطهو اليخنة ولو قد أنصتت إلى ما أقول فإنها لا تنفك تتفرس فيك لتعلم أينبغي أن تنفذ هذا القول ؟ أجل فإني لأعلم بأنك ستقول مرة أخرى إنها لا تفهمني ، ولكنها تفهمني جيداً إذا أرادت ! لقد كذبت عليّ ! لقد كذبت عليّ ! »

وانفجرت تبكى فى صخب ، ثم أردفت : « إنك لم تنبئنى قط بأن أخاك هذا القذر يجب أن يقيم معنا هنا ، أجل ولم تنبئنى بأن نصيباً كبيراً من أجرك يجب أن يذهب إلى أبيك وإلى عمك العجوز ، ولكننى أبصق على عمك هذا ! ولئن جاء مرة أخرى كما فعل من قبل يوماً وسعى إلى الإقامة هنا فى منزلى ودخن غليون أفيونه القذر لألقيت به من النافذة بيدى! وإنى لمستطيعة هذا ! إنى لا أخاف أحداً منكم ! وأحتقركم جميعاً . . فإنى فرنسية ! »

وقال زوجها بغتة : « هذا هو علة خطئك » وجلس فى الفراش وراح ينظر إليها فى جد « علة خطئك أنك لا تكفين عن أن تقولى لنفسك : إن سبب تعاستك ياماتيلد أنك فرنسية ، والحق أنك صينية الآن ، إنك صينية لأن زوجك صينى ، ولن تعرف السعادة طريقها إليك إلا إذا نسيت أنك فرنسيّة ... »

فصاحت وهى تهز رأسها : كلا . . كلا . . كلا ! »

ومضى يقول فى رصانة مرة أخرى : « بل الحق أنه ينبغى لك أن تنسى هذا ، أما عن خداعك ، فلا تنسى أنك لم ترضى بحال أن نذهب لرؤية منزلى ، إنه لمنزل جميل ، وقد كان أبى فى يوم من الأيام من الحكام الواسعى الثراء ، ونحن اليوم أقل ثراء مما كنا ، ومن ذا الذى لم يقل ثراؤه فى هذه الأيام ؟ إننى لأحسن صنعاً بإرسال النقود

إليه الآن وبمساعدة أخى الأصغر ، ولكن مدينتنا قائمة فى تلال هونان وفى بيتنا مائة رواق ، أجل بيتنا أقدم وأجمل من أى بيت فى ليون ، أتظنين أنه يمكن مقارنته ببيت أبيك الحقير ، أو ببيت ذلك العامل الذى كان لا مفر من أن يصبح بيتك لو أنك تزوجت بيير هذا الذى تأبين أن تنسيه ؟ »

ومال إلى الأمام وهو منصرف إلى حديثه الجاد ، فلما ارتدت عنه وهى تهز رأسها صاح فى انفعال أشد مما سمعت منه من قبل قط : « آه ! إنى لأعلم أنك لا تنسينه ! ولكن أتظنين أننى لا أعلم أننى تزوجت من طبقة دون طبقتى ؟ إنى لأعلم ذلك جيدا ، أجل كنت أعلمه حتى عندما فتنتنى بشرتك البيضاء يوماً . إنك ابنة صاحب محل صغير وأنا ابن نائب الملك ، أبوك يقنع بقراءة الصحف ، وأبى شاعر وعالم . تستطيعين إن شئت أن تذهبى إلى منزلى وتشاهدى من الجمال ما لم يقع عليه بصرك قط ، ولكنك تأبين الذهاب ، إنك مصممة على البقاء هنا فى هذه المدينة الساحلية ، وفى هذا البيت الغريب المخيف ، إنك تصرّين على أن يكون لك كل ما ألفت ، بل إنك لتحاولين أن تجعلى منى فرنسياً ، تلبسيننى ثياب قومك وتحملينى على الكلام بلغتك حتى لا تتبينى صدفة أنك تزوجت من رجل يفخر بأنه صينى ! »

وأنصتت إليه على كره منها ، مرتاعة ، ذلك أنها لم تره من قبل

قط على هذه الصورة ، لقد عكرت صفو الهدوء الذى كانت تكرهه إلا أن الرعب بدأ يدب فى قلبها . أنصتت كارهة وهى تلتمس لنفسها جاهدة ثغرة فى حديثه السريع يتدفق سوياً ، وتذكرت حين تحدث عن منزله ضخينتها القديمة ونسيت كل ما عداها .

وقالت عجلة : « كلا .. كلا .. لن أذهب إلى بيتك أبداً ! وكيف أعلم أنك لا تخدعنى مرة أخرى ؟ إنى لا أرى فى أى مكان بيوتاً كالبيت الذى تصفه لى ، ثم إنه لخليق بأن يكون لى بمثابة السجن حتى لو كان فيه مائة رواق ، ولأكونن المرأة البيضاء الوحيدة ولن أجد بين أهل المدينة من يتكلم لغتى ، وسيكون بينى وبين البحر ألف ميل ، كلا .. كلا .. يجب أن أقيم على ساحل البحر حتى أعرف أن فرنسا على الجانب الآخر منى تماماً ! »

وقال تشنغ : « إنك لا تثقين بى » ، وعاد ليستلقى على وسادته ، وشد اللحاف إلى عنقه وراح يحملق فى الستائر وارتد وجهه إلى ما كان عليه كأنما يلبس قناعاً .

ولكنها صاحت منفعلة أشد انفعال : « إنك لست من دمى ، فكيف أعلم أنك ستعاملنى دائماً معاملة كريمة ؟ إننى لا أعرف من تكون ! »

ومضى يردد : « إنك لا تثقين بى » وأشاح بوجهه صوب

الحائط وأغمض عينيه وأبى أن يزيد كلمة .

وعادت هي إلى البكاء ، ثم استلقت بجواره بعد لحظة وقد انهدت قواها ، ولكنها لم تلمسه ، وسرعان ما سرح بها الخيال ، لقد كان ثمة بحر يفصل بينهما ، وطار قلبها يطوى هذا البحر إلى فرنسا .

وهمست فى سكون الليل بانفعال كظيم : « أبداً . . أبداً ! إنى فرنسية . . إنى فرنسية ! »

ألم يكن القانون نفسه أيضاً يعترف بأنها فرنسية ؟ أجل ، لقد كانت تعلم هذا وما كانت لتستطيع أن تنسى الليلة الأولى التى تعلمت فيها هذا ، وكيف أسرّت هذه المعلومات فى نفسها واحتفظت بها . لقد كانت تلك الليلة التى أقام فيها رئيس زوجها مأدبة عشاء إلى كتاب سره وزوجاتهم ، وكان بين هؤلاء الزوجات امرأة بيضاء أخرى ، كانت فرنسية أيضا . وكان المرء مستطيعاً أن يرى أنها أكبر من ماتيلد سنا ، متحذلقة غاية التحذلق ، باريسية حنكتها الأيام ، وقد سخرت هذه المرأة من ماتيلد القصيرة القلة وهى ترتدى ثوبا ورديا كثياب الأطفال .

وتمتمت قائلة : « يالها من طفلة ! » ولم تعرف ماتيلد بماذا تجيبها .

وقد دخنت تلك الباريسية سجائر كثيرة ، وضحكت مع الصينيين وشربت معهم ورقصت،فلم يكن من الزوجات الصينيات الصامتات إلا أن جلسن بجوار الجدار وقد عقدت الدهشة ألسنتهم وثار غضبهن ، ورحن يرقبن جسد هذه المرأة شبه العريان وهى تلوى وتدور بين أذرع أزواجهن ، ولكن الباريسية جاءت مرة أخرى متعمـــدة إلى حيث كانت ماتيلد تجلس مع هؤلاء الزوجات ساكتة أيضا لأنها لم تكن تعرف حتى الإنكليزية التى كان بعضهن يعرفنها ، وضحكت الباريسية وقالت :

« إذن فأنت زوجة سو تشنغ الفرنسية الصغيرة ؟ ما سنك ؟ لعله عشرون ؟ ياللك من طفلة ! »

ثم أخذت تتحدث فى كسل وتراخ ، وهى تدخن سيجارتها، وتلق بالسيجارة لتشعل أخرى « وأنا أيضا . . تزوجت بكبير كتاب السر فى المكتب،وهو ثالث رجل أتزوجه يابنية ! كان السأم قد أوشك أن يقتلنى فقلت لعله مما يمتع النفس فترة أن أتزوج بصينى. وقد كان أمراً ممتعا حقا ، ألا تجدينه كذلك يابنية ؟ » ونهضت لتستقبل شابا صينيا مهذبا كان يرتدى ثوبا أنيقا للسهرة ، ووضعت يدها على ذراعه واستسلمت لأحضانه ، ثم التفتت تعاود التحدث مع ماتيلد « ولكن لا تنسى أبداً يابنية أن هـذا الزواج إذا لم يعد فيه

متعة لنا — وهل من شيء لا تنتهي متعته يوما ؟ — إذا وقع هذا جاز لنا أن نلجأ إلى القنصل ، فإن فرنسا تعيدنا إلى الوطن حين لا نجد متعة في أزواجنا الصينيين ! »

وانسابت مبتعدة تبتسم إلى ماتيلد ، وكأنما لم تعد ترى أحداً من النساء الصينيات اللواتي رحن يشيعنها بنظراتهن ، وتنهدت إحداهن ، وكانت مخلوقة صغيرة في جمال زنبق الماء ترتدي ثوباً من الأطلس الأزرق الشاحب ، وراحت ترمق المرأة الباريسية بنظرات تنم عن الحزن ، ثم التفتت ووضعت طرف إصبعها المطلي على ذراع ماتيلد وسألتها شيئاً في توسل ، ولكن ماتيلد نأت عنها وهزت رأسها ، فقد استغلق عليها فهم ما تقول !

ولكنها لم تنس هذه الحقيقة الفريدة ، وإن كانت لم تلق الباريسية بعد ذلك قط « إن فرنسا تعيدنا إلى الوطن »

وقالت تحدث نفسها وقد أخذتها رعدة قليلة وهي مستلقية في فراشها : « وهكذا لا أستطيع أن أبرح الساحل أبداً ، فإني لو فعلت لا نقطعت الصلة إلى ما شاء الله بيني وبين فرنسا ، وبيني وبين أمي وأبي . . بل وبينهم جميعاً ، وكيف أستطيع أن أصل إلى الساحل وإلى القنصل إذا أوغلت إلى هذا الحد في داخل البلاد ؟ إن المسافة ألف ميل ! »

وما انقضت لحظة ، وهى مستلقية فى الظلام وحيدة ، والبحر يموج بينها وبين ذلك الجسم الآخر الساكن الغريب عنها، وإذا هى تعترف بينها وبين نفسهـا بما لم تعترف به من قبل قط ، قالت : « الحق أنى خائفة ، خائفة من هؤلاء القوم الصفر ، فإذا خرجت انتابنى الخوف منهم جميعاً ، وليس فى أى مكان صديق . . أريد أن أعود إلى وطنى ؛ فإنى لخائفة حتى منه ! »

وقد دبرت بعناية متى تخبره ، ومع ذلك فإنها لن تهرب ، على نحو ما كانت قد اعتزمت ؛ فقد فكرت أولا فى أثناء الليل أن تمضى فقط إلى القنصل وتقول له إنها تريد منه أن يرحلها . . أى يعيدها إلى فرنسا ، ثم ترحل سراً ، حتى إذا عاد تشنغ إلى منزله يوما وجد أنها قد رحلت ثم ينتهى الأمر .

ثم ليفعل بعد ذلك ما يشاء ، وليأتين عمه العجوز ويقم هنا ويدخل ويسعل ويسرف فى القذارة ماشاء له الهوى ، وليقامر تشنغ أيضاً ما دام يحب أصدقاءه حبا يمنعه من أن يردهم عن مجلسه، أو ليعد هو وأخوه إلى منزلها . ولكن لا . . ترى أيعود تشنغ إلى منزله ؟ إن هنالك المرأة التى تسكن الشقة الأخرى . . أو تتركه يمضى إلى بيته ؟ لقد كانت تلك المرأة جريئة لا تعرف الجد ، كان لها عشاق وكانت تخدع زوجها ، وكان هذا دأب نساء شنغهاى

جميعا ، كن يحملن عجائز الرجال الأثرياء على الوقوع فى حبائل حبهن وتطليق زوجاتهن الشمطاوات العاطلات من الحسن ليتزوجوا بهن ، لقد كانت تلك المرأة تنظر إلى تشنغ نظرة الأنثى إلى رجل تحب أن تتخذه صاحبا ، أما هى . . ماتيلد ، فلم يكن لها فى يوم صاحب ، ولكنها كانت تعلم السبيل ، كما تعلمه أية امرأة ، فلو قد وقع ما توهمته أتستطيع الرحيل؟»

أجل ، إنها لمستطيعة أن ترحل بالرغم من ذلك ، وسترحل ! فماذا يعنيها من أمر يقع هنا حين تجد نفسها مرة أخرى فى ذلك المنزل الهادىء الصغير القائم فى ليون ، لسوف تستخف السعادة أباها وأمها وأخاها الصغير إذ يرونها ، أليست هى الإبنة الوحيدة ، ثم هنالك أيضا بيير الطيب ، ثم لعلها إذا تزوجت بيير أن تطمئن كل الاطمئنان وتسعد غاية السعادة ، إذ تذرع الشوارع الآمنة الجميلة نشيطة جمة النشاط - وتدخل المحلات الصغيرة الأنيقة ترحب بصديقاتها فى كل مكان ، ولسوف تصبح بهن جميعا «ولكن هذا كان مستحيلا ياعزيزتى ! لقد كنت محقة كل الحق ! فما من امرأة فرنسية ... » فماذا يعنيها إذن من أمر ما يحدث هنا ؟

وهكذا نظرت إلى تشنغ وهو يجلس أمامها على مائدة الإفطار ، وكانت الخادم العجوز القذرة قد دلفت إلى الغرفة ووضعت الطعام

على المائدة وانصرفت ، نظرت ماتيلد إلى تشنغ وقررت فجأة أن تبادره بالنبأ الآن ، وهنالك تكشف لها أسوأ ما يستطيع أن يصدر عنه .

وقالت بصوت مرتفع : « إنى الماضية إلى بلادى فما عدت أستطيع العيش هنا .. أريد أن أعود إلى وطنى »

وأمسك تشنغ عن فطوره الذى كان يتناوله فى ترفق غير مقبل عليه كل الإقبـــال ورمقها بنظرة ثم عاد فأشاح عنها وانتظرت ما يكون منه .

وأجاب آخر الأمر دون أن يبدو عليه شىء من الاهتمام : « ليست هذه هى المرة الأولى التى تقولين فيها هذا » وظلت ترمقه بنظراتها لا تريم ، صحيح أنها قالت هذه الكلمات نفسها فى مناسبات أخرى حين كان يساورها الغضب ، ولكنها لم تكن تعنى بها ما عنت اليوم ، فإنها اليوم ليست غاضبة . وقالت بسرعة رافعة صوتها كما كان :

« إننى أعنى هذه المرة ما أقول ، وإننى لراحلة فى الأسبوع القادم »

ولم يرفع بصره ، بل مضى يحرك بخفة العصوين اللتين يأكل بهما فى الطاس بحثا عن قطعة من السمك المملح ليستطيبها ، وقال

يجاهد بالنطق : « ليس عندى من المال ما أستطيع تدبيره لك الآن فإن الرحلة باهظة التكاليف ، وإنى لأرجو أن أستطيع تزويدك بالمال حين تستطيعين زيارة والديك مرة أخرى ، وقد أصحبك أنا نفسى ، ويجب أن تذكرى أننا فى ضائقة هذه الأيام ولا أستطيع أن أدبّر لك هذا المال »

ثم نهض وتناول قدحاً من الماء وراح يتمصمص على الطريقة الصينية التى تمقتها، وراحت تحدث نفسها متجهمة وهى ترقبه قائلة إنها تمقت كل ما يفعل ، وما لبث أن جلس وتناول كتابا صغيراً ناعم الورق من خزانة للكتب فى ركن الغرفة ، ومضى يقرأ الحروف الصينية . وبدا على وجهه شىء من الاهتمام الخفيف ، ولكنها كانت تعلم أن هذا الاهتمام لا يمت إليها بصلة ، وأخذت ترقبه مهمومة ، وتذكرت الآن قولا كان أبوها قد نطق به حين اكتشف لأول مرة أن ابنته تحب رجلا شرقيا ، ولم تكن وقتئذ قد أدركت المعنى الذى يرمى إليه ، ولكنها أدركته الآن فجأة .

كان قد تمتم وهو يشيح بوجهه عنها : « الدم الدم يحن ! »

تذكرت هذا ، ثم تذكرت أن بيير ، الذى كان عميق الصوت دائما ، قال لها بأغرب صوت جهير سمعته : « ليقبلنك يا ماتيلد ، فكيف تحتملين هذا ؟ »

ولكن تشنغ لم يقبلها ؛ فلم يكن التقبيل من عادات قومه ، وهكذا ظل بيير هو الرجل الوحيد الذى قبلها فى حياتها ، فقد قبلها وهى فى السادسة عشرة حين جمعهما حفل فى رأس السنة ، ولم تلبث أن نسيت هذه القبلة ، ذلك أن تشنغ كان قد ظهر ، وبدا لها بارع الحسن .

أجل ، لقد افتتنت بجسم تشنغ حينا ، كان جسما ناعما ذهبى اللون ، لقد كان فى ليون طاهراً دائما ، أنيقا كل الأناقة دائما ، يداه يفوح منهما العطر ، وشعره مصقول ناعم . أجل لقد كان فى تلك الأيام رجلا لا يمكن أن يكونه بيير القصير الممتلىء الجسم الأحمر الوجه ، ولم يكن فى تشنغ وقتئذ شىء تنفر منه المرأة .

على أنه سرعان ما استحال شخصا آخر عندما عاد إلى بلاده ! كان يأكل بالطريقة التى يأكل بها سائر قومه ، واتخذ بعض الأساليب الصغيرة الغريبة . بل بدا أن لحمه نفسه قد اتخذ رائحة فاترة غريبة يتسم بها بنو جلدته ، ولو أنها سمحت له بارتداء الثياب التى كان يتوق إلى ارتدائها لغدا غريبا عنها تماما ، ولكن منظره الآن كان يثيرها بالرغم من ملابسه الأجنبية ، وأضافت فى هذه اللحظة إلى أسباب الكره العديدة التى كانت تكنها له سببا لم تكن تدركه .

وقالت : « لن أحتاج لمالك فى هذه المرة ، وسأتكفل أنا نفسى بالعودة إلى وطنى »

وهنالك طرح عنه كتابه ، ولكنه ظل صامتا لا يريم بضع دقائق، بل جلس يسرح بصره من النافذة إلى الجدار الأبيض الندىّ من البناء المجاور .

ثم قال آخر الأمر : « لم نرزق أطفالا يقيدوننا » وكان صوته رفيعا غريبا « إنك لم تلدى لى أبداً طفلاً واحداً »

وكانت هذه هى الشكوى الأولى التى جاهر بها منها ، كان فى مبدأ الأمر يتحدث فى كثير من الأحيان عن طفل ويبدى اشتياقه إلى طفل ، ولكنه لم يزد منذ عهد قريب شيئاً على ما قال ، ومع ذلك فإنه لم تبدر منه شكوى إلا الآن ، وخطر لها خاطر غامض بأنه كان هو أيضا فى هذه اللحظة يزيد شيئا إلى أسباب خاصة متراكمة من الكراهية يخفيها .

وقفز من بين شفتيها سؤال : « إذن فليس يعنيك الأمر إذا رحلت ؟ » ومن عجب أنها لم تكن غاضبة ، ومن عجب أيضا أنه قد راودها شىء من الرجاء بأنه سوف لا يسمح لها بالرحيل بمثل هذا اليسر !

وقال : « إننى لم أستطع إرضاءك » وشبك يديه النحيلتين

على ركبتيه وجلس ينظر إليها ، وراح يرفع إبهاميه فى بطء « إنى لأعلم أنى لم أستطع إرضاءك فإن من العسير أن يرضى المرء الغربيات ، إذ لا بد له أن يوفر لهن السكن والكساء على نحو ما يردن ، وأن يطعمهن ، ثم لا بد له أن يحبهن كما يحب العشيقات ولو لم يجازينه بطفل . ولست بقادر على ذلك واسمحى لى أن أقول لك شيئا آخر : إنى لا أشكو ، ولكن ليس من العسير على المرء أن يرتقى فى وظيفته فى الحكومة إذا كان متزوجا بغربية . إن أصدقائى يظنون بى الظنون ، ويقولون إنهم لا يعرفون أين يكون قلبى ، وإنى لا أستطيع الارتقاء فى المكتب »

وهكذا كان هذا الأمر شيئا آخر زاد من أسباب الكره بينهما ، وقالت فى مرارة : « إذن فلا شك أن رحيلى يسرك ، وإنك لمستطيع بعد رحيلى أن تتزوج بامرأة صينية »

وقال بسرعة : « كلا .. كلا ! » ثم أردف بعد لحظة فى صوت خفيض : « لن يكون هذا على الأقل فى القريب العاجل »

وبدا أنه على وشك أن يقول شيئاً آخر ، ولكنه أمسك ، واستمر ينظر إلى يديه ، وكان البحر بينهما يهدر .

على أنه سرعان ما انتهى الأمر . فقد حزمت أمتعتها فى الصندوق ، بل لقد وضعت بعض المطرزات الحريرية وسترة صينية لتريها

للناس فى وطنها وكذلك قرطاسا ملفوفا ومروحة ، وقالت تحدث نفسها إنها لا تريد أبداً أن ترى شيئا صينيا مرة أخرى ، ومع ذلك فقد وضعت هذه الأشياء فى النهاية فى صندوقها .

وتسلقت سقالة السفينة ، والتفتت فى تلك اللحظة لتمد يدها إلى تشنغ مترددة بعض التردد ، ولكنه لم يتناول اليد التى امتدت إليه ، ولم يلمسها ، بل لم يلمسها مرة طوال تلك الأيام ، وانحنى لها وابتسم ، ثم عاد الى الرصيف ووقف هنالك ، ذلك أنه لم يبق بينهما ما يقتضى الحديث ، وكلما نظرت إليه ماتيلد وجدته يبتسم تلك الابتسامة الشاحبة الثابتة .

ولكن ماتيلد لم تبتسم . لقد كانت آنئذ فى غشية مما أقدمت عليه ، وانتهى الأمر جميعاً بسرعة خاطفة ، ومع ذلك فقد انتهى وانقضى ، وراحت ترقب الرصيف المزدحم والقوم يتصايحون والحمالين يتصببون عرقاً والبائعين يعلو ضجيجهم . ورنت ببصرها إلى أسطح المدينة القاتمة المثقلة بأحمالها ، ثم تذكرت الشوارع الضيقة وما كانت تزدحم به من وجوه تتفرس فيها نافرة أو كارهة ، ونظرت مسرعة إلى تشنغ ، إلا أنه لم يكن ينظر إليها ، لشد ما كان يشبه آنئذ هذه الوجوه الكثيرة ! وقد غاب وجهه بين الوجوه الأخرى .

وقالت بينها وبين نفسها : « لا حاجة بى أبداً إلى رؤيته مرة أخرى . . أبداً ، أبداً ! لقد انقطعت علاقتى بهذه الحياة ، بل انقطعت علاقتى بهم جميعاً ، فإنى لعائدة إلى وطنى »

وهكذا قال لها القنصل أيضا ، فقد زم شفتيه المكتنزتين وراح يشد شاربه الصغير المصبوغ وهتف قائلا : « ها ! هاك أخرى ! اسمحى لى أن أقول لك أنت أيضا ياسيدتى أن هذا الرحيل سيكون إلى ما شاء الله . إن فرنسا لا ترحل رعاياها إلا مرة ! »

وأجابت فى لهفة : نعم ياسيدى .. إننى لن أعود أبداً ! »

وانسابت السفينة من مرساها ، وانطلق الجمهور يهدر ويزمجر ، وراح الحمالون يقفزون إلى الرصيف ، مجتازين رقعة الماء الآخذة فى الاتساع ، ومضت عينا ماتيلد تبحثان عن تشنغ . لقد كان يقف بين الجمهور ساكنا لا يريم ، وأخذ ينظر إليها الآن ولكنه كان قد كف عن الابتسام ، وأشاحت بنظرها عنه ؛ إذ لم تكن تريد أن تراه ، أجل لقد كانت تريد أن يغدو واحداً من هذا الجمهور لا يفترق عنه فى شىء .

ومضت تردد بينها وبين نفسها وتردد : « لا حاجة بى الآن إلى رؤية أحدهم مرة أخرى ، وهذه هى المرة الأخيرة ، فإننى عائدة . إلى الوطن »

واستدارت ومضت إلى قمرتها .

* * *

وفى نهاية المطاف حلت آخر الأمر تلك الليلة الأولى التى كانت تتطلع إليها فى شوق خلال الرحلة الطويلة التى قضتها وحيدة ، وقد حلمت بتلك الليلة الأولى تقضيها فى البهو الصغير من ذلك المنزل القائم فى ليون ، وهى مستلقية فى فراشها فى قمرة الدرجة الثانية أو وهى تتناول طعامها صامتة مع ركاب هذه الدرجة فى بهو الطعام المزخرف بلا ذوق ولا تنسيق ، ثم وهى تذرع سطح المركب وحدها . أجل لقد تطلعت إلى تلك الليلة فى حرص ، عازفة عن صحبة أحد فى السفينة ، فقد كانت تكره أن تحدث أحداً عن نفسها ، وليلنس الناس جميعاً الآن أنها كانت زوجة صينى .

أجل ، فلينسوا ما كان من أمرها جميعاً ! وكان إذا ارتد إلى مخيلتها أحياناً شىء مما وقع فى ماضيها دفعته بعيداً عنها فى حزم وعزم . . . بشرة تشنغ الذهبيـة ! لشد ما كان يبـدو جميلا فى بعض الأحيان ! ولـكن لا ، إنها لن تفـكر فى هذا ، وأولى بها أن تذكر أخاه القذر وهو يدس أصابعه فى أنفه ، آه فلتتذكر ما يتصفون به جميعاً من قذارة ! فلتـــذكر فقط تلك الغرف القليلة الحقيرة التى عاشت فيها وجلبة المقامرين تمتد

إلى ساعة متأخرة من الليل ، وذلك المطبخ الذى يشبه الحفرة .
ولتذكر فوق هذا وذاك وحدتها واللغة الغريبة التى لم تستطع
أن تتعلمها ، ثم تلك الجماهير المعادية تخشى الطريق ، وتحملق فيها
يستثيرها الفضول ، وتتهيأ للسخرية منها أو صب اللعنات على رأسها .
أجل لقد كانت بينهم دائماً وحيدة غريبة ، وإن كانت قد وهبت
نفسها لأحدهم ، ولكن خير لها ألا تذكر شيئاً الآن ، بل حسبها
أن تتطلع إلى ذلك المنزل الصغير .. منزلها الصغير النظيف القائم
فى ليون ، حيث ينتظرها أبوها وأمها وأخوها الصغير ، لا يعرف
قلبهم إلا الطيبة ولا ينطوى فؤادهم إلا على الود ، وحيث سينتظرها
پيير أيضا .

أجل پيير — ذلك الفرنسى الطيب — إنه لرجل صادق !
لسوف تعطيه ما يطلب وتقول له : « أى عزيزى پيير لقد أخطأت
خطأ عظيما ، ولننظر إلى هذه السنوات كأن لم تكن قط . إننا
ما زلنا فى مقتبل العمر وأنا لك كعهدك بى ، فلنبدأ الحياة معا من
جديد ، انظر ! لقد نسيت تلك السنوات التى قضيتها بعيداً عنك
وهأنذا ماتيلد حبيبتك » ستحدثه على هذا النحو ، لقد راحت
تستعيد هذا الحديث مائة مرة فى اليوم ، وهى تقف عند حاجز
السفينة ترنو ببصرها إلى فرنسا عبر الأمواج الشهب « انظر
يا پيير ، إننى ماتيلد حبيبتك ، هاك .. هاك ماتيلد حبيبتك ! »

أجل ، ها هى ذى الآن فى الليلة الأولى وقد جلست تنظر إليهم جميعا . . تنظر إلى أبيها ، وإلى أمها ، وإلى أخيها الصغير الذى نما جسمه فى السنوات الثلاث التى غابت فيها عنهم ، وغدا فتى حييا خجولا ، وراحت تنظر خلسة أيضا إلى پيير ؛ فقد أقبل فى الحال للقائها بعد أن أغلق المحل أبوابه ، وها هو ذا أمامها يجلس على كرسى خشن الظهر أصغر كثيراً من أن يسعه ، ومضى يحملق فيها وركبتاه منفرجتان ويداه الغليظتان على ركبتيه . لقد أصبح بدينا وبدا لها غريبا قد تغيرت هيئته ، ولزم الصمت كدأبه .

وجلست هى أيضا صامتة مغلولة على الأريكة بجوار أبيها ، وراح يربت على كتفيها بذراعه ، ويحملق فيها ، ثم صاح هادراً من خلال ساق غليونه ويضحك وعيناه الرماديتان الصغيرتان تتألقان :

« إن پيير هذا لم يتزوج بعد يا ماتيلد ، بل إنه لا ينظر إلى أية فتاة مذ رحلت .. أليس كذلك يا پيير ؟ »

واصطبغت وجنتا پيير بحمرة خفيفة من الخجل ، ولكنه قبل أن يستجمع شجاعته ليتكلم قالت الأم فى حدة وهى ترفأ جوربا ولم تكن تبدو كعهدها عظيمة السرور كثيرة البهجة :

« ألا ما أقسى هذه الأيام يا جان ؟ فالشاب فيها يتزوج بعد بحث وروية ، ثم إن علينا أن ندبر أمر طلاقها على نحو ما ، فنحن قوم محترمون يا جان ؟ »

وازداد پيير خجلا ، ورمق ماتيلد ببصره وتلاقت نظراتهما فحولت عينيها عنه ، وشعرت فجأة بشيء من الإغماء يوشك أن يصيبها وملأ الرعب قلبها ، ترى أكانت تحلم ببيير هذا ؟ لشد ما أصبح بدينا ، وما أغلظ معصمه ويديه ، وما أكثر ما امتلأ وجهه بالندوب ! إنها لم تكن تذكر هذه الندوب .. ترى ماسببها ؟ ثم إنها تذكر أن عينيه كانتا واسعتين ، مسرفتين فى الاتساع والزرقة . ولكنهما باتتا أصغر مما كانتا بوجه من الوجوه وأقل زرقة ،بل إن ثيابه لم تكن شديدة النظافة . لم يكن هذا هو حبيبها الشاب الذى تراءى لها حين صاحت عبر الأمواج : « انظر فهاك حبيبتك ماتيلد ؟ »

وأخذ پيير يتمتم فى قلق ، كأنما قد عبرت ماتيلد عما يجول بخاطرها بالكلام : « لقد جئت من المحل بالحالة التى كنت عليها ، قالوا إن ماتيلد قد عادت فجئت ... »

وصاح أبوها فى مرح وقد أخذ يضحك مرة أخرى بصوت مرتفع : « ولكن هذا طبيعى يا بنى ! فمن ذا الذى يحفل بمظهر الرجل الشريف ؟ أما أنا أيتها الأم ، فإنى مع تسليمى بقسوة هذه الأيام ، لن تضيق بى الحال حتى يشق على أن أتكفل بابنتى ، ولأمضين فى ذلك إلى أن يتيسر لى ، أى . . . ! » وضحك قليلا ،

ثم اتخذ فجأة سمة الجد وأخرج الغليون من فمه وقال فى انفعال :
« آه يا بنيتى ! كيف أعبر لك عن سعادتى بعودتك إلى الدار من تلك البلاد المتوحشة ؟ لقد كنت شقياً ، وكنت أصلى ألف مرة فى اليوم مبتهلا إلى الله الرؤوف الرحيم أن يعيدك إلىّ بوجه من الوجوه ، ولست أسألك عن السبب الآن ، ولست أسألك عن مبلغ ما عانيت ، وحسبى أن أراك هنا ، ولسوف تحدثيننى يوماً بكل شىء ، وإنه ليسرنى أنه ليس هنا وإلا لكنت قتلته ، فلقد عذبك تعذيبا ! »

ولكنها لم تجب ، وما كانت مستطيعة أن تجيب .

أجل ، لقد كانت هنا ... وراحت تنظر إلى بيير ، وتجيل النظر فى الغرفة . أجل لقد كانت هنا ، لشد ما كانت الغرف صغيرة ضيقة ، لا تزيد فى الحق على تلك التى كرهتها ! أم تراها بدت صغيرة لأن بيير وأباها ... بل لأنهم جميعا كانوا غلاظا ممعنين فى الغلظة ، عراض العظام فى إسراف ؟ حتى أخوها كان كذلك ، وى ! لقد كان أخوها يتسم بنظرات المراهقين الفاجرة مثل أخى تشنغ سواء بسواء ! آه ، إنها لن تستطيع أن تقول لهم شيئا أبداً ! ولكن ما الذى كانت تستطيع أن تقوله لهم ، لو أن تشنغ ضربها مرة ! وماذا يكون الأمر لو اتضح أن ما ذكره زوجها عن أروقة

بيت أبيه المائة كان صحيحا ، لعله من واجبها أن ... ربما كان أولى بها أن تصدقه !

ماذا دهاها ، إن البحر الذى كان يموج بينها وبين تشنغ حين كانت مستلقية بجواره يموج حقا بينهما الآن ، ومع ذلك فقد كان تشنغ يبدو لها من ثم الشخص الحقيقى المسرف فى حقيقته ، بل هو أكثر حقيقة من أولئك الذين كانت تجلس هنا معهم وتحلم بهم ، وتمثّل أمامها فجأة ، كما لم يمثل قط عندما كانت تعيش معه . لقد رأته أهيف القد ، دمث الخلق ، حسن الطلعة كما كان ، وكما ألف أن يبدو حيال بيير .. بيير هذا ! لقد كان حقا لا يعدو أن يكون عاملا من عامة العمال . ترى هل سمحت له يوما أن يقبلها ، وما الذى قاله أبوها : « الدم .. الدم يحن ! »

آه ، أين ذهبت سعادتها ؟ لقد ظلت تؤمن طويلا بأنها تمثل هنا ، فى هذه الغرفة ، مع هؤلاء القوم ، واستبدت بها الرغبة فى أن تعود إلى بلادها ، وأن ترحل إلى وطنها ... وهاهى ذى قد تم لها الرحيل ، فما حظها إذن ؟ لم تكن تدرى ، وغاية ما فى الأمر أن كل شىء لم يكن كما توقعت أن يكون ، أو بالحسن الذى توهمته . أين تذهب الآن ، وإلى أين تعود ؟

لم يكن للعودة من سبيل ، فلقد ذرفت الدمع سخينا وهى تقول

للقنصل القليل الجسم : « لن أعود ! » وكان هذا صحيحا فإنها لا تستطيع العودة أبداً ، فما كان للقوم أن يدركوا تذبذبها ، وما كان أحدهم ليستطيع أن يدركه . بل إن تشنغ نفسه لن يستطيع أن يفهمه ، وكيف يفهمه وهى لا تستطيع أن تفهم نفسها ، وحتى لو توفر لها المال . ولكن المال لم يكن متوفراً ، وهب أن المال قد توفر لها فإن العودة معناها أن تتخلى عن كبريائها جميعا ، وتصبح تحت رحمة تلك الجماهير من القوم الصفر الذين يبدون لها العداء . آه ، ألا تصبح تحت رحمتهم إذا عادت إليهم مختارة ، وهى تعلم من أمرهم ما تعلم ؟ لتعودن الحال إلى ما كانت عليه إذا هى رجعت إلى الصين ؟ فالغرف الكريهة هى هى ، وشقيق زوجها هو هو ، والجماهير على حالها لم تتغير . ثم إنها لن تجرؤ على مبارحة الساحل ، ولن يطاوعها قلبها على الوثوق بتشنغ.. بقصصه التى يرويها عن المائة الرواق كل الوثوق ، آه إنها تعرف نفسها ، أجل ستعود الحال إلى ما كانت عليه بل أسوأ مما كانت ، فإن فرنسا لا ترحل رعاياها إلا مرة .

ثم خطر لها فجأة خاطر انبعث من ذات نفسها وهو أن تشنغ سوف يتزوج بطبيعة الحال ، ولكن بمن يتزوج ؟ يتزوج بتلك المرأة التى فى شنغهاى التى تطلى وجهها ! كلا .. إنه لن يتزوجها ، أجل لن يتزوج تلك المرأة التى لن تلد له ولداً ، إن تشنغ سوف

يتزوج هذه المرة امرأة تنجب له ابنا . لقد كانت تعرف هذا ، لقد تحدث إليها من قبل فى ذلك فقال : « لم نرزق أطفالا يقيدا ننا إنك لم تلدى لى قط طفلا واحداً » ولسوف يستمع هذه المرة إلى عمه وإلى أبيه ، وهما خليقان بأن يقولا له « لقد اخترت فى المرة الأولى وأخطأت .. فاتخذ هذه المرة الزوجة التى نختارها لك وأنجب لنا أبناء » .

ومالت ماتيلد الى الأمام ، مبتعدة عن ذراع أبيها الذى كان يطوقها بها ، وغطت وجهها بيديها ، وصاح أبوها قائلا : « أى عزيزتى المسكينة .. لشد ما تعذبت ! »

ولم تجب ، بل جلست ساكنة بلا حراك ، تخفى وجهها بين يديها ، فليفكروا ما شاء لهم التفكير ؛ فقد كانت فى يأس من أمر نفسها ، تعانى أعجب غيرة كابدتها من تلك المرأة الصينية ، ولكن لم ؟ لقد كان من الطبيعى أن يقدم تشنغ على الزواج ، فهل تنتظر منه غير هذا وهى التى تركته بمحض اختيارها ، ولسوف يتزوج إذن وينجب ما يشاء من الأطفال ، أم تراه يجد بشرة تلك المرأة سمراء شديدة السمار وليست بيضاء كبشرتها هى حين كانت تلامس بشرته ، أتراه يذكرها ؟ أجل ! لابد أنه يذكرها ؟ لابد ! لسوف تقف أيضا بينه وبين تلك المرأة كما وقف بينها وبين بيير ،

اه لسوف تفسد أى حياة أخرى يقدم عليها كما فسدت حياتها ، لقد كانت تعلم أن الأمر سينتهى إلى ذلك ، ولا سبيل لواحد منهما إلى الرجوع الآن . لقد انفصلا بعد أن كانا متحدين ، انفصلا إلى الأبد ، لقد كانت تشعر بشيء من الراحة فى هذه اللحظة ، بيد أنها لم تكن تعرف السبب ، ذلك أنه لا راحة يجدها فى أى مكان من تستبد به الحيرة كما تستبد بها .

وكل ما فى الأمر أنها يجب أن تبقى ، وهذا ما كانت تعرفه . أجل يجب أن تبقى غدا بل ربما الليلة ، ذلك لأن أباها وأمها سوف يتركانها وحدها مع بيير برهة وجيزة بدافع الشفقة . أجل ! وربما كان الأمر يقتضيها أن تقول له فى هذه الليلة بالذات تلك العبارات ، إذن فسوف تقولها له . أجل لسوف تذهب إليه وتضع يدها على يده الحمراء الغليظة وتقول فى حزم تلك العبارات التى ظلت تفكر فيها طويلا ، تقول له :

« انظر يا بيير .. لقد أخطأت . فلننس تلك السنوات ، وها أناذى حبيبتك ماتيلد يا بيير »

أجل سوف تقول له هذا الليلة إذا اقتضاها الأمر ذلك ، أو تقوله له غدا على وجه التحقيق ...

وعاد أبوها فربت على كتفيها بيد ، وأخرج باليد الأخرى غليونه من بين شفتيه ليتكلم . ولكنها صاحت على غير وعى منها عندما أحست بوطأة يده الثقيلة على جسدها قائلة : بالله لا تفعل يا أبت ! »

ثم تحركت من مكانها ، قلقة خائفة ، مبتعدة عن يده التى يكسوها الشعر .



الكشكشة

الله الطريقة القديمة التى يجب أن تسلكيها ياعزيزتى فى معاملة هؤلاء الخياطين هى أن تكونى حازمة !

واتخذت السيدة لو ، زوجة وكيل البريد ، مجلسها بشىء من المشقة فى كرسى هزاز مصنوع من الصفصاف المجدول فى شرفة منزلها العريضة . لقد كانت امرأة ضخمة ، احمر وجهها من الإفراط فى الطعام أكثر مما ينبغى والإقلال من الرياضة فى عشر سنوات فقط قضتها فى ميناء من موانى الساحل الصينى، وراح ، وجهها المربع الغليظ اللحم يزداد حمرة بعض الشىء وهى تنظر إلى زائرتها وتلقى إليها بهذا الحديث ، وكان يقف بجوارها خادم صينى أعلن لتوه فى صوت هادىء :

« لقد جاء الخياط يا سيدتى » .

ونظرت السيدة نيومان الصغيرة الجسم إلى مضيفتها نظرات إعجاب صامتة .

وهمست : « إنى لأتمنى مخلصة أن أتبع طريقتك فى معاملتهم

يا أديلين » . قالت هذا وهى تروح على نفسها بمروحة من سعف النخيل تناولتها من مائدة صغيرة من الصفصاف المجدول كانت عند مرفقها . ومضت تقول فى لهجة تنم عن الحزن والشكوى : « إنى لأعتقد أحيانا أن الملابس الجديدة لا تكاد تستحق منى العناء ، بالرغم من أنها غاية فى الرخص هنا ، وبخاصة إذا اشترى المرء الحرائر الوطنية ، ولكن المرء يجد عناء كبيراً حتى يتم له تفصيلها ، وهؤلاء الخياطون يقولون . . وى ياعزيزتى ! إن خياطى يعدنى مخلصا بأن يتم تفصيل ثوبى فى ثلاثة أيام ، ثم يغيب أسبوعا أو أسبوعين ! ويقول روبرت إن مظهرى مشين ، وإن ملابسى لا تصلح للعرض فى معرض لبيع الملابس القديمة ، ولكننى أقول له آه لو تعلم مبلغ ما نعانيه فى حمل الخياطين الوطنيين على القيام بأى عمل ، ثم ناهيك بالطريقة الغريبة التى يفصلون بها الأكمام . آه ، يا إلهى ! » . وخفت صوتها الضعيف وانتهى بزفرة أطلقتها ، ثم مضت تروح على نفسها بسرعة أكثر قليلا لحظة أو لحظتين ، ومسحت العرق المتصبب على شفتها العليا بمنديلها .

فقالت السيدة لو فى لهجة آمرة : « انظرى إلىّ الآن » . وكانت ذات صوت ثابت عميق وعينين رماديتين جامدتين مستديرتين تقترب كل منهما من الأخرى بعض الشىء ، ويتوجها شعر أسمر داكن تقاربت موجاته ، وحوّلت هاتين العينين إلى الخادم الصينى وهو

واقف يخفض بصره إلى الأرض فى أدب وحياء وقد أحنى رأسه قليلا ، وقالت : « إلىّ بالخياط ياغلام »

وغمغم الخادم : « سمعاً وطاعة ياسيدتى » ، ثم انصرف .

ولم يلبث أن طرق آذانهما من خلال الأبواب المفتوحة وقع أقدام وئيدة منتظمة ، وسرعان ما أقبل الخياط فى أعقاب الخادم من خلف المنزل مجتازاً البهو . وكان رجلاً نَصَفاً ، طويل القامة بل أطول قامة من الخادم . على وجهه الهادئ سمة من الاطمئنان الغامض ، يرتدى ثوباً طويلاً من نسيج الألياف أزرق باهت اللون رفئ رفئاً أنيقاً عند المرفقين ، وكان نظيفاً كل النظافة . وحمل تحت إبطه صرّة ملفوفة فى نسيج أبيض ، وأحنى قامته للسيدتين البيضاوين ثم جلس القرفصاء ووضع الصرّة على أرض الشرفة وراح يفك عقدها ، وكان داخل الصرة كتاب أزياء قديم ممزق يصدر عن شركة أمريكية ، وثوب لم يتم صنعه بعد من الحرير الأبيض والأزرق المنقط ، وهز الرجل هذا الثوب فى عناية ورفعه لتراه السيدة لو ، وكان يتجلى من تقاسيمه الواسعة أنه قد صنع لها ، وراحت تتفحصه فى برود ، بل فى استنكار ، وهى تتبين تفصيلاته .

وقالت فجأة فى صوت مرتفع : « لا أريد هذه البنيقة أيها الخياط ! لقد قلت لك إنى أريدها مكشكشة . . انظر ، هكذا يكون

الزى الحديث ! » وراحت تقلب صفحات الكتاب بسرعة لتصل إلى الباب المخصص لثياب السيدات البدينات : « انظر ! أريده كزى هذه السيدة تماما ، لماذا صنعت البنيقة مبسوطة ؟ لا أريد أن يكون الثوب كذلك ! لا أريده كذلك ! خذه ! »

وتصبب العرق من وجه الخياط الهادئ الواسع الصدر ، وقال فى صوت خافت : « سمعا وطاعة يا سيدتى » ثم زم شفتيه بعض الشىء وتنفس وأنشأ يقول : « لقد قلت لى أولا يا سيدتى أن أجعلها مكشكشة ، ثم عدت فأمرتنى بألا أجعلها كذلك ، لقد قلت لى منذ أيام إنك تريدين البنيقة مبسوطة ، إذ أنك تبدين فى الكشكشة بدينة جدا » .

ونظر فى توسل إلى المرأة البيضاء ، ولكن السيدة لو راحت تسكته ملوحة بيدها البدينة المحلاة بالخواتم ، وأخذت تهتز بقوة متأرجحة إلى الأمام وإلى الخلف فى كرسيها المصنوع من الصفصاف المجدول ، ثم رفعت صوتها . وأنشأت تقول فى صرامة : « كلا ! إنك تكذب أيها الخياط ، فإنى أعرف ما أقول . لم أقل قط إننى أريد هذه البنيقة مبسوطة . . لم أقل ذلك قط ! وما من سيدة ترتدى ثوباً له بنيقة مبسوطة اليوم ، فما الذى يدعوك إلى هذا القول ؟ »

وأجاب الخياط : « سمعاً وطاعة يا سيدتى » ثم خطر له خاطر فقال : « سأحتاج إلى مزيد من القماش ياسيدتى لأصنع الكشكشة فهل تسمحين ؟ »

ولم يكن من الممكن أن يهدأ روع السيدة لو بهذه السهولة : « أجل ، لا بأس من ذلك ، ولكنك استهلكت من قماشى الكثير فماذا تظن ؟ أتحسبنى لا أتكلف مالا فى شراء هذا القماش ؟ إنك تكلفنى مالا كثيراً » ومضت تهتز إلى الأمام وإلى الخلف ، وتروّح على نفسها بشدة وقد اصطبغت وجنتاها بحمرة قانية ، والتفتت إلى ضيفتها قائلة : « لقــــد كنت أعولّ على هذا الثوب يا مينى ، فانظرى إليه الآن ، لقد كنت أريد أن أرتديه فى الحفلة التى ستقام فى حديقة القنصلية بعد غد ، وقلت له أريد كشكشة .. فانظرى إلى هذه البنيقة السخيفة ! »

وقالت السيدة نيومان بصوتها النكد الكليل : « أجل أعرف ذلك ، وإنه لعين ماكنت أقوله ، وإنما أريد أن أعرف كيف تعالجين الأمر ؟ »

فأجابت السيدة لو متجهمة : « آه ، لأعالجنه »

وتجاهلت الخياط لحظة وراحت تسرح الطرف فى حديقتها الأنيقة ، وجلس حمال يرتدى سترة زرقاء القرفصاء فى أشعة

الشمس الحارة فوق إطار زهور الزينيا التى كانت تتألق فى ظهر هذا اليوم من أيام شهر سبتمبر ، وكان ثمة ممر ضيق مفروش بالرمل يجرى حول مربع من مرجة خضراء ، ولم تقل السيدة شيئاً ، ووقف الخياط وقد استبد به القلق ممسكا بالثوب فى عناية من كتفيه ، وانسابت على كل جانب من جانبى وجهه قطرات من العرق ، ولعق شفتيه ، ثم أنشأ يقول فى صوت واجف :

« هلا تجربينه يا سيدتى »

فردت السيدة لو قائلة : « كلا ، لا أريد أن أجربه . ومالى أجربه ؟ ليس فيه شىء سليم — والبنيقة كلها خطأ فى خطأ — فمالى أجربه ؟ » ومضت تسرح ببصرها فى الحديقة تغمرها أشعة الشمس .

وقال الخياط فى حماسة محاولا استمالتها : « أستطيع أن أصنع هذه الكشكشة نفسها ، أجل .. أجل يا سيدتى ، أستطيع أن أصنع تلك الكشكشة التى تريدينها ، فمتى تريدين الثوب ؟ »

فأجابت المرأة البيضاء فى صوت مرتفع خشن : « أريده غداً ، ولتأتين به ظهر الغد ، فإذا لم تأت به فلن أنقدك أجرك . . أفهمت؟ إنك تتحدث دائماً عن الموعد الذى تحضره فيه ولا تحضره قط فى ذلك الموعد »

وقال الخياط بهدوء : « بل أستطيع هذا يا سيدتى » وكان قد

شرع فى طى الثوب بسرعة وعناية ، ويداه النحيلتان تتحركان بدقة ملحوظة : « إننى واثق مما أقول يا سيدتى ، لآتينّ به غداً ، وقد أنجزت الكشكشة تماما ، بل أنجزت كل شىء على خير وجه »

وجلس القرفصاء فى رشاقة وراح يطــــوى الثوب فى قطعة النسيج مرة أخرى ويربطها فى رقة ولطف محاذراً أن يتغضّن منه جزء ، ثم نهض ووقف ينتظر ، ولاح على وجهه شىء من ذل الاستعطاف ، فاضت به نفسه كلها فى توسل صامت فارتسم على وجهه الهادئ البارز الوجنتين ، وشفتيه المزمومتين ، وعاد وجهه فتصبب عرقاً ، حتى إن السيدة لو نفسها أحست إحساساً غامضاً بتلك النفس المبتهلة المتوسلة ، فكفت عن التأرجح ونظرت إليه .

ثم سألته فى صوت حاد : « ما بالك ؟ وماذا تريد بعد ؟ »

وبلّ الخياط شفتيه مرة أخرى وقال فى صوت خافت كالهمس أو يكاد : « هل لك أن تعطينى قليلا من المال يا سيدتى . . دولاراً أو دولارين ؟ » وحدجته بنظرة تحتدم غيظاً ، فأخذ صوته يخفت أكثر مما كان خافتا ، وأردف يقول : « إنى لأحسب أن ابن أخى ملاق حتفه اليوم وله ثلاثة أطفال وزوجة ، وليس لدينا ما نشترى به النعش ، أجل ليس لدينا شىء ، لقد اشتدت عليه وطأة المرض اليوم اشتداداً . . . »

ونظرت السيدة لو إلى ضيفتها ، وقالت فى صوت كالفحيح وقد أخذتها الدهشة حقا : « يا لجرأة هذا الرجل ! » وبادلتها السيدة نيومان نظرة بنظرة .

وأجابت : « هذا ما كنت أقوله تماما ، إنهم لا يستحقون كل هذا العناء الذى يبذل فى سبيلهم . ألا ما أسوأ تنصيلهم ، ومع ذلك فهم لا يفكرون إلا فى المال ! »

وحولت السيدة لو عينيها الرماديتين المتراقصتين إلى الخياط ، ولم يرفع هو بصره إليها ، بل تحاشى نظراتها إذ راح يمسح شفتيه بكمه ، وتفرست فيه لحظة ثم انطلق صوتها مليئا مضطرما بالغضب « لا ! ثم لا ! أنجز الثوب كله على خير وجه بما فى ذلك الكشكشة فأنقدك أجرك ، فإذا لم تنجزه فلن أدفع لك شيئا قط ! أو فهمت أيها الخياط ؟ »

وتنهد الخياط قائلا : « أجل يا سيدتى » واختفت من وجهه كل بارقة من بوارق الأمل ، وزالت أمارات التوسل والرجاء ، وغشيت وجهه مسحة من اليأس الكئيب كأنها الحجاب ، وقال : « لأنتهين منه ظهر الغد يا سيدتى » ، وأولاها ظهره وانصرف .

وصاحت السيدة لو تشيعه مزهوة بانتصارها : « لتفعلنّ » ومضت ترقب شخصه بازدراء وهو يختفى فى البهو ، والتفتت إلى

زائرتها قائلة : « إذا قلت غداً فلربما انتهى منه بعد غد » ثم خطر لها خاطر فمالت فى كرسيها إلى الأمام وضغطت على زر فى حزم ، وجاء الخادم فقالت له : « ارقب الخياط . . واستوثق من أنه لا يغادر الدار بشىء »

وانطلق صوتها المرتفع فى أرجاء المنزل ، واعتدل جسم الخياط بعض الشىء ، وكان لا يزال ظاهراً فى طرف البهو ، ثم اختفى عن الأنظار .

وقالت السيدة لو : « لا تستطيعين أن تعرفى الحقيقة أبداً ، أجل لا تستطيعين أن تعرفى أيخترعون هذه القصص أم يقولون الصدق ، وهل هم فى حاجة إلى المال . . ولكنهم دائماً يحتاحون إليه . إننى لم أرقط قوماً على شاكلتهم ، ومع ذلك فلا شك أنهم يربحون كثيراً ، وهم يخيطون لكل هؤلاء الأجانب الذين يعيشون هنا فى الميناء ، ولكن هذا الخياط أسوأ أرباب مهنته طراً ، فهو دائماً يطلب أجره قبل أن ينجز عمله ، فقد جاء ثلاث مرات متفرقة يقول إن طفلا يموت أو يتذرع بحجة من هذا القبيل ، وأنا لا أصدق كلمة مما يقول ، ولعله يدخن الأفيون أو يقامر ، وهم جميعاً يقامرون فلا يمكنك أن تصدقى كلمة مما يقولون ! »

وتنهدت السيدة نيومان وقالت وهى تنتصب واقفة متهيأة

للرحيل : « أجل ، أعلم هذا ... » ونهضت السيدة لو أيضاً .

وعادت تقول: « وعلى كل حال يجب على المرء أن يكون حازما»

غادر الخياط المنزل الأجنبي الأبيض الكبير ، ومضى يجتاز فى سكون وسرعة الشارع الحار . حسنا ، لقد سألها بعض المال فأبت أن تعطيه شيئا . أجل أبت أن تعطيه شيئا بعد أن عانى ما عانى من الخوف والفزع خشية أن ترفض سؤله ، واستجمع كل ما استطاع من شجاعته ليطلب منها هذا الطلب . لقد أنجز من الثوب أكثر من النصف ، ولم يبق منه إلا الكشكشة فقط ، وكانت قد أعطته النسيج الحريرى منذ يومين وطابت نفسه بذلك ، إذ أن صنع الثوب سيعود عليه ببضعة دولارات ينفقها على ابن أخيه ، الذى كان ينزله فى منزلة الابن تماما ، بعد أن قبضت الآلهة إليها أطفاله الصغار وكانوا ثلاثة . أجل لقد رأى أطفاله الصغار يموتون واحداً بعد واحد ، ولم يبق له منهم أحد .

ولذلك اشتد تعلقه بهذا الابن الوحيد الذى كان قد رزق به أخوه الأصغر المتوفى ، وكان الشاب تلميذا لحداد رزق ثلاثة أطفال أيضاً على غرار هذا الشاب القوى . . . من كان يظن أن الموت يترصد له على هذا النحو ؟ فقد حدث منذ شهرين أن كان يطرق قطعة طويلة من الحديد المحمى ليجعل منها سنا لمحراث ، فانزلقت بكيفية

ما من كابتيه وسقطت على ساقه وقدمه فخرقت اللحم حتى العظم أو كادت . أجل لقد سقطت على لحمه العارى ، وكان الوقت صيفا والدكان الصغير حارا ، ولم يكن يرتدى إلا سروالا خفيفا من القطن شمره حتى فخذيه .

وقد جرب كل مرهم من المراهم ، ولكن أى مرهم يعيد اللحم سليما كما كان ، وأى بلسم يصلح لمثل هذا الجرح ؟ أجل لقد كان الوقت صيفا ينتشر الذباب فيه فى كل مكان ويزداد احتشاده حول جرح فاغر دبّ فيه القيح ، وتورمت الرجل كلها ، وفى هذا اليوم الحار من أيام الشهر القمرى التاسع كان الشاب يحتضر ، وكان على الرجل من أعلى الفخذ حتى القدم لصوق سود ، ولم يجده ذلك نفعا .

أجل ، لقد شاهد الخياط ذلك بنفسه فى هذا الصباح حين ذهب لزيارة ابن أخيه . . رأى الموت يحوم حول ابن أخيه لا يخطئه أحد . وكانت الزوجة الشابة تنتحب جالسة على عتبة باب الغرفة الوحيدة التى كانت مأواهم ، وراح الطفلان الكبيران يرمقانها بنظراتهما فى حزن وهم ؛ وقد تولاهما الفزع فصرفهما عن اللعب ، أما الطفل الثالث فلم يكن إلا رضيعا تضمه إلى صدرها ، ولكن لبنها فى هذا اليوم الأخير أو اليومين الأخيرين كان ضئيلا ،

سممه حزنها ، فأخذ الرضيع يتقايؤه ويبكى مما يعانى فى بطنه من ألم .

وانعطف الخياط فى زقاق وولج بابا فى سور ، واجتاز فناء يزخر بأطفال عراة يصرخون ويتشاجرون ويصيحون وهم يلعبون ، وقد امتدت فوق رأسه أعمدة من الخاب علقت عليها ثياب مهلهلة غسلت بماء جد قليل من غير صابون ، وكانت تقيم هنا فى هذه الأفنية أسرة فى كل غرفة ، وتلقى فضلاتها فى الفناء ، حتى إن الفناء كان زلقا فيه الماء المتخلف على الرغم من أن اليوم كان يوما جافا ، وكان الجفاف قد استمر شهرا قمريا أو أكثر وسادت الجو رائحة البول القوية الحادة .

ولكن هذا لم يسترع انتباهه ، فقد اجتاز ثلاثة أفنية أخرى كالفناء الأول ثم انعطف إلى باب مفتوح إلى اليمين ، ودخل الغرفة المظلمة التى خلت من النوافذ ؛ وكانت الرائحة فى الغرفة تختلف عنها فى خارجها . كانت رائحة لحم عفن يحتضر صاحبه ؛ وارتفع من جانب الفراش الذى أسدلت ستائره صوت ولولة امرأة ؛ ومضى الخياط إلى مصدر هذا الصوت ، ولم تتغير سمة وجهه عما كانت فى منزل المرأة البيضاء . ولم ترفع الزوجة الشابة إليه بصرها عند قدومه ، بل جلست القرفصاء بجوار الفراش وقد خضب الدمع

وجهها ، وانسدل شعرها الأسود واسترسل على كتفها حتى بلغ الأرض ، ومضت تولول مرددة :

« آه يا زوجى . . آه يا رجلى . . لقد أصبحت وحيدة . . آه يا زوجى ! » .

وكان الطفل الرضيع بجوارها على الأرض يبكى فى ضعف بين الحين والحين ، أما الطفلان الكبيران فقد جلسا بالقرب من أمهما وتشبث كل منهما بطرف من أطراف سترتها . لقد كانا يبكيان هما أيضا ولكنهما أخلدا إلى الصمت الآن ، ورفعا وجهيهما المخضبين لينظرا إلى عمهما .

على أن الخياط لم يحفل بهما وقتئذ ، بل نظر من خلال ستائر الفراش المصنوعة من القنب ، وقال فى رقة :

« ألا تزال على قيد الحياة يابنى ؟ »

وأدار الرجل المحتضر عينيه فى مشقة ، وكان الورم الذى أصابه فظيعا ، شمل يديه وجسمه الأعلى العارى وعنقه ووجهه ، على أن هذا كله لم يكن شيئا مذكوراً بالقياس إلى الورم المستفحل الذى استشرى فى رجله فبدت كأنها كتلة من الخشب . لقد كانت وهى تمتد أمامه من الضخامة حتى بدا كأنه جزء منها ، وثبتت عيناه اللامعتان على عمه ، وفتح شفتيه المتورمتين ثم قال فى همس أجش

بعد وقت طويل بذل فى جهد صادق لتركيز أفكاره :

« هؤلاء الأطفال ... »

وتقلص وجه الخياط فجأة من الألم وجلس على طرف الفراش وأنشأ يقول فى جد

« لا حاجة بك إلى الحزن من أجل أطفالك يابنى ، فمت هادئ البال ، فإن زوجتك وأطفالك سيأتون إلى منزلى ، أستعيض بهم عن أطفالى الثلاثة ، وأتخذ من زوجتك ابنة لى ولزوجتى ، وسيكون أطفالك أحفادنا ، أفلست ابن أخى ؟ ، وقد عدت المنية عليه أيضا ولم يبق سواى ! »

وأخذ ينتحب فى هدوء ، وقد تجلى أن التجاعيد ارتسمت على وجهه ، وخطتها ساعات أخرى من النحيب الصامت المكبوت ، ذلك أنه كان إذا بكى فقلما يتغير وجهه ، وإنما تنحدر العبرات على خديه .

وانقضت فترة طويلة ثم انبعث صوت الرجل المحتضر مرة أخرى معانيا فى الحديث ما عاناه من قبل سواء بسواء ، كأنما ينتزع نفسه انتزاعا من سبات ثقيل لينطق بما يقتضيه الأمر النطق به :

« إنك فقير . . أنت أيضا . . »

ولكن العم أجاب مسرعا وهو ينحنى على الرجل المحتضر ، ذلك أن العينين المتورمتين كانتا قد انطبقتا ، ولم يكن واثقا من أنه يستطيع أن يسمعه : « ما من سبب يدعوك إلى القلق وطب نفسا ، فإن لدى

عملاً ... إن هؤلاء النسوة البيض يطلبن الثياب الجديدة دائماً ، وعندى الآن ثوب من الحرير لزوجة وكيل البريد أوشك أن ينتهى .. أجل أوشك أن ينتهى فيما عدا كشكشة ، وما إن يجهز حتى تنقدنى أجرى ، ولعلها تعهد إلى بصنع ثوب آخر ، ولسوف تمضى أحوالنا على ما نحب ونشتهى ... »

إلا أن الشاب لم يحر جوابا بعد ، فقد استغرق فى ذلك السبات إلى ما شاء الله ، وعجز عن أن يوقظ نفسه مرة أخرى .

ومع ذلك فقد ظل يتنفس تنفسا ضعيفا طيلة ذلك اليوم الطويل الحار ، ونهض الخياط مرة ليضع صرته فى ركن من أركان الغرفة ويخلع ثوبه ، ثم عاد واتخذ مجلسه بجوار الرجل المحتضر ، وظل مقيما فى مجلسه لا يريم ساعات طويلة . ومضت المرأة تولول ، ولكن قواها أنهكت آخر الأمر فجلست مستندة إلى طرف الفراش ، وعيناها مغمضتان تنتحب من حين إلى حين فى صوت خافت ، وألف الطفلان حالة أمهما ، بل ألفا حالة أبيهما المحتضر ، فهرعا إلى الفناء يلعبان ، وجاءت جارة كريمة إلى الغرفة مرتين وأطلت من بابها ، ثم أخذت الطفل الرضيع فى المرة الأخيرة وذهبت به وهى تضمه إلى صدرها الملىء مهدئة من روعه ، وكان صوتها يسمع فى الخارج وهى تصيح فى رثاء ممزوج بشىء من الغبطة :

« لقد دنت ساعته ، وقد فاح منه النتن كأنما توفى منذ شهر ! » .

واقترب اليوم الحار آخر الأمر من نهايته وولى ، فلما حل الغسق كانت أنفاس الشاب قد خمدت وفارق الحياة .

وهنالك فقط نهض الخياط ، نهض وارتدى ثوبه وتناول صرته ثم قال للمرأة التى كانت تتربع على الأرض .

« لقد مات . هل عندك شىء من المال ؟ »

ثم نهضت المرأة الشابة أيضا ونظرت إليه فى قلق ، وهى تزيح شعرها عن وجهها إلى الوراء . وكان الناظر إليها وقتئذ يستطيع أن يدرك أنها ما زالت فى مقتبل العمر ، لا تجاوز ربيعها العشرين . كانت مخلوقة صغيرة عادية المظهر كأولئك الذين تراهم فى أى مكان من أى شارع وفى أى يوم ، لم تكن بالجميلة ولا بالدميمة ، بل كانت ضئيلة الجسم أميل إلى القذارة حتى فى المناسبات العادية ، وها هى ذى لم تغتسل منذ أيام . وكان وجهها المتجهم مستديراً ، وشفتاها مكتنزتين بارزتين وعيناها تنسمان بشىء من الغباء . وكان من الجلى أنها تعيش ليومها ، ولم تحسب أى حساب لوقوع مثل هذه الكارثة التى حلت بها اليوم ، ونظرت إلى الخياط نظرات تنم عن الذلة والقلق .

وقالت : « لم يبق لنا شىء فقد رهنت ملابسه وملابسى الشتوية والمائدة والمقاعد . أجل لم يبق لنا إلا ذلك الفراش الذى يرقد عليه »

واشتدت أمارات اليأس المرتسمة على وجه الرجل وسألها :
« هل من أحد تستطيعين أن تقترضى منه ؟ »

فهزت رأسها وقالت : « إننى لا أعرف إلا أهل هذا الفناء ، وهل ينتظر أن أجد عندهم شيئا! » ، ثم أدركت حرج موقفها فانتابها الفزع وصرخت قائلة : « ليس لنا فى هذا العالم سواك أيها العم ! »

فأجاب ببساطة : « أعرف هذا » ، ونظر مرة أخرى إلى الفراش وقال فى صوت خفيض « غطّيه ، غطّيه دفعا للذباب » .

وهنالك اجتاز الأفنية مسرعا ، وصاحت الجارة التى كانت تحمل الطفل الرضيع خلفه قائلة : « ألم يمت بعد ؟ »

فقال الخياط : « لقد مات » ومضى يجتاز الباب إلى الشارع وانعطف غربا حيث كان سكنه .

وبدا له أن هذا اليوم هو أشد أيام الصيف كله حرارة . وهكذا يكون الشهر القمرى التاسع حارا أحيانا ، وكثيرا ما يمضى الصيف قائظا حتى يوغل فى الخريف . وحل المساء ولكن الجو لم يعتدل ، وتجمعت فوق المدينة سحب تنذر بالعاصفة ، وزخرت الشوارع برجال نصف عراة ونساء فى غلالات أرق من النسيم يجلسون على أرائك صغيرة منخفضة من الغاب نقلوها من منازلهم

إلى الخارج . وكان بعضهم يستلقى فى الشارع على حصير من البوص أو قطع من الحصير المنسوج . وكان الأطفال يولولون فى كل مكان والأمهات يروحن على أطفالهن الرضع فى ملل وسآمة وهن من قدوم الليل فى خوف وفزع .

وراح الخياط يشق طريقه فى هذا الحشد مسرعا ، وقد أحنى رأسه . وكان الإعياء قد نال منه مناله الآن ، ولكنه لم يكن يشعر بالجوع بعد ، وإن كان قد ظل صائما اليوم بطوله . إنه لم يكن يستطيع أن يأكل . . كلا ، حتى لو بلغ الغرفة الوحيدة فى الفناء التى كانت هى مسكنه . لم يكن يستطيع أن يأكل حتى لو جاءت زوجته العجوز الغبية المسكينة تدلف و تلهث من الشارع وتضع طاسا من عصيدة الأرز الباردة على المائدة ليصيب منها طعامه . لقد كانت تلك الرائحة لا تزال تفوح من ملابسه وتزكم أنفه . وخطر له الثوب الحريرى فجأة ، هب أن المرأة البيضاء لاحظت وجود الرائحة فما العمل ؟ وانتصب بغتة وفتح الصرة ثم نفض الثوب وقلبه بعناية ظهراً لبطن ونشره يهويه على قائم متداع من قوائم الخياطين .

ولكن كان من المستحيل أن يبقى الثوب فى موضعه طويلا ، فقد كان ينبغى عليه أن ينجزه ويأخذ أجره ، فخلع ثوبه وقميصه

الداخلى وحذاءه وجوربه وبقى بسرواله ، فقد كان الأمر يقتضيه أن يحاذر فى غمرة هذه الحرارة التى يعانيها خشية أن يلوث عرقه الثوب ، وعثر على منشفة رمادية لفها حول رأسه حتى تجفف قطرات العرق ، ووجد خرقة وضعها على المائدة ليمسح بها يديه من حين إلى حين .

وراح يتأمل فيما عساه أن يصنع وهو يخيط بسرعة ، ممسكاً بالحرير فى رقة بالغة بأصابعه النحيلة ، وهو لا يجرؤ أيضاً على أن يسرع فى عمله إسراعاً يخل بجودته خشية ألا يحوز الثوب رضاها . لقد كان عنده صبى يتمرن العام الماضى ، ولكن الضائقة كانت من الشدة بحيث أكره على الاستغناء عنه . ومن ثمّ لم يبق الآن إلا أصابعه العشرة تخدمه ، على أن الموقف لم يكن سيئاً كل السوء ، ذلك أن الصبى أخطأ أخطاء كثيرة ، حتى أخذت المرأة البيضاء تردد فى إصرار وعناد : « عليك أن تصنع الثوب بنفسك أيها الخياط ، ولا تتركه للغلام الصغير لئلا يفسده » . أجل ولكن هل يستطيع بأصابعه العشرة هذه وحدها أن يأمل فى صنع ثوب آخر فى ثلاثة أيام ؟ هب أن عندها ثوبا حريريا آخر . . إذن فإن أجره سوف يبلغ عن الثوبين عشرة دولارات . إنه يستطيع إذن أن يشترى بالنقد نعشا بعشرة دولارات على أن يعد بدفع الباقى آجلا .

ولكن هب أنه ليس عندها ثوب آخر تعطيه له .. فماذا يستطيع أن يفعل حينئذ ؟ ماذا يفعل حقا ، اللهم إلا أن يلجأ لمراب ، ومع ذلك فإنه لم يكن يجرؤ على هذا الفعل . إن المرء خليق بالضياع إذا لجأ إلى مراب ، ذلك أن الفائدة تلاحقه بأسرع مما يلاحقه نمر ، وما إن تنقضى بضعة أشهر حتى يصبح الدين ضعف ما اقترضه أو ثلاثة أمثاله ، ثم إن عليه بعد أن يفرغ من مواراة الميت التراب أن يأتى بالزوجة الشابة والأطفال الثلاثة إلى بيته ، وليس لهم جميعا إلا هذه الغرفة الواحدة . وغمره شيء من الفرح عندما طاف الأطفال الثلاثة بمخيلته ، ولكنه توقف فجأة وتملكه الرعب حين أدرك أن عليه أن يعولهم .

إذن فمن واجبه أن يبحث عن مزيد من العمل ، ولسوف يجد المزيد بلا ريب . ولسوف يجده عند زوجة وكيل البريد حقا .. يجد بلا شك ثوبا آخر من الحرير تسلمه له غداً . لقد كانت واسعة الثراء ، تعيش فى ذلك المنزل الأجنبي الكبير يقوم فى حديقة من حدائق الزهور .

واقترب الليل من منتصفه ولما ينجز الثوب ، فقد بقى شر ما فيه .. الكشكشة . وبحث عن كتاب الأزياء وعكف على دراسته فى ظل الضوء المتذبذب المنبعث من مصباح البترول

الصغير المصنوع من الصفيح ، وهكذا كانت الكشكشة . .
تلتف هنا فى كشكشة طويلة عريضة ، مطوية فى ثنايا يلاصق
بعضها بعضا ، وطوى الثنيات الصغـــيرة وأصابعه ترتجف ،
وكانت زوجته مستلقية فى الفراش تغط فى نومها ، ولم يكن
يوقظها شيء حتى ولا آلة الخياطة الصاخبة التى كان يستعين بها
فى تثبيت الكشكشة التى سرجها بعناية ، وبزغ الفجر ولم يبق
من الثوب إلا طرفه يخفقه بيده والمكاوى يحميها على فرن الفحم
الحجرى المصنوع من النحاس . حسنا ، فلينم إذن قليلا وليرح
عينيه اللتين تؤلمانه ، ثم ليستيقظ لإنجاز الثوب ، وعلق الثوب
على القائم ، ثم استلقى بجوار زوجته ولم يلبث أن استغرق
فى النوم .

على أنه لم يستطع النوم طويلا ، فاستيقظ فى السابعة وانكب
على عمله مرة أخرى ، وظل يعمل حتى كاد النهار أن ينتصف ،
ولم يتوقف إلا ليصيب لقمة من الطعام الذى لم يستطع أن يصيب
منه شيئا الليلة الماضية ، ثم انتهى من الثوب . لقد استنفد من وقته
أكثر مما كان يظن . وتطلع إلى الشمس فأزاغت عينيه . أجل ،
إنه مستطيع أن يبلغ المنزل عند الظهر تماما ، ويجب أن يسرع ؛
فإن الأمر يقتضيه ألا يثير غضبها ، فقد ترفض من ثم أن تعهد إليه
بذلك الثوب الآخر ، بدافع من غضبها حينئذ ، كلا ! يجب أن

يحصل على ذلك الثوب الآخر بوجه من الوجوه ، فإذا عكف على خياطته عصر هذا اليوم وأثناء الليل استطاع أن ينجزه فى اليوم التالى ، ومضى يشم الثوب الجاهز فى قلق وجزع ، ربما تفوح منه رائحة خفيفة . . ترى أتلاحظها ؟

ولكنها لحسن الطالع لم تلاحظها . فقد كانت تجلس فى ذلك الكرسى الهزاز الغريب القائم فى الشرفة ، ومضت تدقق النظر فى الثوب وسألته بلهجتها العالية المباغتة : « أوفرغت منه تماما ؟ »

فأجاب فى ذلة : « أجل ياسيدتى »

« حسنا ، سأجربا »

وهنالك مضت إلى غرفتها ، ووقف هو ينتظر حابساً أنفاسه . ربما لايزال عالقاً به شيء من الرائحة ؟ ولكنها عادت مرتدية الثوب وعلى وجهها أمارات الرضا ، ولكنه رضا معتدل لا إسراف فيه .

وقالت فى اقتضاب : « كم الأجر ؟ » .

وتردد ، وما لبث أن قال : « خمسة دولارات ياسيدتى إذا سمحت » . ثم تبين الغضب فى عينيها فأردف مسرعاً : « ثوب من الحرير . خمسة دولارات ياسيدتى إذاسمحت . إن أى خياط يتقاضى خمسة دولارات » .

فهتفت: « هذا كثير جداً . . كثير جدًّا ، ثم إنك استهلكت قماشى أيضاً ! » . ولكنها دفعت الأجر متبرمة ساخطة ، فتناوله منها وهو يحرص فى لباقة ألا يلمس يدها .

ثم قال فى رقة : « شكراً لك ياسيدتى »

وجثا على ركبتيه وشرع يربط صرّته وأصابعه ترتجف . يجب أن يسألها الآن ، ولكن كيف يستطيع هذا ؟ وماذا عساه أن يصنع لو أنها رفضت ؟ واستجمع شجاعته يائسا .

وأنشأ يقول وهو ينظر إليها فى ذلة ومسكنة متجنبا نظراتها : « أو عندك ياسيدتى ثوب آخر أستطيع تفصيله لك ؟ »

وانتظر ، معلقا الآمال على جوابها ، سارحا ببصره فى الحديقة التى تغمرها أشعة الشمس ، ولكنها كانت قد تحوّلت عنه متأهبة لدخول المنزل مرة أخرى لتخلع ثوبها ، والتفتت إليه تقول فى غير اكتراث :

« كلا . . ليس عندى ثوب آخر ! إنك تسبب لى إزعاجا كبيراً ، ثم إنك تفسد القماش . إن ثمة خياطين كثيرين غيرك أرخص منك ولا يزعجوننى هذا الإزعاج ! »

ولقيت فى اليوم التالى فى حفلة من الحفلات التى تقام فى الحدائق السيدة نيومان الصغيرة الجسم جالسة فى تراخ وكسل فى كرسى مصنوع

من الصفصاف المجدول ، ترقب الأجسام البيض تتحرك على المرج منكبة على لعبة « الكروكيه » . وتألقت عينا السيدة نيومان الزرقاوان الخابيتان بعض التألق عندما وقع نظرها على الثوب الجديد .

وقالت فى اهتمام قليل : « لقد حصلت حقا على ثوبك آخر الأمر ، وما كنت أظنك وأيم الحق فاعلة . لقد أجاد صنع تلك الكشكشة . أليس كذلك ؟ »

ورنت السيدة لو إلى صدرها العريض ، فوجدت الكشكشة قد ثنيت ثنيا جميلا ، وكويت كيا متقنا . ثم قالت فى ارتياح : « أجل إنه ثوب جميل ، أليس كذلك ؟ إنه ليسرنى أننى صممت على هذه الكشكشة آخر الأمر ، ألا ما أرخص أجره ! إن الثوب مع كل هذه الكشكشة لم يكلفنى ياعزيزتى إلا خمسة دولارات — وهذا أقل من أجر تفصيله فى بلادنا بدولارين ! ماذا تقولين ؟ أى نعم لقد جاء به فى الساعة الثانية عشرة بالضبط ، كما أمرت . وقد صدق قولى إذ نصحت بأن يؤخذ هؤلاء الخياطون الوطنيون بالحزم ! »

الأب أندريا

كان الأب أندريا يقضى نهاره بطوله مترقباً ساعات الليل التى يتهيأ له فيها دراسة النجوم ، وكانت الأيام فى أبرشيته القائمة فى المدينة الصينية طويلة مزدحمة بالعمل ، وتزخر بالناس والأصوات التى تصيح وتشكو وتطالب ،وكانت الليالى قصيرة تتألق بالنجوم الساكنة الهادئة ، تضىء كأنها المشاعل فى السماء الأرجوانية الداكنة ، ولم يكن يستطيع قط أن يشبع عينيه منها ، فقد كانت الساعات تمر به فى صحبة مرقبه سريعة غاية السرعة حتى كان فى كثير من الأحيان لا يذكر النوم إلا حين يبزغ الفجر من الشرق فى هالة حمراء رائعة فتتلاشى النجوم ، إلا أنه لم يكن فى حاجة إلى النوم ، فقد كان فى استطاعته أن يرتد إلى النهار وقد أنعشته ونشطته تلك الساعات التى قضاها يدرس النجوم الذهبية ويرقبها حين تهجع الأصوات التى تلاحقه طول النهار فترة قصيرة ، فيهتف بينه وبين نفسه : « تبارك النوم » ضاحكا وهو يرقى درجات المرصد الصغير الذى بناه فى أعلى المدرسة .

كان رجلا قصيراً بديناً باسم الثغر لا يكشف مظهره عن شىء

من نفسه الرقيقة الصوفية ، ولو أن أحداً لم ير منه إلا وجنتيه الشبيهتين بالتفاح ولحيته السوداء وشفتيه الحمراوين الباسمتين لقال عنه إنه رجل يحب حياة الظاهر ، وما كنت لتكشف أنه رجل يحب الأشياء الباطنة إلا إذا رأيت عينيه . لقد كانت شفتاه لا تفتران عن الابتسام ولو جاءه مجذوم يتلوى ويتوسل عندقدميه ، أوهرعت إليه أمة تعسة تحنى هامتها وتصرخ وهي تجتاز أبواب البعثة ، إلا أن عينيه الغائرتين السوداوين كانتا كثيراً ما تمتلئان بالدموع .

وكان في أثناء النهار يرفع المجذومين بيديه ويغسلهم ويطعمهم ويهون عليهم ويضع الزيت على جروحهم . وكان يقف بين الأمة وسيدتها الغاضبة تصب عليها اللعنات ، وهو يبتسم صابراً يتحدث بأسلوبه الهادىء المتدفق الهامس ، فيعلو صوت المرأة الغاضبة على همسه كأنه العاصفة تغشى الغدير ، ولكن إلحاحه الرقيق في الحديث كان يغلب إن آجلا أو عاجلا ، فتجلس المرأة عابسة متجهمة ، استجابة لدعوته ، في كرسي الشرف إلى اليمين من المائدة المربعة في بهو الاستقبال الصغير ، وترشف الشاى الذى يكون قد أمر الخادم بإعداده ؛ ثم يروح يتحدث بعينيه الحزينتين السوداوين الصغيرتين الرضيتين تظلان فمه الباسم ممتدحاً ، مقترحاً ، آسفاً ، مشيرا برقة إلى ما تقتضيه الضرورة من تحسن الأحوال ، حتى تنصرف الأمة آخر الأمر في صحبة سيدتها . لم يكن يساعد الناس

قط على التحلل من واجباتهم ، بل كان همه الأكبر أن يعينهم على الاحتمال ، مهوناً عليهم أكثر وأكثر ذلك العبء المحتوم الذى وضعته الحياة على عاتق كل منهم . لقد كان هذا هو الشىء الوحيد الذى يؤمن به ، وهو ألا مهرب للمرء من الاضطهاد الذى تأتى به الحياة نفسها .

وراح الأب أندريا يتحدث إلى فتيان المدرسة فى صبيحة يوم من الأيام متخذاً سمة الجد أكثر مما عهد فيه من قبل فى أى يوم من الأيام ، قال :

« لأحدثنكم يا أبنائى بأمر ، فإنكم لتحسبون وأنتم بعد أطفال أنكم سوف تفلتون يوماً من إسار والديكم ، وأنكم حين تذهبون إلى المدرسة تتحررون منهم ، ثم تحلمون وأنتم فى المدرسة بالرجولة حين لا يصبح لكم مدرسون تطيعون أوامرهم . ولكنكم لا تستطيعون أن تكونوا أحراراً أبداً ! فإن نفوسكم الخالدة عندما اتخذت الجسم لباساً أصبحت كأبناء البشر أسيرة ، وما من إنسان حر ! ذلك أننا لم نتحرر بعضنا من بعض ، ونحن لانستطيع أن نتحرر من سلطان الله أبداً .

« وجوهر الأمر أننا يجب ألا نصيح فى طلب الحرية من غير طائل ، بل علينا أن نكتشف مغتبطين كيف نتحمل عبء القيود

المفروضة علينا . وحتى النجوم فى السماء ليست حرة ، إذ لا بد لها أيضا أن تترسم سبل النظام التى يفرضها عليها القانون لئلا تقوض أركان الكون بطيشها ونزقها . لقد رأيتم الكواكب التى تنطلق بسرعة فى أجواز الفضاء صيفا ، تبدو للعين جميلة وهى تنعم بحريتها إذ يتألق ضوؤها ويتجلى سناها على أديم السحب ، ولكن نهايتها الدمار والظلام ، وإنما الكواكب التى تسير باطراد فى مسالكها المعلومة هى التى يكتب لها البقاء »

وحملق فيه الغلمان الصينيون الصغار الذين يرتدون السترات الزرقاء ، متعجبين من الانفعال الذى غشى صوته الهادئ ، ومن تلك الكآبة الغريبة التى علت وجهه الباسم المستدير ، ولم يفهموا كلمة مما قال .

وانبعث طول يومه يروح ويغدو وهو يؤدى ما يجب أن يؤديه من مهام ، فاستهل عمله عند الفجر بتلاوة القداس لبعض عجائز النساء المؤمنات اللواتى جئن متحشمات ، يرتدينستراتهن وسراويلهن القطنية ويغطين رؤوسهن بمناديل سوداء . وكان يزعجه أحيانا أنهن لا يفهمن كثيراً مما يقول . إن لغته الصينية لم تكن قط جيدة ، فقد كان يتحدث بها متلعثما فى غنة إيطالية رقيقة يفوتها دائما النطق بالحروف الحلقية نطقا صحيحا ، ولكنه كان يرى

وجوههن التى تنطق بالصبر متعلقة بصورة العذراء وابنها فقر قراره آخر الأمر على أن ما يقوله ليس بذى غناء مادمن ينظرن إلى الصورة المقدسة ويحاولن التفكير فى معناها .

وسعى قبل الظهر إلى التدريس قليلا فى مدرسة الصبيان ، ولكنه كان عملا مزعجا ، ذلك أنه كان عرضة فى أية لحظة أن يطلب خارج المدرسة ليفصل فى شأن من الشئون الخاصة بالفقراء .

« لقد بعت هذا الرجل يا أبت ما قيمته عشرة بنسات من الأرز فى الليلة الماضية وأمهلته الثمن حتى صباح اليوم ، أما وقد أكل الأرز فإنه يقول لى إنه لا يملك شيئا »

وكان يقف أمامه رجلان ارتديا سروالا مما يرتديه الحمالون ، وقد تعرى ظهراهما واسودا بفعل الشمس ، أحدهما ساخط حانق والآخر متحد .

« وى ، ألم تكن معدتى خاوية ؟ وهل أموت جوعا وعندك الطعام ؟ إن الثوار قادمون ، وحين يقدمون يجب على كل من عنده أرز من أمثالك أن يعطينا نحن الذين ليس عندنا منه شىء ، من غير أن يطالبونا بالثمن ! »

وكان كل منهما يرمق أخاه كما يرمق ديكان غاضبان بعضهما بعضا قبل النزال ، ووضع الأب أندريا يدا على ذراع كل من الرجلين

ونطقت يداه بالقصة التى بدأتها عيناه ، وكانت يدين صغيرتين سمراوين فى أحسن تقويم ، وقد تشققتا وتغضنتا من كثرة ما تناولها بالغسيل والحك . ولقد كان من الأمور التى تنغص عليه حياته أنه لم يستطع ترويض جسمه على لمس الأجسام السمراء التى لا تغتسل دون أن يجزع من ذلك بعض الجزع ، وكان من الوساوس التى استقرت فى وهمه أن يغسل يديه المرة بعد المرة حتى كانت تفوح منهما دائما رائحة خفيفة من أثر صابون الفنيك . وكان مما يأخذ به نفسه فى السر من كفارة أن يمضى دون أن يغسل يديه ، مروضا نفسه على احتمال القشعريرة التى تنتابه إذا وضع يده على رأس طفل تغشاه من مرض القراع قشور . لقد روض نفسه على أن يلمس كل ما يجعله يجفل ، وكان الناس يرون يديه المعبرتين الرقيقتين تتحركان فى سهولة ويسر فلا يخامرهم شك فيما تضطرم به نفسه من انفعالات .

ثم راح يقول للرجل الذى يقف موقف التحدى وهو يضع يداً حارة باعثة على الإقناع على ذراع كل من الرجلين :

« إنى لا أعرف شيئاً عن الثوار يا صديق ، ولكننى أعرف هذا . . إن حديقتى فى حاجة إلى تنقية الحشائش منها اليوم ، فإذا قمت بهذا العمل أسعدنى أن أدفع لك أجرك ، وإنى لموقن

أنا العارف بطيبة قلبك بأنك لن تبخل على جارك بالعشرة البنسات التى يدينك بها تدفعها له مما أنقدك أنا من أجر . إنه رجل فقير وعنده أطفال وقد أكلت أرزه ، وقد جاء فى الكتاب : (إنما تأكل خبزك بعرق جبينك) وهذه سنة من سنن الحياة لن تستطيع الثورة نفسها أن تغيرها بوجه حق »

وسرعان مازال التوتر الذى غشى الوجهين ، وضحك الرجلان وكشفا عن أسنانهما البيض وضحك الأب أندريا حتى تغضن وجهه المستدير المورد ، ثم عاد إلى صبيانه ، وفى نهاية اليوم دفع للرجل أجره مضاعفاً ، وقال والرجل يتظاهر بالرفض : « خذه ، فلسوف أسألك يوماً أن تخدمنى مرة أخرى ، وقد لا يتوفر لى مال فى ذلك اليوم »

وتناول بعدظهر ذلك اليوم طبقه من الأرز والفول والمكرونة ثم ارتدى قبعته السوداء المبسوطة وخرج يزور الناس ، وشرب الشاى معهم ، وأكل البيض الذى طهته له بعض ربات البيوت فأسرفن فى إنضاجه حتى جمد ، وإن كانت نفسه تعاف البيض الذى يطهى على هذا النحو ، وكان ينصت مبتسماً إلى كل ما يقال . ولم يكن يعرف أحداً من الأثرياء ، فقد كانوا يسخرون منه وهو القس الكاثوليكى الأجنبى ، وما كان ليفرض نفسه عليهم حتى لو استطاع

ذلك . بل كان يمضى إلى بيوت الفقراء المنخفضة التى صنعت سقوفها من القش ، وإلى مآوى الشحاذين المصنوعة من الحصير فيعطيهم نقوده بمجرد أن تخرجها يداه ، ولم يكن هؤلاء القوم يعرفون شيئا عن تلك العاصفة الكبرى التى تتجمع فى الخارج .. عاصفة الثورة . ولم يكن الأب أندريا يعرف من أمرها شيئا أيضا ، ذلك أنه لم يكن قد قرأ صحيفة من الصحف منذ سنوات ، ولم تكن لديه أية فكرة عن شيء مما يحدث خارج نطاق هذه الدورة من الأيام والليالى الرائعة .

وكان يسمح لنفسه بأن يذكر وطنه مرة فى الأسبوع ، فيغتسل فى مساء اليوم السابع ويشذب لحيته السوداء ويضع قليلاً من العطر على يديه ، ثم يصعد إلى المرصد الصغير ويجلس فى كرسى مريح قديم له هناك ، وكان فى الليالى الأخرى يجلس على مقعد بجوار المنضدة ويخرج أقـــلامه وورقه وأجهزة القياس ويمضى فى كتابة تلك المذكرات بخطه الصغير الدقيق ، ويوافى بها رئيسه فى سيكاوى . ونبه شأنه شيئا فشيئا خلال تلك السنوات من الأمسيات التى كان يقضيها على هذه الصورة فغدا واحدا من طائفة أئمة الفلكيين فى الشرق الأقصى ، ولو أنه لم يكن يعلم ذلك . فقد كان يجد فى دراسة السموات راحة وإنعاشا لعقل خلق للملاحظة التى عمادها الوسوسة والتفكير الجاد الثاقب .

ولكنه فى هذا اليوم السابع لم يخرج قلما ولا ورقا ، بل جلس

وفتح النوافذ ، وثبت بصره على النجوم ، وترك العنان لأفكاره تحمله عائدة إلى وطنه إيطاليا التى لم يكن قد آب إليها منذ سبعة وعشرين عاما ولن يقدر له أن يشهدها مرة أخرى ؛ لقد كان شابا عندما فارقها ، بلغ الثلاثين أو يكاد ، ولكنه كان يشعر حتى بعد انقضاء كل تلك السنين بمرارة الفراق تضنيه وتشقيه ، بل لقد كان مستطيعا أن يرى بعد ذلك الخليج وهو يلتف فى دائرة تصغر شيئا فشيئا كلما نأت السفينة التى تقله عن الأرض ، وكان كل أسبوع يفكر جاداً يراوده شعور بالإثم بأن ذكرى ذلك الفراق لا تزال تسمو على إحساسه برسالته الدينية ، وإن فراق روحه عن حبيبته ڤيتيليا التى أحبت أخاه أكثر مما أحبته أقسى وأمر من فراقه لوطنه ووالديه وأخته وأخيه .

لقد كفـَّر طوال تلك السنين عن هذا الإثم ، أجل هذا الإثم الذى حمله على الالتحاق بالكنيسة لا ليكرس نفسه لله وللعذراء مريم ، بل لأن ڤيتيليا لم تحبه ، ولم تعرف هى هذا السر ولا عرفه سواها . لقد كان أخوه طويل القامة وسيما رزينا ، له عينان عسليتان ناعستان جميلتان ، وكانت ڤيتيليا طويلة القامة شاحبة اللون رائعة كشجرة زيتون أورقت من جديد ، فبدت ألوانها جميعا رقيقة خافتة كالضباب ، كانت تعلو رأسا وكتفين عن ذلك الرجل المورّد القصير القامة الذى كانه دائما . ولم يكن أحد يأخذه مأخذ الجد ، فقد كان

دائماً ضاحكا مازحا مرحا ، يشع السرور من عينيه الصغيرتين الغائرتين السوداوين .

بل إنه لم يكف عن المزاح بعد زواج أخيه ، وإنما انتظر ليرى أيحسن أخوه معاملة ڤيتيليا أم لا يحسن ، على أنه لم يكن ثمة ما يدعو للشكوى من هذه الناحية ، فقد كان أخوه رجلا طيباً وإن كان جمال جسمه ينطوى على شيء من ثقل الظل ، فلما وجد نفسه متزوجا على وشك أن يرزق بطفل استقر فى تجارة أبيه فى الخمور ، وغمرته السعادة هو وزوجته . أجل ، لم يكن ثمة مايدعو إلى الشكوى من هذه الناحية .

وهنالك فزع أندريا من شدة حبه . فقد رأى ألا شيء يحول بينه وبين الكشف عن خبايا نفسه إلا الاستسلام التام لما كتب عليه . واستغرق ذلك منه عاما ، عاما من الحمى والألم ، ولم ينته العام حتى وجد ألا مهرب له خيراً وأبقى من دخوله سلك القساوسة فى بلد ناء ؛ ثم هرع إلى شيوخ قريته .

وسخرت أسرته منه ، بل سخر منه الناس جميعاً ، وكادت ڤيتيليا تدمر حياته بتعلقها بيده وقولها له بصوتها الذى كان أعذب من الموسيقى وقعاً على نفسه : « ولكن يا أخى ، يا أخى أندريا ، من عسى أن يلعب مع أطفالى ويمثل دائماً فى منزلى ؟ » . بيد أنه هز رأسه

مبتسما ولم يحر جوابا ، وتطلعت هى إليه متعجبة ورأت الدموع تترقرق فى عينيه : « أيجب أن ترحل ياأندريا بالرغم مماتكنه لنا من هذا الحب الشديد ؟ » ، فأومأ برأسه .

آه ، لقد حدث هذا منذ زمن طويل جداً . وظل عدة سنوات يرد نفسه عن التفكير فيها ، ذلك أنها كانت زوجة رجل آخر ، وكان يفزع إلى النجوم ليلة بعد ليلة ، ويصلى بحرارة ينشد طمأنينة النفس . وكان يلوح له أنه لن يستطيع أن يكفر حق التكفير عن حبه فيتيليا أكثر من أى شخص آخر ، حباً مقيما يضطرم فى قلبه حتى يلقى ربه . وكان هذا يحمله على إنكار نفسه فى عنف وقسوة ، ويدفعه إلى القيام بكل ما تكرهه من لمس كل قبيح أوأداء أى واجب ثقيل . وحدث مرة أن تأجج جسمه بنار الشوق إليها فخرج إلى الطرقات هائماً على وجهه ، وجاء بسائل كان يضرب فى تلك الليلة من ليالى الشتاء .. كان رجلا شقياً مسكيناً يرتعد من البرد ، وأواه فى فراشه وغطاه ببطاطينه واستلقى هو إلى جوار ذلك المخلوق طوال الليل بلا دثار ، وقد تقبضت أسنانه وآلمته معدته . على أنه أهاب بجسمه هامساً وقد أحس بانتصاره عليه : « هلا هدأت بعدوكففت عن إزعاجى ! » . وكان فى هذا كله تعليل لما يلوح فى عينيه من أسى بسّام ، وما يدعو إليه باستمرار من أن يتحمل المرء ما ألقى على كاهله من أعباء ثقال .

وجاءه ذات يوم خطاب مجلل بالسواد ، بعد سنوات لم يصله فيها شيء ، ففضّه وقرأ فيه نبأ وفاة ڤيتيليا ، وهنالك بدا له أنه قد نزل على قلبه شيء من الطمأنينة، وأباح لنفسه بعد حين تلك الراحة التي كان ينعم بها في مساء اليوم السابع ، بل لقد سمح لنفسه آخر الأمر بأن يفكر فيها قليلا ، وأصبح في مكنته الآن وقد عرف بموتها أن يتخيلها في السموات العلا تنتقل بين النجوم بخطواتها الطليقة الخفيفة . ذلك أنها لم تعد زوجة أحد ، أو ملكا لأحد . لقد غدت جزءا من السموات، بات في مقدوره أن يفكر فيها كما يفكر في نجم دون أن يرتكب معصية أو إثماً .

وراح يخفف من غلوائه، ويتئد في وعظه في دعوته إلى أن يحتمل المرء ما ألقى على كاهله من أعباء ثقال ، وهرب تلميذ من تلاميذه يوماً ليلحق بالثوار فخرج وهو يتنهد وسعى إليه وراح يحدثه في رفق متوسلا إليه أن يعود إلى أمه الباكية .

وقال في رقة وهو يبتسم قليلا ويطوق كتفي الغلام بذراعه : « إن الرحمن الرحيم قد خلقنا في هذه الدنيا وفرض علينا واجباً نؤديه »

ولكن الغلام تخلص من ذراعه وابتعد عنه ، ثم قال في صلف : « ليس في الثورة إله وليس فيها واجب ، وإنما نحن جميعاً أحرار تبشر كل فرد بعقيدة الحرية »

وقال الأب أندريا فى صوت رقيق : « حقا ؟ »

وأحس لأول مرة بنذير موجه إليه ، ولم يكن حتى ذلك الحين قد ألقى بالا إلى هذا الحديث المتواتر عن الثورة ، ذلك أن واجبه لم يكن قد نأى به ميلا واحداً عن الحى المكتظ الذى يقيم فيه . وخطر له أن واجبه يقتضيه الآن أن يبحث هذا الحديث ، وبخاصة إذا كان تلاميذه يهربون على هذا الوجه . وشرع يتحدث حينئذ عن أشياء أخرى ، ولكن الغلام كان متيقظاً بادى الرغبة فى حمله على الانصراف ، فقد كان ثمة غلمان آخرون معه وضابط أو ضابطان ، وأخذت إجابات الغلام تزداد اقتضاباً ، وراح يرنو بنظرات غاضبة إلى إخوانه،وقال الأب أندريا آخر الأمر فى رفق :

« أرى أنك مشغول بأمور أخرى ، فلأتركنك الآن ، ولا تنس الصلوات التى لقنتها لك يابنى »

ووضع يده على رأس الغلام لحظة ثم استدار لينصرف ، ولكنه قبل أن يغادر الثكنات شاع فى الجو ضحك صاخب ، وسمع الغلمان يصيحون بزميلهم : « أو أنت الكلب الهارب الأجنبى ؟ »

ولم يدر ماذا يعنون بذلك ، وفكر مرة فى العودة إليهم ، وتوقف ينصت ، وسمع أحدهم يصيح وهو يضحك ضحكة لاذعة أشبه بجرح يحدثه سوط : « آه ، مسيحى ! »

ثم سمع صوت الغلام يرتفع فى غضب أشبه بالنشيج : « إنى أكره القس .. ولا أعرف شيئاً عن دينه ، إننى ثائر ! فهل من أحد يجرؤ على محاسبتى ؟ » .

ووقف الأب أندريا مشدوها ، أية كلمات هذه التى تخرج من فم غلامه ، غلامه الذى التحق بالمدرسة مذ كان فى الخامسة من عمره ؟

وارتعد قليلا ، ثم خطر له فجأة خاطر كأنه وميض البرق : « وكذلك أنكر بطرس ربه ! » ، وعاد إلى البعثة الصغيرة التى كانت هى داره ، وأغلق من دونه الباب وراح يبكى بكاء مراً .

ولاح له بعد أنه كان يقف بلا وعى على شفا جرف هار . لقد سبق له أن قال إن الواجب يقتضيه أن يبحث فى أمر هذه الثورة والاطمئنان إلى أنها لا تجرف تلاميذه ، على أن البحث لم يكن له مقتض ، فقد أخذت المعرفة بحقائق الأمور والتمرس بها ينصبان عليه انصبابا حتى غدا فى بحر لجى من الصعاب .

لقد كان ثمة أمور كثيرة لم يعرفها ، ولم يكن قد سمع قط بما بين الشرق والغرب من خلافات سياسية ، ذلك أنه كان قد جاء هنا رجلا يريد أن يفنى فى بعثة على أرض لا تقوم فيها كنيسته الحقة . لقد عاش فى هذه البقعة بعينها فى مدينة هائلة مكتظة بالسكان يوما بعد يوم سبعة وعشرين عاما ، وأصبح بقامته القصيرة المتشحة

بالسواد جزءا من الشارع كأنه معبد قديم أو جسر من الجسور .
لقد ألف الأطفال منظره ، على قدر ما يعون ، وهو يدلف فى مشيته فى جميع فصول السنة ، وجيبه منتفخة انتفاخا مضحكا بالفول السودانى الذى يحمله لهم .

وكانت النساء اللواتى يغسلن عند حافة البئر ينظرن إليه وهو مقبل عليهن ، فيعرفن أن الساعة لابد أن تكون من ساعات العصر ، ثم يتنهدن وهن يفكرن فى الساعات التى تسبق الغروب . وكان الرجال يومئون إليه فى غير احتفال من خلف المناضد فى الحوانيت الصغيرة المفتوحة على الشوارع ، ويتقبلون فى اغتباط كتيباته الدينية وصور مريم العذراء .

ولكن هذا قد تغير الآن . ولم يعد ذلك القس الوديع الذى أخذ يطعن فى السن ، بل غدا أجنبياً .

ورفض طفل ذات يوم أن يأخذ الفول السودانى الذى مد به يده إليه ، وقال الطفل وهو ينظر إلى الأب أندريا بعينين واسعتين : « تقول أمى إن هذا الفول قد يكون مسموماً » .

وسأل الأب أندريا فى غموض وقد غلبته الدهشة : «مسموماً؟»

وعاد فى اليوم التالى بجيوبه مليئة بالفول السودانى كشأنه حين شرع فى رحلته ، ثم لم يعد يحمل شيئاً من الفول بعد ذلك . وبصقت

خلفه امرأة مرة وهو يجاوز البئر . ثم راح الرجال يهزون رءوسهم فى برود حين كان يبتسم ويقدم لهم كتيباته الدينية ، وبلغت به الدهشة عند ذاك أقصاها .

وجاءه مساعده الوطنى آخر الأمر ذات ليلة . كان شيخاً طيباً ، له لحية بيضاء شاردة قليلة الشعر ، وكان الرجل على شيء من الغباء حتى إنه لم يجد قط حفظ « السلام لك يا مريم » . وكان الأب أندريا يتساءل أحياناً أيقتضيه الأمر أن يبحث عن رجل أكثر منه كفاية ، ولكن قلبه لم يطاوعه قط على أن يقول لهذا الشيخ إنه لم يبلغ حد الكمال . وهنالك انبعث الشيخ يقول للأب أندريا :

« لا تخرج يا أبت حتى ينقضى هذا الجنون »

وسأله الأب أندريا : « أى جنون ؟ »

« هذا الحديث الذى يدور عن الأجانب وعن الثورات . إن الناس يستمعون إلى أولئك الشبان القادمين من الجنوب مرتدين الثياب الطويلة السوداء ، إذ يقولون إن الأجانب يقتلون الناس ويسلبون قلوبهم بالديانات الجديدة »

وسأل الأب أندريا فى رفق : « الديانات الجديدة ؟ ما من شيء جديد فى الدين الذى أومن به ، فقد قضيت أكثر من ربع قرن أعظ وأعلم » .

وأجاب الشيخ معتذراً : « حتى لو كان الأمر كما تقول يا سيدى فإنك أجنبي »

وقال الأب أندريا أخيراً : « وى ! إن هذا ليدهشنى غاية الدهشة ! »

ولكنه عمل بنصيحة الشيخ بعد اليوم التالى ، ذلك أنه عندما خطا من الباب إلى الشارع ألقى عليه حجر كبير أصابه فى صدره فشطر الصليب المصنوع من الأبنوس المعلق على صدره شطرين ، فلما رفع يده يتحسس موضع الإصابة مشدوها ألقى عليه حجر آخر أصابه فى يده إصابة بالغة ، فامتقع وجهه امتقاعا شديداً وعاد إلى منزل البعثة وأغلق دونه الباب ، ثم خر على ركبتيه ونظر إلى الصليب المكسور . وانقضت فترة طويلة لم يستطع أن يقول خلالها شيئا ، ولكن الكلمات واتته أخيراً فراح يصلى صلاة قديمة « اغفر لهم يا أبى فإنهم لا يدركون ما يفعلون » .

وبقى بعد هذا فى دار البعثة ، ولم تنقض بضعة أيام حتى كف الجميع عن الحضور وأغلق باب الفصل حزينا مكروبا . فقد كان أشبه بمن يقف فى بقعة هادئة وسط عاصفة . وأغلق باب الحديقة لا يفتحه إلا مرة فى مساء كل يوم حتى يتسلل الشيخ ويخرج لشراء شيء من الطعام . وقد حدث ذات يوم أن عاد الشيخ آخر الأمر وسلته خاوية .

وقال فى أسى : « لم يسمحوا لى بأن أشترى طعاما لك ، وإنقاذاً لحياتك يجب أن أتظاهر بأنى هجرتك ، وإنى أكرهك ، ولكننى سألقى بالطعام كل ليلة من فوق ركن الحديقة الغربى ، وسأردد « السلام لك يا مريم » فى الموعد المعلوم تماما فى كل مساء ، وليرعك الله بعد وليتولك بعنايته »

وغدا الأب أندريا من بعد وحيداً لا يؤنس وحشته أحد ، وأخذ يبيح لنفسه أن يفكر ويعاود الذكرى كل مساء ، ومضت الأيام طويلة موحشة افتقد فيها حتى المجذومين أنفسهم ، ولم تعد ثمة حاجة تدعوه إلى غسل يديه اللهم إلا من ثرى الحديقة النظيف الذى كان يعلق بهما بعد أن يمضى فى عجلة يفلح الخضر . وكانت الأصوات خارج الدار تشتد وتزيد صخبا حتى خال نفسه فى جزيرة صغيرة وسط بحر خضم ، وخال أن أمواج هذا البحر سوف تقتحم عليه يوما هذا المكان نفسه الذى أوى إليه .

وانطوى على نفسه أكثر وأكثر مستغرقا فى التفكير ، وراح ينسج الأحلام عن إيطاليا ، وعن بستان الكروم الذى كان يلعب فيه وهو بعد صبى . لقد كان مستطيعاً أن يشم رائحة الشمس الحارة وهى تلفح العنب الناضج — يا للأريج النادر ! ومضى يعيد بناء حياته من أولها وهو جالس فى كرسيه المريح القديم ليلة بعد

ليلة . وكان ذلك فى شهر مايو والنجوم تتألق فى سماء تكتسى باللون الأرجوانى ، ولكنه لم يعد يمس مذكراته أو أقلامه ، فقد غدا لا يحفل بشىء يمت للنجوم بصلة اللهم إلا جمالها العلوى الخالص ، وحمد الله على وجود النجوم والسماء فى كل مكان ! لقد كانت السماء فى الصين إبان شهر مايو كالسماء فى إيطاليا فى فصل الصيف تبرز فيها النجوم وتتألق كالذهب فى أديم السماء المظلمة ؛ لقد حدث له فى ليلة كهذه فى إيطاليا أن أطل من نافذته وإذا هو يفتن بجمال النجوم ، وخرج من المنزل لا يلوى على شىء قاصدا فيتيليا . وكان قلبه ينبض نبضا شديدا كضربات تقرع على طبل كبير ، فيهز جسمه هزا فى كل نبضة ، وهتف ألا مناص له من أن يبوح لها بحبه . وبلغ منزل أخيه وفتح له أخوه الباب وقال فى رفق :

« إننا على وشك أن نأوى إلى فراشنا يا أندريا ، فهل من خدمة نستطيع أن نؤديها لك ؟ »

ورأى فيتيليا خلف أخيه ، تبدو فى الغرفة كالشبح ، وقد شحب وجهها واستبهمت قسماته كأنها زهرة تلوح فى الغسق . وتقدمت فيتيليا ووضعت يدها فى خفة على ذراع زوجها ثم أسندت رأسها على كتفه . كانت راضية كل الرضا . وخمدت جذوة الحب التى كانت تضطرم فى قلبه .

وتمتم قائلا : « كلا ، شكراً لك ، لقد ظننت — لم أكن أعلم أن الوقت متأخر إلى هذا الحد — ظننت أننى قد أستطيع القدوم والتحدث معكما بعض الوقت »

فقال أخوه فى رصانة : « ليكن هذا فى يوم آخر »

وصاحت فيتيليا : « طابت ليلتك أيها الأخ أندريا ! » ، وأغلق الباب فبات وحيداً .

حدث ذلك فى الليلة التى قضاها فى الحديقة حتى مطلع الفجر ، فلما بزغ الفجر قال آخر الأمر إنه سيهب نفسه للفقراء ما دامت فيتيليا ليست فى حاجة إليه — أجل سيهب نفسه للفقراء فى بلاد بعيدة .

آه ، لقد كان الأمر يقتضيه أن يخمد كل هذه العاطفة والألم والشباب مستعيناً فحسب بالإرادة العارمة فى تعذيب نفسه ! ومع ذلك فلن يتحرر منها ، أجل لن يتحرر منها تماما ما دام على قيد الحياة . وتساءل أتعرف فيتيليا ذلك وهى تعيش فى رحاب النجوم .. هنالك حيث لا يخفى شىء حقاً . وربما أن يكون الأمر كما تصور ، فإن الأمر لا يدعوه من ثم إلى البوح لها بكل ما كابد من شقاء ، ولسوف تعلم ذلك كما لم تعلم قط وهى تعيش فى هذه الدنيا ، وهما مستطيعان بعد أن يبدآ فى الحال علاقتهما السماوية الجديدة .

ثم تنهد وهبط عندئذ إلى الحديقة ، وهنالك فى الطرف الغربى

وجد صرة صغيرة من الأرز البارد واللحم ملفوفة في ورقة من أوراق البشنين ، فأتى عليها ، ثم تلا صلاة « السلام لك يا مريم » وأصابعه تحوم حول الصليب المكسور المدلّى على صدره .

وطرق أذنيه من الشارع خارج السور صوت أقدام تسير سيراً حثيثاً ، أجل صوت آلاف وآلاف من الأقدام . وأنصت برهة متحجبا ، ثم زفر زفرة ومضى يرقى من جديد الدرج صاعداً إلى مرصده ، وجلس ثم أخذ يتأمل فى رحاب السماء الصافية ، فغفا .

واستيقظ فى صبيحة اليوم التالى فزعا يراوده نذير ، كأنما أيقظه فجأة جلبة وضجيج ، وظل لحظة لا يستطيع أن يجمع شتات نفسه ، وكانت النجوم قد خفتت فى ضوء الفجر الأشهب ، وسقف الكنيسة مظلما نديا . وبلغه من خارج المكان صوت اضطراب عارم ورصاص يطلق ، وصراخ يشق عنان السماء . فأنصت . لقد كان ثمة طلقات تنهال فى تتابع سريع ، واعتدل فى جلسته محاولا أن يحذر ما عسى أن يكون ذلك الذى سمعه . ترى أكان هذا هو السبب فى إيقاظه ؟ وتوقف سير الأقدام ، وأضاء الجزء الشرقى البعيد من السماء نيران متأججة هائلة . لقد كان ثمة شيء يحترق . . وإنه لحى الأثرياء من أهل المدينة ، حيث كانت تتدلى فى الشوارع الأعلام القرمزية والصفراء الخاصة بحوانيت الحبوب الكبيرة

وحوانيت الحرير والملاهى . ولكن قد تكون هى الشمس تشرق وحسب . كلا ! إن الشمس لا تشرق بهذا السناء من غشية هذه السماء المعتمة .

وجرّ نفسه جراً من الكرسى الذى كان يجلس عليه ، وهبط الدرج فى تثاقل ، وهو يشعر بفزع مبهم غامض . لم يكن قد استراح فى نومه واستيقظ وهو يحس بعقله ملبداً بالغيوم .

وما إن بلغ أسفل الدرج ووقف على الحشائش حتى قرع الباب قرعا عنيفا ، فتحرك مسرعا ليفتحه وهو يحك رأسه قليلا ليستجمع أفكاره . لقد كان هذا هو الضجيج الذى سمعه وهو نائم ! وراح يتلمس العارض الخشبي الكبير حتى سحبه آخر الأمر وفتح الباب ، ثم حملق مذهولا ، إذ ألفى دون الباب مئات من الرجال .. بل جنودا فى زى رمادى . وكانت وجوههم شرسة شراسة لم يكن يحلم قط بأن من الممكن أن يجد مثلها فى وجه من وجوه البشر ، وجفل منهم كما لم يجفل قط من مجذوميه . وهنالك صوبوا بنادقهم إليه صارخين كالنمور . ولم يدركه منهم خوف ، وإنما استبد به الذهول .

وسألهم فى دهشة : « ولكن ماذا تريدون يا أصدقائى ؟ »

وتقدم شاب ، لا يكاد يكبر تلميذه الذى هرب ، وقطع

المسبحة التى كانت تطوق عنقه . وسقط على الأرض ذلك الجزء من الصليب المكسور ، أجل سقط كل ما تبقى من الصليب الذى حمله طوال تلك السنين .

وصاح الشاب : « لقد جئنا نخلص العالم من الاستعماريين والرأسماليين ! »

وقال الأب أندريا : « الاستعماريون والرأسماليون ؟ » ، لقد كانت هاتان كلمتين لم يسمع بهما من قبل قط . أجل فقد انقضت سنوات كثيرة لم يقرأ فيها شيئا إلا ما كتبه آباء الكنيسة الأقدمون والكتب التى تبحث فى الفلك ، ومن ثم لم تكن لديه أقل فكرة عما يعنيه الغلام .

ولكن الغلام هيأ بندقيته للإطلاق وصوبها نحو الأب أندريا ، وصاح : « إننا الثوار ! » ، وكان صوته خشنا أجش كأنما ظل يصيح ساعات وساعات ، وكان وجهه ملطخا متورداً كأنما أسرف فى الشراب : « لقد جئنا نحرر الجميع ! » .

وقال الأب أندريا مستأنيا : « تحررون الجميع ؟ » ، وافتر ثغره عن ابتسامة صغيرة ، ثم انحنى ليلتقط الصليب من التراب .

وقبل أن تلمس يده الصليب ، تحرك إصبع الغلام فى عصبية على الزناد وانبعثت طلقة حادة ،وسقط الأب أندريا على الأرض ميتا !

الطريق الجديد

كان لوتشن صاحب محل للماء الساخن على ناصية شارع نورث حيث يقطعه زقاق أسرة هوانغ . وكان هذا المكان كما يعلم الجميع ، من أهم الأماكن فى ذلك الشارع كله ، ذلك أن محلات الحرير لم تكن ترفع أعلامها المصنوعة من الحرير البرتقالى فحسب ، بل كان هناك أيضاً أسر عريقة أخرى تقيم فى أسفل زقاق آل هوانغ . وكان الكتبة الذين يقضون وقتهم سدى فى المحلات المعتمة يرسلون ، بضع مرات فى اليوم ، سقاة الشاى ليأتوهم بقدور من الماء المغلى يمزجون به الشاى الذى كانوا يرتشفونه طوال اليوم ، وكانت سيدات الزقاق إذ يزجين الوقت يلعبن الميسر فى تأنق تارة فى بيت هذى وتارة فى بيت تلك ، يرسلن عبيدهن بضع مرات فى اليوم يأتونهن بالماء من محل لوتشن . لقد كانت تجارة رابحة ، أجل تجارة رابحة حتى فى عهد جده ، حين كان يعيش إمبراطور على مسيرة بضعة أميال فقط ، وحين كان ذلك الشارع نفسه ينتهى بملاعب خاصة بأمير من الأمراء .

وقد آل المحل إلى لوتشن عن أبيه ، كما آل إليه أيضاً كيس من

أكياس الأرز ملىء بالريالات الفضية ، وقد استنفد كيس الأرز فى الإنفاق على زواجه ، ثم امتلأ الكيس مرة أخرى شيئا فشيئا لينفق منه على تعليم ابنه وزفافه . والآن ، بعد أن فرغ الكيس فى هذه المرة الأخيرة عاد فامتلأ إلى خمسه ، وراح حفيد لوتشن يركض فى أنحاء المحل ، مروعا الشيخ بروحه المغامرة وتطلعه إلى تبين أمر المرجلين النحاسيين الكبيرين اللذين أقيما فى الأفران المصنوعة من اللبن .

وكان لوتشن يقول لحفيده الصغير مرة واحدة كل يوم على الأقل : « عندما كنت صغيراً لم أكن أقرب المرجلين قط ، بل كنت أطيع جدى ، ولا أمضى فى الجرى هنا وهناك كالفرخ الصغير إلى ما شاء الله »

ولم يكن الحفيد يفهم من ذلك شيئا . وكان بعد أصغر من أن يستطيع الكلام بوضوح ، ولكنه كان مستطيعا أن يدرك أنه حبة فؤاد جده ، وظل يترنح قرب الأفران ، تحت بصر الشيخ القلق . وألف الطفل بطبيعة الحال أن يُرْفع فجأة من بنيقة سترته الصغيرة ، ويتدلى متأرجحا فى الهواء إذ يمضى به جده فيضعه فى الغرفة الداخلية .

وقال لوتشن لابنه الصغير الطويل القامة يوما : « إننى لا أستطيع أن أفهم بحال طفلك هذا ، فمتى تعلمه الطاعة ؟ »

وكان ابن لوتشن قد نزع إلى الكسل والتبرم مذ فرغ من السنة الرابعة فى مدرسة المرحلة الوسطى الحكومية ، فقال فى شيء من المشاكسة وهو يهز كتفيه مجيبا أباه : « إننا لا نؤمن بالطاعة اليوم على نحو ما كنتم تؤمنون بها فى زمنكم »

ورمقه لوتشن بنظرة حادة . فقد كان لا يسلم بحال أن ابنه كسول ، بل لقد كان حين يستلقى بجوار زوجته داخل ستائر سرير المصنوع من الغاب يأبى الاعتراف بأن ابنه يتصف بهذا الكسل .

وكانت زوجة لوتشن تقول له أحيانا : « إن الغلام ليس لديه من العمل ما يكفيه ، فالمحل صغير وليس فيه حقا من العمل إلا ما يكفى رجلا واحداً . ولو أنك قد نعمت بالراحة الآن — ألست فى الخمسين من عمرك ؟ — وسمحت لابننا أن يتولى أمر المحل ، لكان ذلك خيراً ، فهو وإن كان قد بلغ العشرين لا يشعر بأنه مسؤول عن أرزه وأرز زوجته وإرز ابنه ؛ إنك تقوم بالعمل جميعا ؛ ترى ما الذى دعاك إلى إلحاقه بالمدارس إذا كنت تود أن يشب عاطلا ؟ » .

وألقى لوتشن عنه اللحاف الأزرق السميك المحشو بالقطن ، فقد كان هذا الحديث عن تركه العمل فى المحل يصيبه بالاختناق دائما ، ذلك أن السبب الحقيقى الذى دعاه لترك ابنه يواصل دراسته سنة بعد سنة هو أن ينفرد بالمحل .

فغمغم يقول : « إن ذلك المرجل الأكبر لا يتوقد أبداً كما أحب ، وقد قلت له مرارا : « خذ الرماد من الفرن وامزجه بقليل من الماء ثم أدلك به النحاس ، فإذا جف . . ولكنه لا يفعل ذلك قط » .

وأجابته زوجته : « لأنك لا تقنع بحال حين يطيع أمرك » وكانت زوجته امرأة ضخمة بدينة . أما لوتشن فقد كان صغير الجسم نحيلا ، لا تكاد تحس أبداً بأنه يرفع اللحاف بالنسبة إلى ذلك الجبل من لحم زوجه الذى يثوى تحته .

وقال فى صوت مرتفع : « إنه لا يفعل ما آمره به »

فأجابت فى هدوء : « إنك لا تقنع أبداً »

وكان هدوؤها هذا يثيره أكثر مما يثيره غضبها مهما استفحل . واستوى جالسا وراح يرمق وجهها الهادئ المطمئن ، وكان الضوء المنبعث من المصباح الذى يشعل بزيت الفول يتألق فى وميض غامض من خلال الستائر الخشنة المصنوعة من الكتان . وكان مستطيعا أن يرى عينيها الناعمتين وشفتيها المكتنزتين الجامدتين .

وقال لها فى صوت حاد : « إننى أفعل ماعلمنى أبى أن أفعله » .

وتمتمت : « آه ، حسنا ، ولنخلد إلى النوم . فأى جدوى ترجى من ذلك ؟ »

ولهث قليلا ، ثم استلقى على الفراش .

وقال آخر الأمر : « إنك لا تحفلين بأمر المحل فى شىء » وكان ذلك أخطر تهمة يستطيع التفكير فيها .

ولكنها لم تحر جوابا ، ذلك أنها كانت قد استسلمت للنوم ، وأخذ تنفسها العالى الهادىء يملأ أطواء الستائر .

واستيقظ فى صبيحة اليوم التالى مبكراً غاية التبكير ، وراح يزيل بنفسه الأوساخ من داخل المرجلين حتى عكسا صورة وجهه الأسمر النحيل ، وكان يود أن يتركهما فارغين حتى يستيقظ ابنه ، فيريه كيف يمكن أن يبدو المرجلان ، ولكنه لم يجرؤ على هذا الفعل ، ذلك أن العبيد والخدم كانوا يأتون مبكرين يطلبون الماء الساخن لحمام سيداتهم ، ومن ثم ملأ المرجلين بالماء من الجرار المصنوعة من الفخار وأشعل من تحتهما النار ، وسرعان ما أخذ البخار يتصاعد من تحت الغطائين الخشبيين المشبعين بالماء . وملأ المرجلين وأعاد ملأهما ثلاث مرات قبل أن يدلف ابنه إلى المحل وهو يفرك عينيه وقد زرر نصف زرائر الثوب القطنى الأزرق الذى التف حوله ، ووقف شعر رأسه .

وحدجه لو تشن بنظرة حادة وقال : « كنت وأنا صغير أنهض مبكرا وأدلك المرجلين وأشعل من تحتهما النار ، وكان أبى يخلد للنوم .

فأجاب الشاب فى استخفاف : « هذه أيام الثورة » ، ونخر لوتشن وتفل على الأرض .

ثم قال : « هذه أيام الأبناء العاقين والشبان الكسالى . كيف يكون حال ابنك إذ يرى أنك لست بقادر على كسب قوتك ؟ »

ولكن الشاب اكتفى بالابتسام ، وراح يزرر سترته فى بطء ، ومضى إلى المرجل القريب إليه وأدلى فيه حوضا يملؤه ليغتسل به .

وراقبه لوتشن ووجهه ينتفض ، ثم قال آخر الأمر : « إنما أقدر المحل حق قدره من أجلك ، ذلك أن هذه الحرفة قد تؤول إليك وإلى ابنك من بعدك . لقد ظل هذا المحل الذى يبيع الماء الساخن قائما هنا ستين عاما ، واشتهر بين الناس وذاع أمره ، والفضل فى حياتنا جميعا — حياة أبى وحياتى وحياتك — راجع إليه ، والفضل له الآن فى حياة ابنك »

وقال الشاب : « إن حديث القوم الآن يدور حول الطريق الجديد » . وراح يعصر قطعة قماش ساخنة بما بها من الماء ويمسح وجهه .

وكانت هذه أول مرة يسمع فيها لوتشن بالطريق الجديد . ولم يكن ذلك وقتئذ يعنيه فى شىء . وكان ابنه دائم الغياب ، دائب الكلام عن الأشياء الجديدة ، مذ حلت الثورة بالمدينة . ولم يكن لوتشن يدرك إدراكاً واضحاً حقيقة الثورة . لقد مرت به أيام

ركدت فيها تجارته بلا شك كل الركود ، كما مرت به أيام كانت المحلات الكبرى تغلق فيها أبوابها خشية السلب والنهب ، ورحلت الأسر التي يزودها بالماء الساخن باستمرار إلى شنغهاي . وكانت تجارته تقتصر عندئذ على ملء غلايات الشاى الصغيرة المصنوعة من الصفيح للفقراء ، الذين كانوا يساومونه على فلس من النحاس . وقال الناس إن الثورة هي السبب فانتابه القلق وراح يلعنها من صميم قلبه . ثم انتشر الجنود فجأة في كل مكان ، وأخذوا يشترون الماء في استهتار بالغ . حدث هذا عندما شرع يملأ كيس الأرز مرة أخرى . الثورة هي السبب في ذلك أيضاً . واستبدت به الحيرة ، ولكنه لم يعد يلعن الثورة . ثم عادت المحلات الكبرى إلى فتح أبوابها ورجعت الأسر القديمة ، فرحل الجنود مرة أخرى وعادت الأمور إلى ما كانت عليه أو تكاد ، إلا أن الأسعار ارتفعت فاستطاع أن يرفع سعر الماء أيضاً واطمأنت نفسه .

وقال لابنه في صبيحة يوم من الأيام : « فيم هذه الثورات ؟ لقد اختلفت إلى المدرسة .. فهل تعلم ؟ لقد كانت فورة عظيمة ، ويسرني أنها انقضت »

وهنا رفع الابن حاجبيه ، وأخذ يردد : « انقضت ؟ إنما هي قد بدأت . فاصبر . لتصبحن هذه المدينة قصبة الإقليم ، فيتغير عند ذلك كل شيء تغييراً عظيما »

وهز الشيخ رأسه وقال : « تغيير ؟ ما من تغيير عظيم يمكن أن يصيب الناس أبداً . فالأباطرة والملوك والرؤساء ومن إليهم ، بل والناس جميعاً لا بد لهم أن يشربوا الشاى وأن يستحموا .. وهذان أمران لا ينقضيان بحال »

حسناً ، ولكن ما شأن هذا الطريق الجديد ؟ لقد وقع فى هذا اليوم نفسه الذى تحدث عنه ابنه أن جاءت تلك الأمة الشابة الوقحة من الزقاق الثالث جنوبى المحل ، وقلبت طرف شفتيها وهى تقول له : « سمعت من مولانا حديثاً عن طريق جديد عظيم عرضه ستون قدما . فماذا يكون مصير مراجلك يالوتشن »

وكانت ذراع لوتشن عارية حتى المرفق ، وقد تغضنت واحمرت بفعل البخار المتواصل الذى يتصاعد من الماء . ولم يكن يشعر بالحرارة أو يكاد ، ولكنه راح الآن ، والأمة تتحدث ، يدفع بمغرفته المصنوعة من الغاب إلى أعماق الماء ، وأخذ ينخر . وارتعدت يده فسكب قليلا من الماء على المرجل فسقط على الجمر وارتفع منه أزيز ، ولم يتكلم الرجل بل تظاهر بأنه يقلب النار ، ذلك أنه لم يكن ليتحدث مع تلك المخلوقة السخيفة ، على أنه تذكر بعد انصرافها أنها أمة فى منزل لنغ ، ولما كان ابن لنغ الأكبر موظفا ، فقد يكون الحديث قد جرى حقا عن الطريق ، ومضى

يدور ببصره فى شىء من الرعب حول جدران محله الصغير الرمادية المشيدة بالآجر . وكانت قد اسودت بفعل الدخان والرطوبة وأصيبت بشقوق كان يذكرها من أيام طفولته نفسها . طريق عرضه ستون قدما ؟ وى ! إن هذا معناه أن المحل كله سوف يهدم من أساسه !

وقال يحدث نفسه : « لأطلبن منهم ثمنا للمحل يعجزون عن دفعه ، ثمنا ... » ، وراح يحسب فى مخيلته مبلغا يكون من الضخامة بحيث تدور له رأس أية حكومة « لأطلبن عشرة آلاف دولار ! » .

وهنالك انفرجت أساريره . فمن ذا الذى يدفع عشرة آلاف دولار ثمنا لرقعة من الأرض لا تزيد مساحتها على اثنتى عشرة قدما مربعة ولا يقوم فيها إلا المرجلان ؟ وأين يمكن أن يوجد هذا المال الكثير فى العالم ؟ وى ، إن الأمير منغ يوان قد بنى قصراً بمبلغ كهذا حين كان أبوه لا يزال شابا . وضحك قليلا ، وازداد تسامحا مع ابنه ونسى الطريق الجديد ، ومضى يحافظ على حياة الطفل من المرجلين كل يوم .

وفى ضحى يوم من الأيام جلس ليستريح ويشرب قليلا من الشاى . لقد كان دائما يغلى الشاى الخاص به بعد أن يفرغ المرجلين للمرة الخامسة ، وقبيل أن يشرع فى ملئهما مرة أخرى استعدادا

لطلبات الظهر . ويستطيع أن ينعم بشيء من الراحة فى هذه الفترة التى يكون فيها الناس قد اشتروا من الماء ما يلزمهم لشاى الصباح قبل أن تحين الساعة لوجبة الظهر . وكان يضع حفيده على ركبته ويدعه هو أيضا يشرب ، ثم يبتسم وهو يراه ممسكا الطاس بيديه ويشرب ، ويحملق فى رصانة ووقار من فوق حافته .

وقرع الباب فجأة قرعا حادا كأنه ضربة سيف . وأنزل لوتشن الطفل فى عناية وأبعد قدر الشاى عن متناول يده . ومضى إلى الباب وراح يتسكع قليلا ، ثم سحب العارض الخشبى . وكان يقف بالباب رجل فى زى رمادى من القطن . كان ضابطا شابا من رتبة ما، تبدو فى عينيه أمارات الغطرسة ، ولم يكد ينظر إلى لوتشن .

وقال لوتشن فى شيء من الجبن : « سيدى » ذلك أن الضابط الشاب كان يحمل بندقية وحزاما مليئا بالرصاص ، إلا أنه قاطعه قائلا :

« إن الطريق الجديد سيمر بمحلك ، فما اسمك أيها الشيخ ؟ » وأخذ الضابط يطلع بسرعة على قطعة من الورق كان قد أخرجها من جيبه « أى نعم ، لو ! على بعد ثلاثين قدما من منزلك . يجب أن يزول محلك من الوجود بعد خمسة عشر يوما من اليوم ، وإلا هدمناه نيابة عنك » . وطوى الورقة فى إهمال وأعادها إلى جيبه ،

ثم استدار لينصرف . وكان فى أعقابه ثلاثة جنود من الأنفار ، واستداروا هم أيضاً وانتظمت خطواتهم . ولم يستطع لوتشن الكلام وابتلع ريقه ولكن حلقه كان جافا ، فلم ينبعث منه صوت . والتفت أحد الجنود ينظر إليه نظرات غريبة كأنما يرثى لحاله . وأطلق هذا الرثاء فجأة عقال لسانه .

وصاح من خلف الضابط الشاب بصوت أجش : « عشرة آلاف دولار ! »

وتوقف الضابط فى الحال واستدار يواجهه .

وقال فى حدة : « ماذا تقول ؟ »

فقال لوتشن متلعثما : « ثمن هذا المحل عشرة آلاف دولار ! »

وأمسك الضابط الشاب ببندقيته ، فانكمش لوتشن فزعا خلف الباب وأوصده . ولكن الضابط الشاب لم يكتف بهذا ، بل عاد أدراجه ودفع بندقيته فى الباب حتى إن لوتشن ترنح وارتطم بالطفل وانبعث الطفل يبكى . ولم يحدث فى حياة الطفل قط أن بكى فلم يهرع إليه لوتشن . ولكنه فى هذه المرة لم يهرع إليه ، بل لم يسمعه . فقد كان يرمق الضابط الشاب بنظراته لا يريم ، وراح يدمدم المرة بعد المرة على غير وعى منه : « عشرة آلاف دولار ! عشرة آلاف دولار ! »

وحدجه الضابط بنظراته ثم انفجر يضحك ضحكة باردة وقال : « هذه هى إذن مشاركتك فى بناء القصبة الجديدة » . وانطلق يصدر أمراً فى صوت حاد ، ومضى فى سبيله .

مشاركته ؟ أية مشاركة يعنى ؟ وكان الطفل منبطحا على أديم الأرض يولول ، وقد ألف البقاء حيث يسقط ، ذلك أن شخصا كان يلتقطه من الأرض دائما ، ولكن لم يقبل فى هذه المرة أحد لنجدته . ووقف لوتشن ينظر من خلال الباب مشيعا الضابط الشاب . وغاص قلبه فى جسمه حتى تعذر عليه أن يتنفس . أيتخلى عن محله ، عن حياته ؟ ما كل هذا الحديث الذى يدور حول القصبة الجديدة ؟ لم يكن هذا من شأنه . والتفت فرأى الطفل والتقطه مذهولا ووضعه على قدميه . ثم حمله بين ذراعيه وجلس . وى ، إن المحل ملك الطفل ! ولن يستطيع أحد أن ينتزعه منه . وتملكته سورة من الغضب خففت عنه ما يعانى ، فقد قضت على ما ساوره من خوف . إنه لن يتخلى أبداً عن المحل .. أبداً ! ولسوف يعتصم به حتى يهدموا الطوبة الأخيرة فوق رأسه . ووضع الطفل على الأرض مرة أخرى وأخذ يروح ويغدو متشامخا ، وملأ المرجلين وأشعل نيرانا تهدر وتزمجر ، وما انقضت ساعة حتى كان الماء يغلى ويتصاعد بخاره فيرفع الغطائين الخشبيين . وكان حاداً غاية الحدة مع عملائه ، ولما جاءت الأمة السليطة بوجنتيها الموردتين

وعينيها السوداوين الوقحتين قتر عليها قليلا فى الماء وأبى أن يملأ الغلاية بالرغم من أنها نهرته .

وأدركت أنه لن يعطيها مزيداً من الماء فصاحت فى وجهه تقول : « ليكونن من الخير لنا جميعا أن يشق الطريق الجديد ويطيح بمحلك أيها اللص العجوز »

وصاح فى أعقابها : « لا يمكن أن ينتزع منى شىء » ، وطرقت أذنيه ضحكتها الساخرة فصاح مرة أخرى يقول : « هذه للطريق الجديد ! » ، وبصق على الأرض .

وانفتح الباب بعد برهة ودخل ابنه ، وسأله فى تراخ وهو يتحسس قدر الشاى ليرى إن كانت لا تزال ساخنة : « ماذا تقول عن الطريق الجديد ؟ » .

وقال لوتشن : « إيه ، أما زلت تعود طلبا للطعام ؟ أين كنت اليوم ؟ »

وقال الغلام وهو يرشف الشاى من فم الإبريق وقد كاد أن يبرد : « ولكن هذا الذى يقال عن الطريق الجديد صحيح ، أجل صحيح تماما . سيجحف بنا مباشرة . ولن يبقى من المحل — « على بعد ثلاثين قدما » — إلا نصف غرفتى النوم القائمتين خلفه »

وحملق فيه لوتشن غير مصدق . وانتابه الغضب فجأة حتى

غشيت عيناه . ورفع يده وأطاح بإبريق الشاى من يد ابنه ، فسقط على الأرض وانشعب ثلاث كسر .

وتمتم لوتشن فى صوت غليظ : « أتقف هناك .. أجل تقف هناك وتشرب الشاى .. » ورأى الدهشة تعلو وجه ابنه ، فانبعث يبكى ، ثم أسرع بقدر ما وسعه إلى الغرفة التى ينام فيها ودلف إلى فراشه وأسدل الستائر .

فلما استيقظ فى صبيحة اليوم التالى كان لا يزال غاضبا من ابنه . وكان الشاب يأكل الأرز فى براءة وإذا بلوتشن يقطب حاجبيه ويتمتم قائلا : « أجل ، أنت تأكل وابنك يأكل ولكنك لا تفكر فى المصدر الذى يأتى منه المـال » . على أنه لم يكن يعتقد برغم هذا كله أنهم سوف ينتزعون منه المحـل حقا ، ومضى يؤدى عمله كما كان يؤديه من قبل .

وجاءته زوجته فى اليوم الحادى عشر بعد اليوم الذى أنذره فيه الضابط ، وعلى وجهها أمارات رعب شديد ، وقالت : « صحيح أن الطريق فى سبيله إلينا ، وإذا تطلعت إلى الشارع رأيت مشهداً وأى مشهد ، فما عسى أن نصنع ؟ » ، وشرعت تبكى فى رفق لا يكاد يظهر على وجهها العريض أثر الاضطراب .

ورآها لوتشن على هذه الحال فأحس بأنه ينتفض ، ومضى إلى

الباب وتطلع إلى الشارع. لقد كان الشارع دائما ضيقا أشد الضيق ملتفا أشد الالتفاف، معتما أشد العتمة بفعل لافتات المحلات المدلاة المصنوعة من الخشب المصقول والحرير الملون، حتى إن المرء لم يكن ليستطيع الرؤية إلا على بعد بضع أقدام، ثم إذا بالضوء الغريب، ضوء الشمس المشرقة، يغمر الحصباء الرطبة. وعلى بعد عشرين قدما كانت اللافتات قد اختفت جميعا، وراح الرجال يهدمون المنازل. وغشيت أديم الشارع أكوام من الآجر والقرميد جللها غبار الزمن، ووقفت قوافل من الحمير وعلى ظهورها السلال تنتظر لتنقلها بعيداً. وكان الضابط نفسه الذى كان قد رآه من قبل يروح ويغدو وفى أثره أربع نساء غاضبات، استرسل شعرهن على ظهورهن. كن يلعن ويولولن، وكان «لو» مستطيعا أن يسمعهن هاتفات:

« ليس لنا حياة بعد، ليس لنا حياة بعد! فقد ولت ديارنا! »

وهنالك دخل لو المحل وأغلق الباب ووضع من خلفه العارضة وجلس على الأريكة الخشبية الصغيرة القائمة خلف المرجل، وركبتاه ترتجفان، وعقله يدور كأنه فى لجة. لقد كان الطريق مقبلا فى إصرار وإلحاح. وجرى الطفل من الغرفة الداخلية واستند على ركبتيه، بيد أن لو نظر إليه فى جمود وتبلد. ورأى الطفل جده سارح النظرات فتطلع فى خبث ولمس المرجل الكبير بإصبعه يتحسسه، ولكن لو للمرة الأولى فى حياته لم يصح به ينهره، بل

خطر له خاطر كئيب « تحترق ؟ إن هذا لا يعنى شيئا يذكر . فإنك لتقضين جوعا آخر الأمر »

وطرق الباب طرقا مروعا فى تلك اللحظة فقفز قلب لو إلى حلقه ، ومضى يرفع العارضة وجسمه كله متوتر مشدود . كان الطارق هو الضابط فى زى جديد نظيف كل النظافة ووقف خلفه الجنود الثلاثة ، وما كان منظرهم ليوحى إلى أى إنسان أنه قد لعنهم منذ دقائق فأسرف فى لعنهم ، فقد كانوا يبدون شديدى الثقة بأنفسهم ، ونظر إليهم لو فشعر فجأة بأنه بلغ من العمر عتيا وأنه من الخير له أن يموت .

وقال الضابط : « يجب أن يزول محلك خلال أربعة أيام ، فاهدمه بنفسك لتصبح الأنقاض لك ، وإلا صادرناه نحن »

وقال لو تشن متلجلجا : « ولكن المال ؟ »

وردد الضابط قوله فى حدة : « المال ؟ » ، وراح يربت على حذائه الجلدى اللامع بعصا صغيرة كان يحملها .

وقال لوتشن فى لهجة أكثر ثباتا وهو يستجمع شجاعته : « الثمن هو عشرة آلاف دولار »

وضحك الضابط ضحكة قصيرة حادة وأجاب فى كلمات خرجت كل كلمة منها واضحة : « لن يدفع لك من المال شىء . فإنك تقدم

هذا المحل هدية للجمهورية » . وراح لوتشن ينظر حوله نظرات زائغة . لا شك أن كان ثمة تعويض . ولا شك أن شخصا سوف يهب لمساعدته .

وانبعث يصرخ فى صوت حاد متقطع متوجها إلى المارة الذين كانوا يجتازون الشارع » أترون هذا ياساده ؟ إنهم يسرقوننى... والذى يسرقنى هو الجمهورية ! ومن تكون هذه الجمهورية ؟ أو تستطيع أن تطعمنى انا وزوجتى وابنى ... »

وشعر بمن يجذبه بخفة من سترته . وراح الجندى الذى كان قد التفت إليه منذ أيام يهمس فى عجلة :

« لا تغضب الضابط . . وإلا ازدادت الحال سوءا » ، ثم رفع صوته قائلا : « لا تشك أيها الشيخ ! فإن محلك خليق بأن يزول على كل حال ، ولن نحتاج لمحلات للمياه الساخنة فى العهد الجديد الذى سيبزغ فجره قريبا ، ولسوف يتدفق الماء الساخن فى الأنابيب وتحمله من تلقاء نفسها »

وكان خليقا بلوتشن أن يجيبه لولا أن ابنه جذبه إلى الوراء فى تلك اللحظة ، وتقدمه يواجه الضابط . وأنشأ الشاب يقول فى جزع وأدب :

« هل لك ياسيدى أن تصفح عن شيخ لا يدرك أن الثورة قد

أقبلت وجاءت معها بنور جديد ، وإنى لمجيبك نيابة عنه . لنهدمن المنزل ياسيدى . وإنه لشرف لنا أن نضحى بكل ما نملك فى سبيل الوطن » .

وتلاشى الغضب الشديد الذى كان قد بدأ يعلو وجه الضابط ، فأومأ برأسه إيماءة صغيرة ، وانصرف مسرعا .

وأوصد الشاب الباب دون ذلك الجمهور المتطفل الذى كان يرثى له بعض الرثاء ، وقد تجمع ليرى هذا المنظر . . ثم وقف مستنداً إلى الباب يواجه لوتشن . ولم يك لوتشن قد رآه قط فى مثل هذا الحزم والعزم .

وسأله : « أتريد أن نقتل جميعا إذن ؟ أنموت فى سبيل محل ؟ »

وقال لوتشن وهو يجلس إلى الجانب الآخر من المائدة أمام زوجته : « سنموت جوعاً على كل حال » وكانت المرأة قد مضت تبكى طيلة الوقت دون أن يصدر منها صخب أو ينبو عنها مايزعج ، وإنما كانت تمسح العبرات المنحدرة على خديها بطرف سترتها الزرقاء .

وقال الابن : « لقد وجدت عملا . وسأعمل ملاحظا للعمال فى الطريق الجديد »

وهنالك تطلع إليه لوتشن دون أن تراود قلبه بارقة من أمل . وهمس يقول : « حتى أنت يابنى ؟ »

ودفع الشاب شعره المنسدل على جبهته إلى الوراء فى قلق ، وقال :

« لن تجدى المقاومة يا أبى ، فالطريق آت . تصوّره فيه ، طريقاً جديداً عظيما يشق مدينتنا ! والسيارات تروح فيه وتغدو ! لقد رأيت مرة وأنا فى المدرسة صورة شارع فى مدينة أجنبية — رأيت حوانيت كبيرة وسيارات تندفع فى غدوها ورواحها ، وإنما نحن الذين نستخدم عربات اليد والمركبات التى يجرها الرجال والحمير يزاحم بعضها بعضاً فى الشوارع ، وى ! إن هذه الشوارع قد شقت منذ ألف سنة ، ألا تكون لنا شوارع جديدة أبدا ؟»

وتمتم لوتشن : « ومافائدة السيارات ؟ » ، وكان قد رآها كثيراً خلال الأسابيع الماضية وهى تزحم الشوارع وتندفع فى إصرار وعناد ، تدفع الناس إلى الاحتماء منها بالأبواب والأزقة الجانبية . وقد كرهها . فأنشأ يقول : « إن أجدادنا ... »

ولكن الشاب طرقع بأصابعه وصاح : « إنما كانت تلك هى دنياهم ! ولسوف أحصل على خمسين دولارا فى الشهر من الطريق الجديد »

خمسون دولارا فى الشهر ؟ وانتاب الذهول لوتشن . إنه لم ير فى حياته قط هذا القدر من المال . فانصرف ذهنه عن الحزن قليلا ، وكفت زوجته عن البكاء .

وسأله فى شىء من الخوف : «ومن أين يأتيك هذا المبلغ الكبير ؟

فأجاب الابن فى بشاشة و لطف : « لقد وعدتنى به الحكومة الجديدة »

وقالت الأم : «سأشترى لى سترة جديدة من الأطلس الأسود » وبدأت أساريرها تنفرج ، ثم راحت بعد فترة من السكون ، فكرت خلالها فى السترة ، تطلق ضحكة خشنة مدمدمة .

أما لوتشن فقد تدبّر الأمر ملياً ولاح له أنه ليس ثمة أمل يرجى لمحله . مادام لم يعد وسيلتهم الوحيدة لكسب العيش ، وجلس طول يومه لا يشعل النار ، وغدا المرجلان الكبيران باردين للمرة الأولى من ستين عاماً .

ولما جاءه الناس يشترون الماء قال لهم :

« لم تعد لكم بالمحل من حاجة ، فلسوف تزودون بالأنابيب ، وعليكم ، إلى أن يتم هذا ، أن تسخّنوا ما تحتاجون إليه من ماء »

وأخرجت الأمة الوقحة لسانها له ، وكان لساناً صغيرا أحمر كالكرز ، ولكنه هز رأسه دون أن يساوره من فعلها غضب أو يستثير فيه الاهتمام .

وسأله ابنه فى اليوم التالى :

« هلاّ نستدعى البنائين ليهدموا المنزل ، خشية أن نخسر كل شىء ؟»

وأثاره ذلك قليلا ، فصاح قائلا : « كلا ، ما داموا سيسلبونى ، فدعهم يسلبوننى كل شىء ! » . وبقى فى منزله أربعة أيام ممسكا عن الأكل ، بل ممسكا عن فتح الباب ، بالرغم من أنه كان يسمع أصوات الهدم تقترب منه شيئا فشيئا .. يسمع صوت تحطم الآجر المنهار ، وأنين الأخشاب أقيمت منذ قرون وأخذت الآن تتدلى إلى الأرض ، وبكاء كثير من الناس الذين هدمت منازلهم مثله .

وفى اليوم الخامس عشر طرق الباب طرقا شديدا ، ونهض فى الحال ليفتحه ، فوجد اثنى عشر رجلا مسلحين بالفؤوس والمعاول فواجههم قائلا : « أوقد جئتم تهدمون محلى ؟ إننى رجل لا حول لى ولا قوة . فهاكم المحل » ، ثم عاد فجلس على أريكته ، واحتشدوا هم داخل المحل ، ولم تكن تلمح على وجوههم مسحة من عطف ، فقد كانوا قد هدموا على هذا النحو مئات من المحال والبيوت . ولم يكن هو فى نظرهم على ما تبين بوضوح إلا شيخا ، أجل شيخا أشد إزعاجا من الآخرين .

لقد كانت زوجته وابنه وزوجة ابنه وطفلهما قد مضوا جميعا إلى منزل صديق فى صبيحة ذلك اليوم ، وحملوا معهم كل شىء إلا الأريكة التى كان يجلس عليها لوتشن والمرجلين . وكان ابنه قد قال : « تعال معى يا أبت . لقد أعددت مكاناً .. أجل استأجرت

منزلا صغيراً . فقد دفعوا إلىّ من أجرى عن الشهر الأول بعض المال مقدماً » ، ولكن لوتشن هز رأسه فى عناد ، وجلس ساكناً لا يريم وهم يرحلون .

لقد كان هنالك المرجلان النحاسيان الكبيران مطمورين فى الصلصال الذى صنع منه الفرنان ، وراح عاملان يحاولان تحطيمهما بفأسيهما .

وقال لوتشن لجأة : « لقد وضع جدى هذين المرجلين هنا ، ولم يعد لمثل أولئك العمال وجود فى أيامنا هذه »

على أنه لم يزد حرفاً وهم ينزعون القرميد من السقف ، وبدأ الضوء يتسلل من خلال الروافد ، ثم انتزعوا الروافد آخر الأمر ، فجلس بين جدران أربعة وأشعة شمس الظهيرة مسلطة عليه . كان مريضاً خائر القوى . فلما حلّ المساء كان لا يزال يجلس فى موضعه وقد غدا محله كومة من الآجر والقرميد والروافد المحطمة تنتثر من حوله . وكان المرجلان يبرزان سافرين من بين الأنقاض ، والناس يحدجونه بنظراتهم فى فضول ولكنهم لم يقولوا شيئاً ، وظل هو جالسا فى مكانه .

وجاء ابنه آخر الأمر عند الغروب وأخذه من يده ، وقال فى رفق : « إن الطفل لا يريد أن يأكل لأنك لم تأت ياأبت » ،

وهنالك نهض لوتشن ، نهوض شيخ طاعن فى السن ، ومضى مع ابنه ممسكا بيده .

وأقاموا حينئذ فى منزل صغير مسقوف بالقش داخل الباب الشمالى تماماً ، حيث الحقول والأرض الفضاء . ولم يستطع لوتشن أن يتحمل السكون ، وهو الذى عاش طول عمره فى ضوضاء الشوارع . لم يكن يحتمل أن يسرح ببصره فى الحقول الخاوية ، فراح يجلس طول يومه فى غرفة النوم الصغيرة الخاصة به هو وزوجته ، لا يكاد يفكر فى شىء على الإطلاق . أما وإن الحاجة لم تعد تدعوه إلى العمل فإنه لم يلبث أن شيَّخ وشيَّخ ، وجاء ابنه آخر الشهر بخمسين ريالا فضياً مستديراً وراح يستعرضها فرحاً مسروراً .

وصاح قائلا : « هذا مبلغ أكبر مما كان يأتى به المحل » . لم يعد كسولا أو مهملا ، بل كان يرتدى زياً رماديا نظيفا زرره فى أناقة حول جسمه .

ولم يكن من لوتشن إلا أن غمغم وحسب قائلا : « لقد كان ذلك كما المرجلان يسعان عشرين جالونا من ماء النهر على الأقل » .

وأرته زوجته يوما ، وكانت قد هدأت واطمأنت فى هذا المنزل كدأبها دائما ، سترتها الجديدة المصنوعة من الأطلس ، وهى

تسويها فوق صدرها الضخم ، ولكنه اكتفى بأن حدجها بنظره ثم قال لها فى تثاقل : « لقد كان لأمى يوما سترة رمادية مطرزة بالحرير » ، وعاد إلى تأملاته مرة أخرى .

ولم يستطع أحد أن يحمله على الخروج من الباب . كان يلزم الدار يوما بعد يوم . فاشتعل رأسه شيبا ، وتهدل لحم وجهه بعد أن كان مشدوداً بفضل ما كان يبذله من نشاط . أما عيناه اللتان كانتا دائما ضيقتين متيقظتين نافذتين ، فقد أصبحتا متبلدتين تغشاهما عتمة لا تصيب إلا الشيوخ ، على أن الطفل وحده كان يروّح عنه أحيانا ترويحا لا يدوم إلا فترة وجيزة .

وكان الطفل هو الذى استدرجه آخر الأمر إلى خارج الباب ، ذلك أنه كان قد قضى جميع أيام الشتاء المبكر الآخذة فى القصر جالسا يحدق من النافذة الصغيرة لغرفته ، وكان يومه يتميز بوجبات طعامه الثلاث ، ثم ينام بالليل نوما مضطربا ، ويستغرق فى النوم أحيانا وهو فى كرسيه ورأسه على المنضدة .

وهنالك فقط هطلت الأمطار أسبوعاً ، وأعقبت هذا أيام معتدلة خداعة تتخلل فصل الخريف قبل أن يحل البرد القارس . ولقد شعر طوال ذلك الصباح بالحرارة الرطبة الخفيفة . وقد غمرت أشعة الشمس الأراضى وهى تشرق منحرفة من خلال

السحب الرمادية . وكان قلقاً فدفع النافذة فانفتحت ، وتضوع
الجو برائحة الثرى والرطوبة ، رائحة تربة ناضرة ، وقال وهو
يتشمم الرطوبة : « لقد كنت مستطيعا أن أملأ أحد المرجلين بماء
المطر » ، وكانت مياه الأمطار فى الأيام الخوالى تباع بثمن مرتفع.

وفى تلك اللحظة جاء الطفل وراح يشده من يده ، ويصيح
وهو يضحك : « هيا بنا خارج الدار ، خارج الدار ! تعال نلعب ! »

وشعر لو تشن فى أعماقه بشىء يثيره . حسنا ، لعل من الخير
أن يخرج قليلا . ثم نهض ببطء وأخذ بيد الطفل وخرج . وكان
الجو غاية فى الدفء ، وأحس بأن الشمس تشد من عزمه . وبذل
جهدا لينصب قامته ، ثم شرع فى السير ماضيا إلى بعض البيوت
القريبة منه . لا بأس من أن يذهب إليها ليقف على ما يكون لدى
أهلها من أبناء ، فقد انقضى زمن طويل لم يسمع شيئا من الأخبار .
لقد كان ابنه مشغولا طول يومه ، أما المرأة ، ولكن من ذا الذى
يتحدث مع امرأة ؟

كان الطفل يثرثر ، وقد شاع فى الجو صرير فاتر منبعث من حشرات
الخريف . وكان الجو أشبه بالربيع . ونظر حوله متعجبا .
ترى أين كان بالضبط ؟ ها هو ذا الباب الشمالى يقوم هناك . آه
إن ذلك نهاية الشارع الذى كان فيه محله . ليذهبن وينظر إليه
وهل يحتمل منظره ؟ وسار يستحث الخطى بعض الشىء .

ثم استدار عند ناصية فوضح الشارع أمامه . ما هذا ؟ رقعة من الأرض خالية عريضة هائلة تشق وسط المدينة ! وكان على جانبيها الطرقات المعهودة والأزقة الصغيرة الملتفة المعتمة التي عرفها دائما ، وأقبل يخط وسطها كأنه قطع سليم أحدثه نصل سيف كريم ، وهذا ، أجل هذا هو الطريق الجديد !

وراح يحملق فيه وقد انتابه الفزع فجأة ، وى ! إنه لعظيم . . ماذا عسى أن يفعلوا بطريق كهذا ؟ لقد كان الرجال الذين يعملون فيه كالبعوض . . أو كالنمل . إن جميع سكان الأرض يستطيعون أن يمضوا فيه روحة وجيئة دون أن يزاحم أحدهم الآخر . لقد كان ثمة قوم يقفون مشدوهين وقد خيم عليهم الصمت . وأثار اهتمامه شيء من الصرامة فى ملامح وجوههم .

فقال لرجل نحيل الوجه كان يقف بالقرب منه : « أكنت تقيم هنا ؟ »

وأومأ الرجل فى بطء ثم قال : « لقد كان المنزل كل ما أملك ، كان منزلا عظيما شيد فى عهد آل منغ . وكان يشتمل على عشر غرف . وإنما أقيم الآن فى كوخ . ولا أكتمك أن المنزل كان هو كل ما أملك ، وكنت أؤجر غرفه » .

وأومأ لوتشن وقال فى عسر : « لقد كان لى محل — محل لبيع

المـاء الساخن » . وكان يود أن يزيد . وتبادر إلى لسانه : « لقد كان فيه مرجلان ضخمان من النحاس » ، ولـكن الرجل لم يكن منصتا إليه ، بل راح يتطلع إلى الطريق الجديد المترامى الأطراف .

واقترب منه شخص ، تبين لوتشن أنه ابنه . وافتر ثغر الشاب عن ابتسامة وهرع إليه يعدو وصاح قائلا : « أبتاه ! » ، ثم أردف : « ابتاه ، مارأيك فيه ؟ » .

وارتجفت شفتا الشيخ ، وشعر أنه بين أمرين: يضحك أو يبكى ، ثم أجاب : « إنه .. لـكأن عاصفة عارمة اكتسحت المدينة » .

إلا أن الشاب اكتفى بالضحك ثم قال فى غيرة وحماسة . « انظر يا أبت ، هذا هو العمل الذى عهد به إلىّ ، انظر ! ستمتد أرصفة على جانب ، ويقوم فى الوسط مـكان للعربات الـكهربائية وعلى جانبيه فسحة عظيمة للعربات من كل نوع .. ستكون ثمة فسحة لـكل شىء ! ولسوف يسير الناس من أركان الأرض ويركبون فى هذا الطريق .. الطريق الذى يجتاز القصبة الجديدة ! » ، وناداه بعضهم فانصرف يضطرب فى مشيته بعض الاضطراب .

ووقف لوتشن فى مكانه لا يريم ، محملقا فى الطريق . وكان الطريق يحف به من الجانبين عريضا لا تدرك له نهاية ، ممتداً فى الفضاء امتداداً لا ترى العين له آخرا . وتساءل فى رصانة :مامداه ؟

ذلك أنه لم يكن قد رأى فى حياته طريقا يضارعه فى اتساعه واستقامته ، فقد كان الطريق فى الطرف الآخر على قدر ما استطاع أن يبصر يمتد ويمتد ، رائعا جليلا ، جديداً ! وى ، هاكم شيئا عجيبا . إن الأباطرة أنفسهم لم يشقوا طريقا كهذا ! وأطل على الطفل الصغير الذى يقف بجواره ودار بخلده أن هذا الطفل سوف يتقبل الطريق تقبله للأمر الواقع، ذلك أن الصغار يأخذون الأمور مأخذ الواقع . . على نحو ما تقبل ابنه هدم المحل . وللمرة الأولى لم تطف كلمة « سرقة » بمخيلته عندما فكر فى محله ، بل طاف بها بدلا منها السؤال التالى : « ترى هل أصبح ابنه رجلا بفضل هذا الطريق ؟ » ، فقد أدرك أن ابنه يعنى بأمر الطريق كما كان يعنى هو بأمر المحل . وظل على وقفته مع الطفل ، يسرح الطرف فيه برزانة مستغرق الفكر متأملا أهميته . هذه الثورة .. وهذا الطريق الجديد ! ترى إلى أين يمضى

الفهرس



صدر عنها لمشروع

الألف كتاب

	مليم
• لمن تدق الأجراس « ج ١ »	٢٢٥
• لمن تدق الأجراس « ج ٢ »	٢٨٠
• الحرية المحرمة	١١٥
• ميكانيكا السيارات	٢٣٠
• قصص عالمية	٢٤٥
• إيزيس وإيزوريس	١٢٥
• حكايات فارسية	٢٥٥
• الچيولوچيا فى خدمة الإنسان ...	٢١٥
• أول من وصل إلى القمر	٢٢٥
• المكننة البشرية	٢٠٠
• العين والشمس	١٥٥
• محمد إقبال	٢٥٥
• رجال عاشوا للعلم	٢٨٥
• جهود المسلمين فى الجغرافيا	٢٠٥
• نصوص مختارة من تولستوى	١٢٥
• قصص من الصين	

مطابع دار القلم بالقاهرة